

حنا مينه الذئب الأسود

رواية



دار الآداب



هنا صينة

الذئب الأسود

رواية

الطبعة الأولى
دار الآداب - بيروت

الذئب الأسود

حنا مينة/روائي سوري

الطبعة الأولى عام 2005

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نظام استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناءة بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت - لبنان

هاتف : 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس : 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

جلس دغمش الصياد في فيء صنوبرة هرمة، مستدماً ظهره
شبـه المقوس على جذعها التخين، ممدداً رجليه على طولهما
فوق العشب اليابس من إبر الصنوبر، الممسمدة كأنما بيد
صانع ماهر، من ريح رهوة أسقطتها من غصون الصنوبرة،
وسفتها بتأن عجيب، فجاءت منسقة: الإبرة إلى جانب
الأخرى، منداحة طبقة فوق طبقة، في اصطدامها الذي لا
خلل فيه، وفي استقامة عيدهانها الناعمة التي لا تقصف فيها،
مما يدل على أنّ قدم إنسان، أو حيوان، لم تطأها، مصادفة
لا قصداً، كي تبقى، ثمة، مفروشة على الأديم، مغربية كلّ
من يراها على الاستلقاء عليها، طلباً للراحة أو النوم، في
قيلولة ما بعد الظهر، أو في رقدة الكرى ليلاً، حيث
الصمت يرين بمهابته القدسية، والنسمات المنعشة بطرافتها،
تحمل إليه موسيقى أرغن ابتهالية، من معبد ما، قريب وبعيد
في آن، قريب لأنّه موجود، وبعيد لأنّه غير موجود، فلا
تملك النفس المضناة بالتفكير إلا السجود لله في ورع شديد،
بينما المغيب يقترب بكل جلاله الفتان، والشمس تسحب
بقايا ابتسامتها الذهبية عن الربى، وهامات الأشجار تودعها
بشجن المساء، الذي يأتي متندلاً ليختيم على الكون.
«أيها المتعبون تعالوا إلى وأنا أريحكم» دغمش الصياد

متعب، يلتمس الراحة في غابة الله البكر، ويندقّيته في حضنه، تحوطها ذراعاه كما الطفل المدلل، مستشعرًا أنه في بيت أبيه، فلا هو بالمستأجر ولا هو بالعابر، كونه رائدًا ومقيمًا، وفي رياضته جسارة، وإقامته إناخة، بعد تجوال طويل، انتقل خلاله من غابة إلى غابة، حتى أوفى، في تطوافه، على الغابات الائتين والعشرين، ما بين كبيرة ضخمة، تردم حفيفاً الأشجار ازدحاماً، ومتوسطة واسعة الرقعة، قليلة الأشجار، متفرقة الينابيع، وصغيرة يجتازها المرء ماشياً، في نصف النهار، متلذّطاً في سيره بحرارة القيظ، لندرة الشجر والثمر، وشحوب الكائنات المتناثرة فيها!

متعب دغمش إلا أنه مصمم: لابد من قتل الذئب الأسود، الذي يعيث فساداً، بل هو الفساد انتشر واستشرى، وصارت له جراء سود لا يُعرف عددها، موجودة، على نحو كثير أو قليل، في الغابات الائتين والعشرين التي مرّ فيها. بحث، بدأب لا يعرف الكلل، بين أجمامها، عن عدوه وعدو الناس، خارجاً من بحثه بيقين، إنّها تتواجد في القصور، وتغير على الأكواخ، ناهية، على جشع لا يعرف الشبع، حتى كسرات الخبز التي يقتات بها الفقراء. وقد التقى، في كلّ غابة، صياداً يبحث مثله عن هذا الذئب ليقتلته، وبعد ذلك تجري تصفيّة الجراء، واحداً بعد الآخر.

دغمش تقدّم به العمر، لكنّه، من الداخل، يمتلك عزيمة الشباب وقوتهم. وبهذه العزيمة والقدرة، صمم، نهائياً، على قتل الذئب الأسود، وتصفية الجراء مع الأيام. وعزاؤه، وأيضاً أمله، في الصياديّن أمثاله، الذين يكافحون الذئاب

السود، كل في غابته، بنفس العزيمة والقوة، وبنفس التصميم على الخلاص من هذا الوباء الحيواني الضاري، مما يجعل المهمة مشتركة، لا ينقصها سوى التوحيد؛ وقد قال له صياد هرم، أبيض شعر الرأس واللحية، أحمر العينين من غضب وحقد:

- عبّا، يا زميلي، السعي الفردي للقضاء على ذئاب غاباتنا، فهي تتناسل في الظلام، وعليينا، إذا ما أردنا النجاح في سعينا، أن نتوحد أولاً، وأن نستنفر سكان الأكواخ لمعاونتنا ثانياً، وأن نطلق على الظلام ثالثاً.

فَكَرْ دغمش وقال:

- أن نتوحد فهذا مفهوم، ومفهوم أيضاً أن نستنفر الفقراء لمساعدتنا، ولكن أن نطلق على الظلام فهذا غير مفهوم، ماذا في الظلام؟

- كل سوءة!

- السينّات الكثيرة ترتكب في الليل والنهار، والإطلاق على الظلام، لاستهلال الضوء، أمر بدهي. ففي الضوء ينكشف كل شيء ويظهر المخبأ، وكذلك المسكون عنه. إنما الظلام نسيج هباء، فكيف لنا، مهما تكن براعتنا في التصويب، أن نقتل الهباء؟

قال الصياد:

- في هباء الظلام أو جار الذئاب السود، ومكانها معروفة إذا ما كانت لنا عيون تحترق الظلام، مهما يدلهم.

- لم أفهم!

- وأنا لا أستطيع الإفصاح .

- خوفاً؟

- تقىةً!

- وما الفرق؟ التقىة تستر على الخوف!

قال الصياد لدغمش :

- اسمع يا صاحبي! الغطاء لا ينكشف عن الطنجرة إلا عندما يغلي الماء الذي فيها، وعلينا ألا نكشف أغطية طناجرنا قبل أن يصير الماء بخاراً، أي قبل أن نتحد نحن جماعة الصيادين، الذين يتعقبون الذئاب السود لقتلها في الغابات الائتين والعشرين.. فالذين يسمّون الذئاب السود متّحدون، فكيف نقاولهم متفرقين؟! هذا مستحيل. لكن بعد اتحادنا، يأتي دور استثار الدين هزلوا، الذين لم يبق منهم سوى العظام المكسوّة بعشاشة من اللحم، الذين اصفرّت جلودهم من الجوع، ويموت أطفالهم من قلة التغذية وانعدام الدواء.. إننا، مهما نجيد الإطلاق على الذئاب السود، لا نستطيع قتلها والانتهاء منها، كلّ ما نستطيعه، أمام تناسلها، أن نكشف أمرها، أن نجعل الناس يعون خطرها، يعرفون أصحابها، بانتظار ذلك اليوم البعيد، الذي يُقضى فيه عليها.

قال دغمش :

- مهمّتنا، إذن، طويلة!

- وتنطّنها منجزة قبل عيد الأضحى المبارك؟

- لكتنا نكون، عندئذ، قد متنا!

- ويكون أولادنا، ثمّ أحفادنا، قد كبروا.

– يا للنفس الطويل يا صاحبي!
– ودونه لا فائدة تُرجى!
أضاف الصياد:

– أنت تعب يا دغمش، أرى هذا على وجهك، وغيرك تعب أيضاً، وهذا واضح.. ولنك، ولهم، ولكل الصياديـن الذين يكافحون الذئاب السود، أقول هذه الكلمات: إننا نعذر من تعب منهم وندعوه إلى الراحة، ونعذر الذين أصيـوا بالإحباط، ما دام استشـراء خطر الذئاب السود يدعـو إلى الإحباط، كما نعـذر الذين يئـوا، والذين يرغـبون في العودة إلى بيوـتهم وأولادـهم، والذين أرهـقتـهم مطارـدة هذه الذئـاب، ولا نطلب منهم، مقابل ذلك، سوى أن يعـذرـونـا إذا لم نـيـأسـ ولـنـيـأسـ!

قال دغـمش:

– ما أوضحـ ما قـلتـ يا صـاحـبـيـ، وما أقوىـ منـطقـكـ وأـمـتنـ حـجـتكـ.. نـعـمـ! أـنـاـ تـعبـ، وبـعـضـ الصـيـاديـنـ الآخـرـينـ تـعبـ أيـضاـ. وـعـلـيـنـاـ، كـوـاجـبـ، أـنـ نـحـذـرـ منـ التـعبـ، وـأـنـ نـشـدـ الـهـمـ..

قاطـعـهـ الصـيـادـ:

– لا! ليسـ هـذـاـ، فـأـنـ نـشـدـ الـهـمـ أمرـ جـيدـ، وـأـنـ نـبـحـثـ عنـ الصـيـاديـنـ الشـيـابـ لـيـنـضـمـواـ إـلـيـنـاـ أمرـ آخرـ جـيدـ، ولكنـ أنـ نـلـومـ الـمـتـعـبـينـ فـشـيـءـ لـاـ فـائـدـ فـيـهـ، وـلـاـ جـنـىـ يـرـتـجـىـ منهـ.. دـعـهـمـ يـسـتـرـيـحـواـ، وـدـعـنـاـ نـسـتـفـدـ مـنـ حـكـمـتـهـمـ، مـنـ تـجـارـبـهـمـ، مـنـ خـبـرـاتـهـمـ، وـبـعـدـ ذـلـكـ نـرـحـبـ بـعـودـةـ الـمـسـتـرـيـحـينـ مـنـ الـرـاحـةـ، فـإـذـاـ لـمـ يـعـودـواـ فـلـاـ لـوـمـ عـلـيـهـمـ، لـأـنـهـمـ، فـيـ تـقـدـيرـيـ، لـنـ يـسـتـكـيـنـواـ، لـنـ يـنـسـواـ، وـهـمـ جـيـاعـ، أـنـ يـضـعـواـ بـنـادـقـهـمـ فـيـ

أيدي أبنائهم. والأنباء، بدورهم، يضعونها في أيدي
ذرارיהם.. وهكذا يتواصل تعقب الذئاب السود، إلى أن
 يأتي الفجر الذي أراه..

قال دغمش ساخراً:

ـ ذات يوم!؟

قال الصياد جاداً:

ـ نعم. ذات يوم!

في هذه اللحظة أنشد هدهد يقف على شجرة مجاورة:
يا باع الصبر لا تشقق على الشاري فدرهم الصبر يسوى ألف دينار
أجابه هدهد آخر، يقف على شجرة مقابلة:

للدهر يوم علينا، كما يوم لنا، لم يدم أبداً في حكمه الجاري!
رفرف هدهد ثالث، على شجرة أخرى وأنشد:
وما عشت من بعد الأحبة سلوة لكتني للنائبات حول!
زعق هدهد رابع، بصوت كالنفير:

«للظلم يوم، وللمظلوم يومان!»

على الأثر راحت الغابة، بكلّ ما فيها من أشجار
وكائنات، تردد بصوت كالنذير:
«للظلم يوم، وللمظلوم يومان!».

وأرعدت الغابات الاثنين والعشرون، على نحو ما يكون
الصدى بين الجبال والوديان:

«للظلم يوم وللمظلوم يومان!» «للظلم يوم وللمظلوم
يومان!» «للظلم يوم وللمظلوم يومان!»

وعلى الأرض، أمام دغمش وصاحب الصياد الهرم،
درجت حمامـة بيضاء في منقارها غصن زيتون، وظلـت تدرج
أمام الاثنين، في حركة لافتـة، دون أن تقول كلمة واحدة،
بينما إرداد الغابـات يتخـافـت تدريجيـاً، والـسـكـينةـ المـوـحـيةـ،
الـجـلـيلـةـ في صـمـتهاـ والإـيـحـاءـ، تـتـسـيـدـ، كـائـنـاـ الـاحـتـفـالـيـةـ قدـ
تمـتـ، وأـنـ كـلـ شـيـءـ قدـ عـادـ إـلـىـ طـبـيعـتـهـ، إـلـاـ دـغـمـشـ الـذـيـ
تمـلـكـتـهـ اـرـتعـاشـةـ لـمـاـ تـزـلـ، وـالـصـيـادـ الـهـرـمـ يـرـىـ إـلـيـهـ مـبـتـسـماـ
مشـفـقـاـ حـدـبـاـ، سـائـلاـ:

ـ ماذا اعتراك يا دغمش؟

قال دغمش:

ـ لا أـدـرـيـ! إـنـيـ فـيـ حـالـةـ بـيـنـ العـقـلـ وـالـجـنـونـ، يـبـدوـ أـنـيـ
أـغـفـيـتـ وـرـأـيـتـ فـيـ نـوـمـيـ رـؤـيـاـ، هـلـ سـمعـتـ أـنـتـ يـاـ..

ـ بشير.

ـ هل سمعت، أنت يا بشير ما سمعت؟

قال بشير:

ـ وـرـأـيـتـ الـحـمـامـةـ التـيـ رـأـيـتـ، وـفـيـ منـقـارـهاـ غـصـنـ
الـزـيـتونـ!

ـ ما تفسير ذلك؟

ـ سـلـ الـغـابـةـ!

ـ وـهـلـ تـكـلـمـ الـغـابـةـ؟

ـ عـلـمـ هـذـاـ عـنـدـ رـبـيـ.. إـلـاـ أـنـيـ، يـاـ دـغـمـشـ، مـتـفـاـئـلـ بـمـاـ
سـمعـتـ.. الـيـوـمـ الـبـعـيدـ، الـذـيـ قـلـتـ لـكـ إـنـهـ فـيـ الـبـعـيدـ، هـوـ

يوم للحقيقة والإيمان، رغم بعده الصعب، الطيور لا تعرف الكذب كالناس، فحين لا نصدق بسرعة، نرى الكاذبين في كل مكان: أما الطيور، بحسب اعتقادي، فإنها لم تبتلي بهذه الآفة، فـ«الكذب رأس المعاشي» ولنا أن نصدقها بسرعة. لقد صدقتها الغابة قبلنا، ورددت معها بدوي كالرعد: «للظلم يوم وللمظلوم يومان!»... فما بالك تشكيك كالذين لا رجاء لهم؟

قال دغمث :

– أنت حكيم يا صاحبي، وتتجلى الحكمة على لسانك،
كما تتجلى السحب الأرجوانية على أطراف الأفق عند
الغروب، غير أنَّ اليوم البعيد الذي تتحدث عنه، يوم
للصبر، وقد قال الهدى الأول: «يا بائع الصبر لا تشفع
على الشاري»، فكيف السبيل لشراء الصبر مع عدم الإشراق
في البيع؟ إنني، لكرهة ما صبرت، أعن الصبر، وفي هذا
نفترق نحن الاثنين.. إصبر أنت، إصبر، ودعني أطارد
الذئب الأسود حتى أظفر به، وأقضى على نسله!

قال الصياد الحكيم بشير:

- إذا كنت، يا دغمش، لا تستطيع الصبر، فلا تلعنه، فقد يأتي حين، وهو آت لا ريب فيه، تندم على ما قلت، فالصبر مع الكبرباء، الصبر مع السعي، الصبر مع الكفاح، هو مفتاح الفرج.. أنت ت يريد قتل الذئب الأسود، وأنا مثلك أريد قتيله، لكن ما النفع إذا قتلناه، فقام من نسله ذئب وذئب؟!

قال دغمش:

- نقتل الذئب والذئب والذئب!

- وحدك؟

- وماذا في ذلك؟ ألم يقل المهدد: «لكتني للنائبات حمول؟»؟

- وأي نائبة حملت حتى الآن؟

- الفقر!

- إذن كن مع الفقراء إلى أن يأتي ذلك اليوم.

- أكون معهم ونحن ععود؟

- لا تفهمني خطأ!

- أنا أفهمك صَحَّ.. أنت تدعُو، بانتظار يومك اللعين ذاك، إلى الصبر، وتزيد فتدعوني كي أكون مع الفقراء ععوداً، وأنا لا أطيق ذلك، إنني معهم قياماً، وكلامي واضح كما أظن.

- وكيف تكون مع الفقراء قياماً، إذا لم تعدُم بصر لهذا القيام؟ اذهب إليهم وقل لهم: «هيا قوموا!» وسترى أنهم لن يقوموا إذا لم يفهموا.. قد يقوم معك واحد منهم، أو اثنان، أو ثلاثة، وأنت، مع هؤلاء فقط، لن تبلغ أن تصنع شيئاً، فالزهرة الواحدة لا تشكل ربيعاً، الربيع أن يكون الزهر كله قد تفتحت براعمه.. اذهب إلى الفقراء وكن معهم، امكث بينهم، اشرح لهم خطر الذئب الأسود عليهم، افعل ذلك بصبر وأناء. وعندما يعي الفقراء هذا الخطر، ينهضون معك لمكافحته، ويكون لكل منهم بندقيته، أو سيفه، أو خنجره، أو منجله، أو مقلاعه، أو عصاه.. قدُهم، عندئذ، إلى قتل الذئب السود وأنسالها.. امش

أمامهم غير بعيد عنهم، ودعهم يمشوا وراءك غير بعيدين عنك، هذا ما يسمونه فن القيادة.

قال دغمش:

ـ قيادة؟ مرحباً قيادة! أنا يا صاحبي لا أقود أحداً، وأرفض أن يقودني أحد، إبني وحدي، فرد، وهذا يكفيوني!

قال الصياد الحكيم بشير:

ـ علة هذا الشرق، يا دغمش، الفردية! ماذا تستطيع وحدك، كفرد، أن تفعل؟

ـ وهل يتطلب قتل الذئب الأسود جماعة؟

ـ لم تعِ، إذن، كلّ ما قلته لك قبل قليل!

ـ وعيت أم لم أعِ، هذا لا يهم! قلت لك إبني وحدي سأقتل الذئب الأسود، وسأقتله دون مساعدة من أحد.

ـ هذا قرارك الأخير؟

ـ نعم!

ـ في هذه الحال تذكر كلامي، وإلى اللقاء.

قال بشير ذلك وغادر المكان، سار بين الأشجار والأدغال حتى اختفى.. لفت دغمش سيكاره، أشعلاها، سحب منها أنفاساً عميقاً، فكر بهدوء، تداخلت أفكاره مع دخان سيكارته، ارتفع هذا المزيج الرمادي حلقات في الهواء، علق بأوراق الأشجار، اصفرت الأوراق، تساقطت، اقتربت ورقة صفراء منه، خاطبته قائلة:

ـ أنت على حق يا دغمش! أنت وفيّ لآبائك وأجدادك، كانوا مثلك أفراداً، كانوا شجاعاناً وأفراداً، وفي سلوكهم،

من المهد إلى اللحد، حافظوا على فرديتهم، وهذا سبب
نجاحهم!

انحنى، في حركة مباغطة، غصن شجرة إلى جواره،
اهتزّت أوراقه الخضراء واضطربت! دهش لهذه الظاهرة،
وجم من شدة الدهش، تجمّعت أوراق الغصن الخضراء
حتّى صارت ورقة واحدة، قالت له الورقة:

- أنت مع الموت أم مع الحياة؟ أجب على السؤال دون
مراوغة.

أجاب مرتبكًا:

- أنا مع الحياة طبعاً!

أجابت الورقة:

- الذي يكون مع الحياة لا يكون مع الصفرة.. أنت
صدقت الورقة الصفراء، ورقة الموت هذه!

- سمعت ما قالته ولم أنطق بكلمة!

- لكِنك، في سريرتك، نطقـت.. الشفاه لا تهمـ بل
السرائر، سريرتك اسودـت من كذبك، من تناقضـك، من
احتـيالـك على نفسـك. الشرـ.. يا دغمـشـ، لا يـتـاخـي مع
الخـيرـ، والخـيرـ لا بدـ أن يتـصـرـ على الشرـ، وأنتـ، في العـلنـ،
تـزـعمـ أـنـكـ تـسـعـي للـقـضـاء عـلـى الذـئـبـ الأـسـودـ، وـفـي الـخـفـاءـ
تـنـهـجـ نـهـجـ آـبـائـكـ وأـجـادـادـكـ، وـهـمـ، رـغـمـ شـجـاعـتـهـمـ، لـمـ يـقـتـلـواـ
الـذـئـابـ السـوـدـ فـي زـمـنـهـمـ. كـانـوا فـرـدـيـنـ، كـانـوا خـارـجـ التـارـيخـ،
وـحـتـىـ الرـأـسـمـالـيـةـ الزـرـاعـيـةـ لـمـ يـتـبـهـواـ إـلـىـ أـهـمـيـتـهـاـ!

قاطـعـهـا دـغمـشـ:

ـ الذئاب السود لم تكن زمن آبائي وأجدادي!

قالت الورقة الخضراء:

ـ بلى! كانت، بأشكال أخرى.. ولأنهم لم يتعاونوا عليها، أخفقوا في قتلها، الشرور التي يعاني منها البشراليوم، هي الورثة التي أورثهم إياها الأجداد والآباء، وتأتي الورقة الصفراء، الآن، لتزعم أنهم انتصروا عليها.. الدنيا تبدلت، التبدل سنة الكون، ولن تجد لسنة التبدل تبديلاً..
هل تفهم؟

«سَكَّتْ دهشاً، ترافقَتْ الورقةُ الخضراءُ، تفرقتَ إلى أوراقِ خضر، اكتسَى الغصنُ، ارتفعَ مع الشجرة إلى أعلى، تجمدَ دعْمُشُ في مكاهنه منبهتاً، مجذوبَاً، متأرجحاً، محترماً بينَ أَنْ يكونَ نائماً أو يقظاً.. ومنْ جديداً لجأَ إلى التدخين، وراح يتأمل، بغير رضى، حلقات الدخان الأزرق وهي ترتفع، وتتفلش، وتتلاشى في الفضاء رويداً رويداً».

في ذلك اليوم، لم يخطر على باله أنه سيجنّ، وأن الصيادة رئيفة ستكون سبب جنونه.. من يكشف الستار عن الغيب؟ رئيفة كانت في الغيب، والمنجمون كذابون ولو صدقوا، وبشير الحكيم يدعو إلى الصبر، وهو لا صبر له، فماذا سيكون مصيره؟ «مصيري «الهول الأعظم» قال في نفسه. ومثلي، أنا دعْمُشُ، مَنْ يستخف بالأحوال ولو كانت عظيمة! هذا هو أنا!».

كان الصياد الحكيم بشير، يعرف الغابات الالنتين والعشرين كما يعرف كفه، وقد لاقى في كلّ واحدة منها، ما لاقاه في غيرها: الذئب السود التي ترتع على هواها، وتتناقل بغير توقف، ورأى الصياديـن الذين يحاولون، دون جدوـيـ، القضاء عليهاـ، وكلـ منـهم يطاردـ الذئـبـ في غـابـتـهـ بمفردهـ، ويـصـرـ، شأنـ دـغـمـشـ، علىـ فـرـديـتهـ، اعتقادـاـ منهـ أنـ ذلكـ مـمـكـنـ، وأنـ قـتـلـ الذـئـبـ الأـسـوـدـ الكـبـيرـ هوـ الذـيـ يـعـنيـهـ، فـماـ إـنـ يـقـتـلـهـ حتـىـ يـكـوـنـ قدـ بـلـغـ ماـ يـرـيدـ، لأنـ قـتـلـ الجـراءـ الذـئـيـةـ يـغـدوـ سـهـلاـ وـمـيسـورـاـ عندـئـذـ.

وخلال تجوالـهـ فيـ الغـابـاتـ، قالـ للـصـيـاديـنـ الـذـيـنـ صـادـفـهــ، ماـ قـالـهـ لـالـصـيـادـ دـغـمـشــ، حـولـ اـسـتـحـالـةـ القـضـاءـ عـلـىـ الذـئـبـ السـوـدـ دـوـنـ اـتـحـادـهـمـ عـلـيـهــ، وـتـعـاوـنـهـمـ لـاـسـتـقـصـالـ نـسـلـهــ، وـإـنـ الـعـمـلـ الفـرـديـ يـذـهـبـ سـدـىــ، وـيـذـهـبـ سـدـىـ اـتـحـادـهـمــ، حتـىـ لـوـ تـمــ، دـوـنـ أـنـ يـعـيـ المـتـضـرـرـوـنـ مـنـ الذـئـبـ خـطـرـهـاـ عـلـيـهـمــ، وـدـوـنـ أـنـ يـنـهـضـوـاـ هـبـةـ وـاحـدـةـ لـمـكـافـحتـهــ، بـالـتـعـاوـنـ مـعـ الصـيـاديـنــ، وـأـنـ تـكـوـنـ لـهـمــ، كـمـاـ لـلـصـيـاديـنــ، وـسـائـلـ هـذـهـ الـمـكـافـحةــ.. لـكـتـهــ، فـيـ كلـ غـابـةــ، كانـ يـصـطـدمـ بـالـعـقـلـيـةـ الـفـرـديـةــ، وـبـأـجـوـبـةـ مـخـلـفـةــ

لفظاً، متشابهة جوهراً، فحواها أنّهم، فرادى، يستطيعون قتل الذئب الأسود!

هذه المرّة كان لديه جديد ي قوله، وهذا الجديد ما سمعه من الهدادهـ، التيـ، في هذه الغاباتـ، تنوّعـت مهمّتهاـ، فإضافة إلى قدرتهاـ، وهي تحلقـ في الجوـ، على اكتشاف منابع الماءـ في الأرضـ وإرشاد العطاشـ إليهاـ، كانت تقفـ على أغصان الأشجارـ، وتنطقـ بلسانـ عربـيـ مبينـ مبشرـةـ بإمكانـ الخلاصـ، مادامـ «للظلمـ يومـ وللمظلومـ يومـانـ»ـ ومادامـ الإنسانـ «للنـائبـاتـ حـمـولـ»ـ، وأنـ للـدـهـرـ «يـومـ لـنـاـ كـمـاـ يـوـمـ عـلـيـنـاـ»ـ، وأنـ هذاـ الـيـومـ الـذـيـ هوـ عـلـيـنـاـ «لـنـ يـدـوـمـ فـيـ حـكـمـ الـجـارـيـ»ـ وكلـ ماـ فـيـ الـأـمـرـ هوـ الـاتـحـادـ، والـصـبـرـ بـكـبـرـيـاءـ، وبـثـ الـوعـيـ، واستـهـاضـ هـمـ الـقـعـدةـ، الـذـينـ، فـيـ قـعـودـهـمـ عـنـ حـقـهـمـ، اـغـرـواـ الـذـينـ اـسـتـبـاحـواـ هـذـاـ حـقـ بـالـتـمـادـيـ. فالـقـصـورـ اـسـتـبـاحـتـ النـاسـ، والنـاسـ اـسـتـبـاحـ بـعـضـهـمـ بـعـضاـ؛ والـقـلـاعـ الـتـيـ مـنـ وـرـاءـ هـذـهـ القـصـورـ، اـسـتـكـانـتـ لـلـوـاقـعـ، فـلـاـ يـتـحـرـكـ فـيـ أـصـحـابـهاـ سـوـىـ أـسـتـهـاضـ فـيـ الـمـنـاسـبـاتـ، وـحـينـ يـجـدـونـ ضـرـورـةـ ماـ، لـلـتـصـرـيـحـاتـ الـتـيـ تـدـيـنـ أوـ تـسـتـنـكـرـ، مـدـرـكـينـ سـلـفـاـ أـنـ تـصـرـيـحـاتـهـمـ لـلـاستـهـلاـكـ الدـاخـلـيـ أوـ الـعـرـبـيـ، فـلـاـ الإـدانـةـ تـنـفعـ وـلـاـ الـاستـكـارـ يـفـيدـ، بـيـنـماـ النـارـ تـشـتعلـ فـيـ بـقـعـةـ عـرـيـةـ مـجاـوـرـةـ.

لـذـلـكـ قـالـ الصـيـادـ أـكـرمـ، وـالـحـكـيمـ بشـيرـ يـفـصـحـ لـهـ عـنـ بـعـضـ مـكـنـونـاتـ صـدـرهـ:

ـ هـذـهـ مـنـفـسـتوـ سـيـاسـيـةـ يـاـ حـكـيمـ!

قالـ الـحـكـيمـ:

- صدقت يا أكرم، هذه منفستو سياسية مكانها ليس هنا .. إنّي أنسى نفسي أحياناً، فأحسب أنّي أخطب في مظاولة، تحتاج إلى القول المباشر، دون لفّ أو دوران.

- هو ما تقول تماماً يا حكيم، فقد دخنا جميعاً من اللفت والدوران، وبتنا بحاجة إلى قول غير مألف، إلى قول يخترق المألف، فالنار المشتعلة في البقعة المجاورة يُراد لها، إذا لم تحاصر، أن تمتد إلى كلّ البقع المجاورة، وهذا هو الخطر الكبير ..

قال الحكيم :

- الخطر قادم، بأسرع مما تظنّ ..

أضاف :

- إنّي، أحياناً، أكرر نفسي! أكتبها مرّة ومرة، عارفاً أنّ هذا مملّ غير لائق، لا ينفع في شيء.. لكنّني لا ألبث أنّ أسرّ «وذكّر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين».

سأل أكرم :

- تنفعهم بماذا؟

- بأنَّ الأفعى لا تعض ذنبها! أميركا التي يأملون نفعها لن تنفعهم بشيء.. إنّها الأفعى وذنبها إسرائيل، والشعب العربي كله يعرف هذه الحقيقة، ويجهّر بها، لكن بعض الذين بيدهم الحلّ والربط، في آذانهم وقر، أو يتصنّعون ذلك، وهم في الحقيقة يسمعون.. إنَّ ثمة شراكة! شراكة من نوع خبيث، بين بعض هؤلاء وبين البيت الأسود. إنّي لا أتهم الجميع، مع أنّنا لو بحثنا في العمق، لوجدنا أنَّ

سرة كلّ واحد منهم لم تقطع مشيمتها العالقة، على نحو ما، بالتنوعات المعيبة لتمثال «الحرّية»، رمز الأخضر الذي يستعبد الكون، لأنّه المعيار المصرفيّ لكلّ نقود العالم ومعادنها وحجاراتها الكريمة. والمصيبة أنّ هذا «الأخضر» يواصل زحفه لزرع مصارفه، شركاته متعدّدة الجنسيات، بضائعه، سلعه المادّية وغير المادّية، ثقافته الشقيّة بكلّ تفرّعاتها، في بلاد الدنيا كلّها، تحت لافتة لها اسم حديث هو العولمة.. هل سمعت بالعولمة؟ لا!! لم تسمع؟! «سيأتيك بالأخبار من لم تزود». انتظر تسمع، انظر تر، اكشف الغطاء عن طناجر من الطبخات السامة، مثل طبخة «الغات»، واقتصاد السوق، وحرّية التبادل السلعي، والاستثمارات غير المقيدة، والاستثمارات الممّوهة، والبنوك الأجنبية، والجامعات الخاصة، والشراكات غير المتكافئة، المتوسطية، والشرق أوسطية وغيرها.. اكشف الأغطية تجد القدور، التي يتمّ إنساجها على نار هادئة، ملأى بوجبات دسمة، سامة، محلاة بطبقة من الكريما المزوفة، الملؤنة، المغربية، الشبيهة بالجنة البيضاء، المعدّة لاصطياد الجرذان وقتلها بالماء المغلي!

قال الصياد أكرم مع صفير الدهشة:

– فظيع كلّ هذا! لكنه يبقى منفستو! وعليك يا حكيم، إذا أردت إيصاله للناس، أن تقوله بشكل أبسط.. أن تصارحهم به دون فلسفة!

قال الصياد بشير:

– أنت على حقّ يا أكرم، لكن ما قلتة ليس إلاّ الجزء.

- والذئب الأسود الذي نطارده، يدخل في الكلّ أم في
الجزء؟

- إنّه نتاج الاثنين معاً.. وهو مَعْلُومٌ، تجده في القارات
الستّ، هناك كما هنا، يسرح، يمرح، يأتي على الأخضر
والليابس، ويتناصل بكثرة، مع فارق بسيط وخطير معاً، هو
أنّ الذئب الأسود ونسله، يجري الكلام عليهما علينا في بلاد
العالم، أمّا عندنا، في بعض البلاد العربية، فالكلام حولهما
يدور سرّاً، وهناك، في الدنيا، يفضحانهما، يشهران بهما،
يُحاكمان، يُحكمان، أمّا عندنا، في بلاد الرعية، فإنّ أحداً
لا يجرؤ على ذلك. ومن هنا فإنّ مهمتنا، نحن الصيادين،
تبعد صعباً إلى أقصى الحدود، ضرورة إلى أقصى الحدود،
لأنّنا لو ضُبطنا ونحن نطارد الذئب السود، فسنسائل،
وُستجوب، ويُتحقق معنا، لمعرفة من دفعنا إلى هذه
المطاردة، ومن حرضنا عليها، ومن وضع البنادق، والعياذ
بالله، في أيدينا، ومن سمح لنا بدخول الغابات، وبأيّ حقّ
نجتاز الحدود بينها، وكيف نستبيح محميات هذه الذئب،
التي لها أصحابها وحماتها، والمتغرون بها.

- رهيب! قال أكرم، هذا تقرير سياسي كامل، تقرير
فظيع يا بشير، يا صاحب المنفستو!

قال بشير:

- هناك ما هو أفعع: الاختزال! نحن مخترلون، فكلّ
قلعة، تخزل النمل الذي في غابتها إلى نملة واحدة، تمثل
ذاتها. لذلك عدتنا قليل بعدد غاباتنا، إنّا اثنتان وعشرون
نملة فقط لا غير!

- نملة واحدة في الغابة الواحدة؟ هذا غير ممكн،
غاباتنا تعج بالنمل، فكيف تقول إن عدتنا قليل؟ ثم ما الذي
تقصده بهذه التورية؟ الإنسان نملة؟ النمل، إذن، كثير جدًا!
- وما نفع كثرة النمل، إذا كانت هذه الكثرة لا تُستشار
في أمر، ولا تُشارك في اتخاذ قرار؟
- بعض النمل يُستشار، ويُشارك في اتخاذ القرار.

- هذا البعض استثناء، والاستثناء يثبت القاعدة التي
أتحدث عنها.. ثم إن هذا النمل من الحاشية، وهذه، أو
بعضها، تนาقض لأجل مصالحها!

قال الصياد أكرم:

- عجيب ما أسمع!

قال الحكمي بشير:

- العجيب هو الذي لم تسمع به بعد.. قلت لك هناك
استثناء في النمل، وأضيف: هناك استثناء في الغابات
أيضاً.

- هل أنا نملة؟

- وأنا مثلك!

- وهل للنمل مجالس وحكومات.
- لها!

- وماذا تفعل؟

- أغلبها يبصم، وهنا أيضًا، استثناء آخر.. بعض
النمل، الذي في هذه المجالس، يرفع الصوت، ومع رفع

صوت واحد، ترتفع أصوات عديدة، وهذه الأصوات العديدة ستصبح كثيرة في المستقبل.

- وتناول الأصوات في ارتفاعها ما يجري في البقعة الملتهبة قربنا؟

- تتناولها بصدق وحماسة، لأن النار، في هذه البقعة، يُراد لها ألا تبقى محصورة في بقعتها.. النار إذا لم تطفأ سرت، وفي سريانها تجتاز التخوم، حاملة الخطر إلى كل الغابات، والنمل كله في هذه الغابات، مما يُوجب اليقظة والحذر الشديدين، وقد أبدى بعض الغابات المجاورة، إدراكاً لعواقب هذا الخطر، وبادر، بشكل أو باخر، لدعم النمل العملاق المنتقض، منذ مدة طويلة، على النمل الشرير الذي يحتلّ غابته، ولا يزال النمل الشقيق، القوي، المصمم والقادر، في حالة انتفاض مستمرة، مقدماً كل يوم الضحايا الشهداء، متزلاً بعده ضربات موجعة، طالباً، باللحاح، أن يتحرّك قادة النمل العربي، في كل غاباتهم، ويفعلوا شيئاً لأجلهم، إلا أن بعض هؤلاء القادة مرتبط بمعاهدات واتفاقات، لذلك لا يقدم سوى التحذير والاحتجاج والشجب. وهذه خيبات في المسئيات، يتندر بها العالم الخارجي، ويتألم لها ومنها النمل العربي المنتقض في أرضه المشتعلة. إن هذه الجزعجة لا توفر طحيناً، وأن النمل العدو، المحتلّ، ملّ بخفايا اللعبة وما فيها من عجز مشين، وهذا ما يدفعه إلى مزيد من الصلف، ومزيد من القتل، ومزيد من هدم البيوت على رؤوس النمل العربي.

أطلق الصياد أكرم آهة مرّة وقال:

- لماذا، يا حكيمنا الصياد بشير، لا تكتب هذه الحقائق
الرهيبة على الورق؟

قال بشير في شجن بالغ:

- وتنظر أنها غير مكتوبة!؟

- في الصحف؟

- وفي الكتب أيضا!

- والنتيجة؟

- بعضهم يقرأ ويغضب، وبعضهم يقرأ ويصرخ، وبعضهم
يقرأ ويردّد المثل القائل: «لا أسف من الورق إلا
الحبر!». وفي هذا تعلة للفاقددين والساكتين على السواء!

- وأنت؟؟

- أنا صياد ولست بكاتب، لكنني أؤمن بالكتابة وجدواها،
فالكلمات، مكتوبة ومنطقية، ذات تأثير في صياغة الوجود،
سواء وجدان المقاوم، أم وجدان الذي صنع أدلة المقاومة،
وهذا هو السبب الأساس، في أن القضية النمطية، المسماة
فلسطينية لم تستطع الإمبريالية أو الصهيونية العالمية أن تميتها
طوال خمسة وخمسين عاماً تقريباً.. هل تدخن؟ نعم؟ إليك
سيكاراة إذن، دخنها ولنضمت قليلاً.. الصمت، في الغابة،
كلام، إنه حوار الصمت مع الصمت، في كلام دون كلام.
وأنت صياد وتعرف.

- نعم أعرف، قال الصياد أكرم وهو يتناول سيكاراة
ويشعلها، لكنه لم يلبث أن سأله:

- من أين لك، يا حكيمنا، كلّ هذه المعرفة؟

- من الكتب. والأهم من الناس. المعرفة من الناس تبقى الأرسخ، وليس في هذا أيمًا تقليل من شأن الكتب.. أقول لك ذلك لتعلم، وكي تعلم غيرك.

قاطعه الصياد أكرم:

- كما تفعل أنت؟

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

- تقريباً!

- كيف تقريباً ولك كلّ هذا العلم؟

- أقول لك تقريباً يعني تقريباً، ليس في الأمر تواضع.. ليذهب التواضع والغرور، كلاهما، إلى بئس المصير.. لقد أفتوك بأشياء، واستفدت منك بأشياء، في رأسها حسن الإصغاء.. تعرف البوذية؟ لا.. ولا أنا! غير أنّ صياداً قال لي: «بودا كان كبير الأذنين» ماذا يعني هذا؟ يعني أنه مثلك، يجيد الإصغاء! هذا استنتاج، قريب جدًا من الصحة.. انظر إلى أذني: إنّهما صغيرتان، وانظر إلى فمي: إنه كبير، ما الخلاصة؟ إنّي أتكلّم أكثر مما أصغي، وهذا عيب فيّ، لشدة ما أرحب في التخلص منه.

صاحب أكرم:

- عيب! وتقول عيب! إنه حكمة، وكم نحن، عشر الصيادين، بحاجة إلى هذه الحكمة!

قال الصياد الحكيم بشير:

- لا تجامل يا صاحبي، المجاملة عيب من العيوب، ولعلّها أكثر العيوب انتشاراً. الحديث الشريف يقول: «كن

عالماً أو متعلماً، ولا تكن الثالثة فتجهل». ما هي الثالثة؟ أن تعتقد، خطأ، إنك عالم، فتبيني لتعليم غيرك. وقد راودني مثل هذا الإثم، إلى أن حضرت مسرحية كاتبها ذكر نمل مبدع، جريء، شفاف، مات الآن وأسفاه! إنه من غابتنا، وله فضل على غابتنا، واسم مسرحيته: «رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة» استمتعت جداً برؤيتها، في مسرح غابي صغير من مسارحنا، وعدت لمشاهدتها مرّة ومرّة، وفي كلّ مرّة أتعلم جديداً مفيداً. فحنظلة هو أنا، وأنت، والآخر، والآخرون، كلّنا، يا صاحبي، حناظل، وكلّنا، في هذه الحياة، حنظلة في رحلته من الغفلة إلى اليقظة.. هل رأيت الرسوم الكاريكاتورية للرسام ناجي العلي؟ لا؟ لا بأس، أنا رأيتها، وأعجبت جداً بها، وشخصية حنظلة، ابن البلد الفقير، الذي يعلق على أحداث الرسوم، هو الذي اخترعها إذا لم تخني الذاكرة. وكانت تعليقات حنظلة قاسية، مرّة في قساوتها، لكنّها كانت صحيحة، مصيبة، كالسهم في نقطة الدائرة تماماً. لم يتحمل بعضهم، الذين كانت تعنيهم الرسوم، وتدمي أفضالهم التعليقات معها، فاغتالوا، بأيدي مجرمين مأجورين، الرسام ناجي العلي، إلا أنّ رسومه بقيت، وتعليقات حنظلة عليها بقيت، وسنموت نحن، أنا وأنت والجميع، وتبقى رسوم هذا الرسام العبرى. العبرية لا تموت، ولا سبيل للفناء إليها، وكم كنا، في هذه الأيام، بحاجة إلى رسومه، وبحاجة إلى تعليقات حنظلة.. فهمت الآن القصدية الملعونة، قصدية مثل الذين اغتالوه، وفيه يسخفون الورق والجبر؟ هذا المثل ليس من قينهم، فهم أضال وأعجز من أن يبلغوا درجة

ابتداع الأمثال، بل هو، المثل، من بدع الذين جاؤوا في عصور الانحطاط! وتناقلته الأجيال من بعدهم.. الورق . ليس سخيفاً، والجبر ليس سخيفاً.

في هذه اللحظة، رفرف هدّه على غصن شجرة مقابلة وأنشد:

إذا الضمير وني عن ردع منكرة فاصبر لها، فهناك الحبر والورق
قال بشير لأكرم متلهلاً :

– هل سمعت؟

أجاب أكرم :

– سمعت!

– ووعيت؟

– إلى حد ما ..

– أرهف السمع، إذن، لهداهد الغابات. ففي تحليقها، كما سبق وقلت، لا تكتشف منابع الماء وحدها، وإنما منابع الحكمة معها.. ماذا تنتظر هنا يا أكرم؟ الذئب الأسود؟ وهل تظن هذا المراوغ الشيطاني يأتي إليك لتصطاده؟ تدعوني حكيمًا؟ لا! أنا لست بحكيم بعد، الحكمة كالسياسة، تحتاج إلى معرفة، زائد دهاء، أو بعض الدهاء على الأقل، وتحتاج إلى التأني مع الصبر، في شموخ الصابر الثائر.

قال أكرم :

– إنني لا أنظر الذئب الأسود، كي يأتي إلي لاصطاده.

هذا محال، علي أن أبحث عنه لأقتله؛ ولكن لا بدّ، بين جولة من البحث وأخرى، أن أستريح، وبعد الراحة أعاود البحث بنشاط أكبر.

ـ تبحث أين؟

ـ في الغابة طبعاً، وحول منابع الماء وسواقيه خصوصاً، هناك أكمن، فإذا جاء ليشرب أراه من الكمين الذي نصبه له، فأسدّد جيّداً وأطلق!

ـ طلقة واحدة؟

ـ عدّة طلقات عند اللزوم، وفي المقتل من جسمه.

ـ الذئب الأسود بسبع أرواح، وفي ذات المقتل الواحد الذي تظنّ، وحتى مع الإصابة، فإنّك تقتل روحًا واحدة، فماذا تفعل بالأرواح الست الباقية؟

انتصب أكرم في جلسته، عند جذع شجرة الصنوبر الضخمة، تناول عوداً يابساً ونكت الأرض بحركة عصبية، بحنق.. كان مستفزًا، استفزه بشير، أوحى إليه، بتلميح خفي. إنه عاجز عن قتل الذئب الأسود، وهكذا رماه بالإحباط.. وبردة فعل سئمة متبرّمة، قال:

ـ أنت لا ت يريد إيصالني إلى اليأس من قدرتي على قتل هذا الذئب، أليس كذلك؟

أجاب بشير:

ـ تيشيس الناس، والصيادين بخاصة، ليس من شأنني، لأنّه عمل خسيس، وفي ضميري من اليقظة ما يكفي لردعه عن اقراره هذا الإثم الشنيع.. دع عنك، إذن، هذا الحنق

غير المبرر. الذئب الأسود، حسبما أرى، بين جلود أصحابه وأجسامهم، فقد دخل النسيج الحي لهذه الأجسام، ومن المستحيل أن تخلعه كالضرس المسوّس. إنه مندس في اللحم، وقد صار، في أيامنا هذه، لحمًا من اللحم، وقتل اللحم الإنساني جريمة يعاقب عليها القانون، وفوق ذلك، وحتى لو تمرّدنا على القانون، فإنَّ الذئب الأسود في لحوم كثيرة، وليس من المعقول، أو من الممكن، أن نطلق عليها كلّها... هذارأيي!

وقف الصياد أكرم وهو يرتجف، صاح بغضب يفوق التصور:

ـ أنا أختلف معك في هذا الرأي، وأشك فيك وفيه، نحن عشر الصيادين قررنا قتل كلَّ الذئاب السود، وسنقتلها بغير رحمة، سواء كانت مختبئة بين أشجار الغابات، أو مندسة في لحوم المستفيدين منها، والذين يستغلونها في كسبهم غير المشروع! وإذا كان الذئب الأسود بسبعين أرواح، فإنَّنا سنقضي عليها روحًا بعد روح!

قال الحكيم، الصياد بشير، بهدوء يفوق ما عرف عنه من هدوء:

ـ بارك الله بالشباب يا أكرم، فلو لا ما كان المستقبل مستقبلاً، أنتم العدة والأمل، وأنتم، بمثل الجرأة التي تحديت بها، من يقدر على صنع المعجزات.. سوء الظن من حسن الفطن، ومن حق فطنتك عليك ألا تصدق كلَّ ما تسمع، وأن تشک، كما قلت، في وفي رأيي، إنما عليَّ أن ألفتك إلى نقطة صغيرة، تعتبر جوهر القضية، وهذه النقطة

الصغيرة، البسيطة، ألا تحاول وحدك قتل الذئب الأسود،
لأنك لا تستطيع..

- أستطيع!

- حسناً! سأنتظر لأرى كيف تستطيع، سأصبر..
رفرت الهدائد. استقرت، بأرجلها الناعمة، على
الأغصان. هتف أحدها:

- يا بائع الصبر لا تشقق على الشاري،
أكمل آخر:

- فدرهم الصبر يسوى ألف دينار.

صاحب ثالث:

- للدهر يوم لنا كما يوم علينا!

أضاف رابع:

- لم يدم في حكمه العجاري.

رفع أكرم بندقيته وأطلق، مرّة ومرة، ثم ثالثة ورابعة،
فقهقت الهدائد كلّها ساخرة من فعلته، وقال بشير بهدوئه
المعتاد:

- هذا درس جيد يا أكرم، أنت، يابني، لم تستطع أن
قتل هدهداً، فكيف تقتل ذبباً؟

ردّ أكرم:

- هذه هدامـد خرافية يا حكيم!

قال الحكيم:

- والذئاب السود خرافية أيضاً!

– والصبر مستحيل، أما سمعت ما قاله الهدى؟
– الصبر غير مستحيل، لكن ثمنه غالٍ! هذا ما قاله
الهدى.

– واليوم الذي علينا؟

– هو يومنا هذا!

– واليوم الذي لنا؟

– آتٍ لا رب فيه.. «الزمن دولاب لا عتمك ولا خالك»
كما يقول المثل.

فكَر الصياد أكرم قليلاً، تأمل بشير الحكيم، استعاد في
ومضة استرجاع بعض ما سمع، تسأله في نفسه: «أليس
هذا كله منفستو؟»

إضاف وهو ينهض لينصرف:

«حكيمنا صياد مثلي، لكنه يعرف أكثر مني. ما قاله لي عن
البقة الملتهبة خطير، إلا أنه صحيح، أما ما قاله عن عجزي
فإنه يدعو إلى الحيرة. إنه، عامدًا، رمانى بالحيرة، فلماذا؟
وهل أنا عاجز فعلاً، وبمفردي، عن قتل الذئب الأسود؟
وهل أنا، بعد هذا العمر، مجرد نملة؟ ولماذا التشبيه بالنمل،
في اختزال الذين يتسيدون على هذه الغابات؟ وما علاقة
الخرافة بالحقيقة؟ وهل الإنسان حقيقة أم خرافة؟ لا! الإنسان
حقيقة، بل وحده الحقيقة، وكل ما عداه خرافة، وحتى
الهداد خرافة، وقد يكون الذئب الأسود نفسه خرافة كما
قال، إلا أنّ عليّ ألا أصدق كل ما قال».

التفت أكرم إلى الحكيم بشير، وقال:

- أنا ذاهب، لكنني غير مقنع بكلّ ما قلته لي .. إنني
أشك !

قال الحكيم بشير:

- الشك، يابني، باب الحقيقة، وكلنا نقف أمام هذا
الباب! لكن من سيفتحه؟ دغمش؟ رئيفة؟ أنت؟ أنا؟ .. «من
يقرع الباب يُفتح له»، لكن علينا أن نقرع طويلاً، دون يأسٍ
أو ملل!

«الذئب الأسود خرافة، حقيقة، خرافة، حقيقة! ورئيفة، حقيقة أم خرافة؟ حواء وحدها، في هذا الكون، حقيقة الحقيقة، فاعتبر أيها المنذور للجنون والموت معًا!» انتفض دغمش رعبًا.. كانت الغابة، حيث يقع هذا الصياد عند جذع صنوبرة، أصغر الغابات الائتين والعشرين مساحة، أقلّها في السكان، لكنّها أرقى الغابات الأخرى حضارة ومدنية، وأوفرها حرّيات فردية وجماعية، وأشهرها في الجامعات وخرّيجها، وأكثرها طوائف ومذاهب، وأغزرها وسائل إعلام مفروعة، ومسموعة ومرئية، وسكانها يتكلّمون، إلى جانب اللغة العربية، اللّغتين الفرنسية والإنجليزية، إضافة إلى اللغات الأخرى، ويطلقون على عاصمتها لقب أميرة العواصم، وقد اعتبر شاعرها الكبير، أنّ جبلها: «كلام بين الأرض والسماء».

دغمش، ابنها الفار، كان فخورًا بغايته، رغم الحرب الأهلية التي نشبّت فيها ودامّت طويلاً، مفرّحة الشبيحة والقناصين. بل إنّ دغمش نفسه كان فناًّا خلال هذه الحرب، لا يخطئ في التصويب والقتل، وكان يرحب، صادقاً، في استخدام مهاراته هذه في قتل الذئاب الكثيرة، المنتشرة في هذه

الغابة، غير أنه، لسبب خاص ووجيه جدًا، كان مسكنوناً برجوة في أن يقتل الذئب الأسود في غابته هذه وحدها، اعتقاداً منه أنَّ هذا الذئب هو الأخطر بين ذئابها، وأنَّه إذا قضى عليه قضى على كلِّ الشرور التي تسبَّب بها، وزاده يقيناً بذلك أنَّ كلَّ الصيادين، في كلِّ الغابات التي طوَّف فيها أو فرَّ عنها، كانوا مثله تماماً، يرذون الشرور والأثام التي تُرتكب في غاباتها إلى عدوٍ بعيدٍ، هو الذئب الأسود، هذا الذي يطارده، وسيظلُّ يتربص به إلى أن ينال منه مقتلاً!

الصعوبة في هذه المطاردة أنَّ الذئب السود تنتقل من غابة إلى غابة، بطريقة ماكرة لا يستطيعها الصيادون، فلكي تظلَّ هذه الغابات متفرقةً، متنافرةً، مختلفةً على الحدود في ما بينها، متحاربةً أحياناً، من أجل ذلك أنشأ المستعمرون، قبل أن تستقلَّ الغابات، خنادق عريضة، عميقة، ملأى بالماء، كما كان يفعل بناء القلاع قدِّماً لتسويير قلاعهم، ولا يمكن القفز فوق هذه الخنادق أو السباحة لاجتيازها، لأنَّ على طرفي كلِّ خندق مخافر وحراساً، يضيقون من يحاول ذلك، وبعد التحقيق والسجن، يرذونه على أعقابه، إذا لم يكن حاملاً جواز مرور، موقعاً، بحسب الأصول، من دوائر النمل وأجهزتها، وهي كثيرة.. وعبئاً عقدت المؤتمرات، وتتابعت المجتمعات، بين رؤساء النمل، لردم هذه الخنادق وإلغائها، ما دام إيليس، المقيم وراء البحار، لا يوافق، ولو بطريقة غير مباشرة على هذا الإلغاء، المضرُّ بمصالحه، ولا يوافق عليه أيضاً المتذمرون من التجزئة، الخائفون من وحدة هذه الغابات.

مع ذلك، ومادام هناك مسارب للذئب السود، فلا بدَّ أن

نهض دغمش وبارودته في يده. أمسك بها في حالة إطلاق. كان وائقاً من مهارته في القنص، لكنه بدلاً من قنص ذئب قَنَص حجلاً على مقربة من نبع ماء؛ وسمع، غير مصدق، حركة اغتسال مخلوق في الماء، باغته، ربما، إطلاق النار على الحجل، فتوقف عن الحركة، مبادراً إلى

ستر صدره بقميص تناوله من على حافة النبع، صائحاً
بصوت أنثوي:

ـ لا تقترب أكثر وإلاً أرديتك قتيلاً!

سؤال من وراء دغل:

ـ ولكن من أنت؟

أجابه الصوت الأنثوي:

ـ صيادة ذئاب.. يا صياد الحجل!

ـ زميلة!

ـ ابتعد، إذن، بحق الزمالة، ريشما أرتدي ثيابي.

تظاهر دغمش بالابتعاد، لكنه دار ووقف وراء دغل، يتنازعه شعوران: أن يكفل عن التطلع إلى حوض النبع كزميل، وأن يرى إليها عارية كرجل. كانت غاطسة في الماء، لا يدرى أهي جالسة أو واقفة، وكانت ثيابها على صخرة، ينبع منها الماء صافياً، ككل ينابيع الغابات، ويتدفق إلى الحوض الذي تسبع فيه. دغمش كهل، تسرّب إلى جسمه بعض الووني، لكنه ارتعش، انتفض، ما إن سمع صوت أنثى في هذه الغابة.. أحسن بفحولته تستيقظ، وبإحساسه الجنسي يتفتح، سائلاً بشبق يختلط مع الدم في عروقه كلها! ماذا يفعل بهذا الشبق ذي الدبيب العذب والمعذب في آن؟ كيف يتصرف وقد انشلت قدرته على الحركة؟ هي امرأة، وهو رجل، وربما كانت، كما راح يفكّر، ترغب في رجل كما يرغب الرجل في امرأة. وفي مثل هذه الغابة، يتشهى الجسد في رغبته لدى الاثنين،

يمّحي فارق العمر حتى ولو كان، تصبح العسيلة الظماء، في الصلب المحروم، نداء إلى المغامرة، مهما يكن الثمن! الخنّى دعوة شهاء، دفعت ابنتي لوط إلى النوم مع أبيهما، مارستا الحبّ معه بعد السكر، كان هذا حراماً في عرف الأرض والسماء، رغم ذلك صار، وجد العقل له تبريراً في استمرار النسل، قيلَ الطوفان هذه التعلة، استطاع لوط، وهو شيخ عجوز، أن يضاجع ابنته، أن يشيع رغبتهما إلى حدّ الارتواء. ومع الارتواء كان الحُمْل. ابنتا لوط حملتا من أبيهما كما تقول الأسطورة.. الموقف هنا يختلف، الحرام ينتفي. لا هو أب لهذه الأنثى ولا هذه الأنثى ابنة له، فلماذا الحرج إذن؟

وسوسة الشيطان هذه انتصرت على نهي الملك. دغمش لم يفكّر بشيطان أو ملاك، كان بعيداً، في ذهنه، عن مثل هذا التفكير.. الشهوة أعمتها وربما، قال في تفكير رغبي: «أعمتها هي أيضاً». صياد وفريسة، صيادة وقناص، ما تبقى هراء. كلاهما، في هذه الغابة، من نسل بشري: ذكر وأنثى! الذكر خلق للأنثى، الأنثى خلقت للذكر، هذا قانون! الطبيعة البشرية أوجدت هذا القانون، فعلام الارتفاع عليه؟ علام مخالفته بداعف الخوف؟ هل يليق بالصياد أن يخاف؟ هل يليق بالصيادة أن تخاف؟ محال! الخوف هنا من الحرام، من عدم وجود عقد للنكاح، لكنه لن ينكحها إذا هي عارضت، هذا يسمّى اغتصاباً، فعلاً لا يقوم على الرضى. فإذا كانت راضية، كما هو راضٍ، كان الرضى المتبادل بمثابة عقد بينهما، عقد بغير طقوس، لظروف اضطرارية، والاضطرار

ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات. لذلك فإنَّ دغمش، في وطئه هذه الأنثى التي لا يعرف اسمها بعد، لا يرتكب فريَّة، يقوم بعمل شرعي، وبكلِّ المقاييس.. والتردد، بعد هذا كُلَّه، لم يبق له مجال، والزمالَة التي بينهما مرعية الاحترام، موفورة الكرامة!

رئيفة، من الجهة الأخرى، كانت تبتعد بماه النبع. تجلس، تقف، تحرك أطرافها، تشعر بسعادة غامرة. فأن تكون في هذه الغابة، وفي هذا النبع، يلقُّها صمت مهيب، ساحر، وسط طبيعة خلابة، تعزف، بطريقتها الفاتنة، موسيقى مهدّدة للحواس إلى درجة الخدر، فإنَّه شيء رائع! فوق هذا كانت تمرر، بين فينة وأخرى، راحتها على جسمها البعض، الملمس، وبأصابعها تداعب، بعفوية، هذا المكمن للذلة أو ذاك، أو تضع كفيها تحت ثديها، فترفعهما إلى أعلى، إلى ما فوق الماء، ناظرة إليهما بإعجاب، متشرفة لأنَّهما كاعبان، متکوران، على غير ضخامة وغير ضمور أيضاً، كلَّ منهما يملأ الكفت ولا يزيد، وحُلْمتاها بلونهما الوردي يبرزان كمنقاري حجلين بريئين!

ولم يكن دغمش، من مكمنه وراء الدغل، يرى إلى هذا كُلَّه، كان يرى الجزء، والجزء لا يعني عن الكل، وبانتظاره أن تخرج من الماء، أو أن يمسح جسمها كله بنظراته النهمة، راحت غلْمته تأتلق بتواتر متصاعد، ناسيَا الذئب الأسود وسلامته، منصرفًا بكلِّ حواسه إلى هذا الذئب الأبيض، المورَّد الساعدين، حين ترفعهما فوق الماء، فيرى إلى بَصَّة الزندين، استدارتهما، طولهما المتتسق، ويجرن من

سوق إلى الاندفاع، خارجاً من مكمنه ومن أفكاره، ومن كلّ الاحتراز الذي يلجم صبره عن النفاد، راغباً، بضراوة، أن يلحق بها قبل أن ترتدى ثيابها، كيلا يضطر إذا لبستها إلى تمزيقها، إلى تعريتها وافتراضها عنوة إذا قاومت!

خوفه الوحيد، اللاجم لحركته، كان مصدره الصياد بشير، هذا الذي يطوف في الغابات، مطارداً الذئاب السود، ساعياً إلى توحيد الصيادين الذين يطاردونها معه، فلو علم بشير ب فعلته، وأنه اعتدى على امرأة خرجت لتصطاد الذئب الأسود مثله، لكن جزاؤه الموت، كي يكون عبرة لغيره. وكيف يتفادى هذا المصير البائس، المخجل إلى درجة الهلاك، فإن دغمش تعقل، لاذ بالوقوف مكانه، آثر أن يكتفي، دونما حركة، بالنظر إلى الجسم العاري حين تخرج من الماء، ضاغطاً على مشاعره التي تعوي، مستجلاً بفعل التجربة خاطراً تاه عنه، مؤذاه أنّ المرأة لا تنال بالقوة وحدها، وإنما بالمحاكمة معها. فإن يكن قوياً، فالقوّة تولد العنف، والعنف يولد الطيش، وهذا قد يدفع هذه الأنثى إلى المقاومة، وإلى إطلاق النار، أو تتبادل الإطلاق معه إذا تمادي، وعندئذ يخسرها ويُخسر نفسه، يموت ميتة الكلاب، أو يجعلها، هي أيضاً، تموت على هذا النحو، يدخل سلك الجريمة، من الباب الواسع عند الدخول، الضيق كخرم الإبرة عند الخروج! «لا، فكر، عليّ ألا أكون أرعن، وألا أضيعت كلّ شيء!».

انتظر.. انتظر.. طال انتظاره. نبتت للانتظار أظافر مستنة. أدمت جسمه الأظافر المستنة. كاد يبأس، يقوم بحركة تجعلها تجفل فتخرج من الماء. استغرب أن تكون

لماء النبع هذه العذوبة، أن يكون جسمها قد استسلم لهذه العذوبة، أن تكون قد نسيت أنها في مهمة، ندب نفسها، متطوعة، لها، في مطاردة الذئب الأسود وقتله، ألا تخاف، وهي وحيدة في هذه الغابة، من ورود أيّما وحش مفترس ليشرب، فتعاوده طبيعته الافتراضية وينقضّ عليها! في هذه الحال، يكون عليه أن يقتل هذا الوحش، لكنّ الوحش، إذا رأى هذا الجسد الأدمي العاري، قد تفارقه وحشيته، يصبح أنيساً، لطيفاً، مدجّناً بمفاتن ما يرى، مثله هو بالذات، بعد أن انقلب من رجل تهيّجه الشهوة، إلى شبه رجل فارقته الشهوة، إلى إنسان يكتفي، بعد أن أصابه «الإخصاء» بالاستمتاع بالرؤية وحدها، موقدنا، في تحوله، أن المرأة وحدها، مَنْ في وسعه، أن يحوّل وحشية السلوك إلى إنسانيته، أن يلجم اندفاعه الناب عن النشوب في اللحم الحي، المشتهي جدًا، لا وياً هذا الناب ليًا عجیباً!

فجأة حدثت المعجزة، التمعت الجوهرة في وهج الشمس المتبقّعة، المتساقطة من بين أوراق الشجر، دوائر غير ثابتة على الأرض، حدثت الرؤيا الموعودة، المتجلّسة قواماً أنثويّاً حقيقيّاً أمام ناظريه.. لبث دغمش حيث هو، وراء الدغل، بغير حراك، متملّياً بنظرة شاملة كلّ هذا البهاء النضر، المنضر بالتناسق العجيب، كأنّما نحت بازميل نحّات ماهر، فلا نتوء فيه ولا عوج. كانت رئفة تدير ظهرها له، تمسح الماء عن صدرها وساعديها بغير تسرّع ولا إبطاء، ترد شعرها إلى وراء وهي تعرض جسدها للشمس في وقفه متأنيّة، كأنّما تستثير الشمس كي تسقط أكثر لتنسكب أشعّتها عليها، فتلحس، كما

في الخيال، البطل وتجفّه، بينما دغمش يثبت نظره على الرابيتين، المدورتين، المكتزتين بلحمن فتى أبيض، مورّد، المرتكزتين على ساقين مسكونين بقالب أناقة مثلثي، مبرومين بياقان، ينحدران إلى الركبتين انحداراً فيه انسجام، فيه حياة جنسية ثرّة، كامنة في داخل الركبتين، مع انساب محسوب بالبيكار إلى ما تحت، إلى حدود القدمين الحلوتين اللتين تمثيان على روح الرائي، والشعر الذي جفت مسترسلة على الظهر، يغري باللمس، بالتمسيد، بالمداعبة.. ومن كل هذا المنظر ثمة استدلال على أنّ صاحبته، تعدّ نفسها جيداً للذهاب إلى فراش الرجل الذي مهدّ مضجعه، وبات في لففة إلى اللحظة التي تقبل فيها، مدللة معناجاً، ل تستلقي على الفراش الممهّد، حيث ترنّ الضحكات الصغيرة، وبعدها تنطلق الصرخات المتأوّهة، من حلاوة الروح والله!

دغمش، كرجل شرقي، فقد السيطرة على أعصابه. انهار مسلول القدرة على أيّما فعل. إنّه قاتل، ضُبط بال مجرم المشهود في مكان القتل ذاته، فلا مهرّب له ولا هو بمستطاعه. أغمض عينيه مفكّراً، محتاًراً، متارجحاً بين أن يهاجم، ول يكن ما يكون، أو يتمهل ريثما يجد المخرج الأنسب في الوصول إليها.. دون إرادة منه، أطلق عياراً في الفراغ، فأجفلت رئفه، صاحت وهي تختفي وراء دغل وارف الخضراء، وثيابها بيدها:

– ليس هذا من الشهامة إن كنت رجلاً!

– ...

- أطلقت على ذئب أم حجل؟ -

...

- أنهيت لبس ثيابي فابرز إلي إن كنت شجاعاً!

تردد دغمش في البروز، زعم، في المرة الأولى، أنه أطلق على حجل، فهل يزعم، في هذه المرة أيضاً، أنه أطلق على حجل؟ وماذا بشأن الذئب الأسود إذن؟ قالت له إبني زميلة، فابتعد بحق الزماله. خان الزماله ولم يبتعد. لم يكن في وسعه أن يبتعد. رجل شرقي هو، وفي الشرق قلما تناح لرجل أن يرى امرأة عارية غير زوجته، وهذا مفهوم وغير مفهوم في آن. وقد حدث ما حدث، إصبعه هي التي ضغطت على الزناد، إصبعه هي التي عابت، فهل يقطعها؟ يرتكب، بذرية الغيرة على الشرف، ما يرتكبه، ولو على الظن، مدّعو الغيرة على الشرف؟ يضيف إلى رخاوته، أمام جسد امرأة، رخاؤه في حق الزماله؟ يدعى أنه ابتعد فيكذب، أم يصارحها بأنه لم يبتعد فيصدق؟ وإذا كذب، فهل تصدق كذبته؟ لن تصدقها! المرأة حساسة جداً، وبحساسيتها تعرف، والويل له من بشير، إذا عرف بشير أنه خان حق الزماله! قتلُ الذئب الأسود يحتاج إلى اتحاد الصيادين، فماذا بشأن الصيادات؟ لا بد من وجودهن، لا بد من مساعدتهن، ولا بد من اتحاد الجميع، رجالاً ونساء. فماذا فعل هو، مع أول امرأة زميلة التقاه؟ كان عليه أن يظلّ قدوة حق، فإذا هو قدوة باطل. ولا بد من الاعتراف والاعتذار، وطلب الصفح.

صاحب من مكتمه وراء الدغل:

- لقد أخطأت، ومنك العفو. إنتي أدعى دغمش.

أجابه صوت:

- وأنا أدعى رئيفة.. فاقترب من النبع لأراك.

- سأقترب على شرط.. أن تطلقني على النار.

- لتنتحر على يدي؟

- لاكمّ عن خططيتي!

- الناس يخطئون.. نحن، بعد كل شيء، بشر.
وسأفترض أنت رأيتني في الماء، وأنك، كالرجل الشريف،
ابتعدت عندما رأيتني أبترد في الماء، وبدل اصطياد الذئاب
السود رحت تصطاد الحجل، يعني نسيت واجبك!

قال دغمش:

- أعترف!

- نحن لسنا في كنيسة، وأنا لست بكاهن حتى تعرف لي
وترتاح.. لماذا أنت ضعيف إلى هذا الحد؟

- لأنّي.. كيف أقول؟ الأفضل ألا أقول..

- أعرف ما تريد أن تقوله.. أنت رخو كالخرقة المبللة.
لماذا أنت رخو كالخرقة المبللة؟

- لأنّي.. لأنّي.. والباقي تعرفيه!

أضاف دغمش بعد إطراقة:

- إنتي نادم.. نادم بأكثر مما تتصورين.

قالت رئيفة بتقرير:

- كان عليك ألا تخطئ حتى لا تندر.. الإنسان العاقل

لا يضع نفسه في مأزق يدفع ثمن الخروج منه. هذا من البدهيات التي كان عليك ألا تغفل عنها.

- نعم! هذا من البدهيات، ولكن الحق على من؟ عليّ أم على النبع؟

- عليك!

- على النبع!

فكّرت رئفة بخث وقالت:

- هذه مغالطة، هذا كلام خبيئ.. النبع ماء، وماذا ارتكب النبع من إثم، حتى تحمله الوزر؟ أنت، يا دغمش، جبان، كن جريئاً وقل «الحق عليك أنت»، وعندئذ أفهمك، وقد أدركك، ونتكلّم على ما هو أهمّ، على الذئب الأسود الذي نظارده.

- نعم! الحق عليك، وأنت تفهمين، لماذا كنت عارية في ماء النبع؟

- كي أبتعد!

- وإذا كان ابتراذك، على هذا النحو من العريّ وهذا النحو من الجمال، يلحق الضرر بالآخرين؟ ستقولين الضرر يأتي من النظر، لماذا نظرت إليّ وأنا في الماء؟

لماذا احتسلتَ روبيتي كلصّ وأنا عارية؟ وجواب هذا بسيط: لأنّك فاتنة مكتسبة، فكيف وأنت دون كساء؟ أنا لست لصّا، لم أقترب السرقة في حياتي، لكنني اليوم فعلتها، إذا كنت تعتبرين النظر إليك في ماء النبع، وفي هذه الغابة، وفي مثل هذا الصمت الشاعري، سرقة، فقد سرقت.. فعاقبني،

وليكن عقابك قاسياً، متكافئاً ونذالتي، ليكن الموت، لأنني،
ما دمت حيّاً، سأظلّ أنظر إليك، وهذا قدرى !

- والزماله التي بيننا؟

- ستبقى زماله كريمة.. أنا لن أغتصبك، وبرهانى أننى
لو شئت ذلك لفعلت!

- و تستطيع؟

حدّق دُغمش بها مستثاراً، وقال:

- كفّي عن حرق دمي!

ضحكـت و قالـت:

- وإذا لم أكـفـ؟

- يكونـ بيـتنا مـوتـ.

سألـت مـغـاجـا:

- من أيّ نوعـ؟

تمـتـ بـغـيرـ إـرـادـة:

- أعـوذ بـربـ الـفـلقـ مـنـ شـرـ ماـ خـلـقـ.. أـعـوذ بـالـلـهـ مـنـكـ،
وأـعـوذ بـهـ مـنـ فـتـنـتـكـ، اـغـرـبـيـ عنـ وـجـهـيـ!

ضـحـكـتـ مـقـهـقـهـةـ، رـدـتـ شـعـرـهـ إـلـىـ وـرـاءـ، مـسـدـتـ بـنـطـلـونـ
الـجـنـزـ الـذـيـ تـلـبـسـهـ، أـصـلـحـتـ مـنـ فـتـحـةـ بـلـوـزـتـهـ نـاصـعـةـ
الـبـيـاضـ، تـنـاوـلـتـ بـنـدـقـيـتهاـ وـقـالـتـ:

- ما أـرـعنـ الرـجـلـ حـينـ يـوـشكـ أـنـ يـفـقـدـ أـعـصـابـهـ.. أـينـ
الـحـجـلـ الـذـيـ اـصـطـدـتـهـ؟ كـنـ عـاقـلاـ وـفـكـرـ بـهـدوـءـ: مـهـمـتـناـ،
أـنـتـ وـأـنـاـ، أـنـ نـقـتـلـ الذـئـبـ الأـسـودـ، وـإـلـىـ أـنـ نـظـفـرـ بـهـ لـاـ بـدـ

من الطعام، هل لديك طعام؟ لا؟ لدى منه ما يكفي، هيأنا نعد طعامنا، لنشوِّح الحجل وبعض الطيور التي اصطدتها، ونأكل هنا قرب النبع.

قال دغمش بجزم:

- لا! ليس قرب النبع!

- وبماذا أساء إليك النبع؟

- ليس قرب النبع، ودونما شرح.

- تخاف أن ترى صورتك في مائه؟

- قلت دونما شرح!

- كما تريده، ولكن.. أنا لست أمام مجرنون، أليس كذلك؟

- طبعاً لست أمام مجرنون، غير أنك أمام إنسان نسي كل شيء إلاك.. جمالك أنساني حتى قضيتي الكبرى: ما يجري من هول في البقعة المجاورة!

قالت رئيفة:

- تقصد ما قاله الصياد بشير لأكرم؟

أضافت:

- قصّ علىي أكرم كل شيء.. إنه تقرير سياسي مرعب، فيه كل التفصيات عما يجري في البقعة المجاورة.. هل تعرف ما قاله المتبي؟ لا؟ إذن أنا أقوله لك:

أتى الزمان بنوه في شببنته فسرّهم وأتىناه على الهرم تقلّدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كفّ منهزم

أضافت:

نعم! صارم في كف منهزم، هذه حالنا في القلاع والغابات معاً.. نحن، أنت وأنا والآخرون، نطارد الذئب الأسود، لماذا؟ لأنّه أصل البلاء! وقد اختزلونا كما قال الحكيم بشير.. نحن مختزلون، هل تفهم؟!

- أفهم! قال دغمش وهو يقترب، هناك اثنتان وعشرون غابة، وهناك اثنتان وعشرون نملة، فقط لا غير، كما بلغني.. ماذا بيدنا مع هذا الاختزال؟ لا شيء.. لتعلّم أن ننسى.. هذا هو، أن ننسى!

- لا! ردت رئيفة، أن نتذكّر.. إننا لا نستطيع إلا أن نتذكّر، هذا قدرنا.. ولكن «الجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر»، الآن، يا دغمش، وقت إعداد الطعام.. أشعل النار، أشعل النار، وبقوّة، حتى لو احترقت الغابة!

كان اسمه فجر دغمش، واختصاراً كانوا ينادونه دغمش، وكان صياداً ماهراً قد جرب الفنص وأتقنه، واحترفه لفترة، وخرج مع من خرجوا لمطاردة الذئب السود وقتلها. كان في بداية الستينات من عمره، ولايزال يملك عزم الشباب وهمته، لكن أصدقاءه ومعارفه يعتبرونه كهلاً، ولم يجد ضيراً في ذلك، مصمماً، في سريرته، على أن يكون أول من يصطاد الذئب الأسود.. وفي هذا إثبات على احتفاظه بقوته، ورد مفحم على الصيادين الآخرين الذين يمازحونه قائلين: «راح عليك يا دغمش، عد إلى بيتك واسترح، مadam قتل الذئب الأسود يحتاج إلى فتاة الشباب!»، فيسمع ويتبسم بإشراق على أولئك الذين يجهلون ما يعرف من طرق مطاردة الوحوش الكاسرة واصطيادها.. «إنها الخبرة!» كان دغمش خبيراً، مجرباً، جريئاً، محكم التصويب، بينما الآخرون، الشباب خصوصاً، تنقصهم هذه الخبرة، ويشك في إحكامهم التصويب. هذا بالنسبة للرجال، فكيف الأمر إذن مع النساء؟ ثم من هو الذي استنفر النساء للمشاركة في الحملة على الذئب الأسود؟ الصياد بشير كان محقاً في الدعوة إلى استنفار الفقراء.. هؤلاء أصحاب مصلحة في قتل الذئب الأسود الذي يأكل رغيفهم؛ لكن المقصود

بذلك، كما يرى دغمش، الرجال فقط، إلا إذا كان للصياد بشير رأي آخر، توصل إليه في جولاته على الغابات، لذلك استدعاى النساء للمشاركة وزوًّدهن بالبنادق والرصاص؛ وفي هذه الحال، يكون في دعوته لهن حكمة ما، وحكمة ما في تقريره السياسي عن «البقة الملعنة».

هند هندي من فوق غصن وراءه:

- نعم يا دغمش، هناك حكمة ما، لا يدركها عقلك القاصر، حكمة في القول إذا ما اقتنى بفعل
أضاف هندي آخر:

- الطير لا يحلق إلا بجناحين.

تابع ثالث:

- بجناحين متساوين، وهذه حقيقة. ولكن ماذا تعني هذه الحقيقة؟ أن تكتف عن اعتبار المرأة جسداً ليس إلا.. أن تغير نظرتك إلى رئيفة، كما يغيّر، وجوبًا، جميع الرجال نظرتهن إلى كل الرئيفات مثلها.. التعاون في مطاردة الذئب الأسود، ومحاصرته، وقتله، هو الهدف، ولا شيء غيره! هذا ما يبشر به الحكيم بشير، ويصرُّ عليه مدرِّكاً العلاقة بين ما يجري في «البقة الملعنة» وبين الذئاب السود التي يطاردها.

- والحب؟ سأل دغمش.

ردّ الهدى:

- لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت آخر. هذا ما قلناه، وما كان يجب أن تحفظه أنت!

- لم أفهم!

- ستفهم مع الأيام .
- الحبّ غير منزع ، في أيّ مكان ، ولا يستطيع أحد أن يمنع أحداً من الحبّ .. هذه شريعة الكون! الحب شريعة الكون ، كما قرأنا في القصص والروايات .
- إنما بالرضى المتبادل!
- هذا صحيح .. بالرضى المتبادل تماماً .
- وأن يكون الحب حباً وليس شهوة .
- وما الفرق؟
- ستعرف ذلك لاحقاً .
- الحب لا ينفصل عن الشهوة ..
- يأتي تالياً ما تسميه شهوة ..
- أنا لست مجنون ليلى!
- انتظر وستكونه ، ستُجَنَّ بدورك يا دغمش .
- أنا واثق من عقلي .
- كلّ المحبّين الذين جنوا كانوا واثقين من عقولهم قبل الجنون .
- ولكن الأمر لم يكن بيدهم .. الحب ضربة قدر!
- وهل تظن أنها أصابتك؟
- منذ رأيت رئيفة عارية في النبع!
- ورئيفة قالت لك: «أنظر إلى صورتك في النبع!»
- القبح لا علاقة له بالحب!
- تعرف ، إذن ، أنك قبيح؟

- أعرف أنني رجل !

- نصيحة ! لا تعتد كثيراً برجولتك وحدها ، لثلاً نندم . .
إلى اللقاء !

طارت الهداهد . طارت بعد أن حذرته من الندم . الاعتداد بالرجلة وحدها ، حتى في زمن الشباب ، غير مستحسن . فكيف ودغمش في الكهولة ؟ عليه أن يعقل ، أن يفهم أنَّ رئيفة زميلة ، صيادة مثله ، وأنَّ هدفها من الخروج إلى الصيد مطاردة الذئب الأسود ، لا الغزل ولا الحب ، ولا الاستجابة إلى ما يفسد عليها هدفها ، ويفسده على دغمش نفسه . وهذه الحال تنطبق على جميع الصيادين والصيادات ، في الغابات الائتين والعشرين ، وسيكون موضع مساءلة وملامة وعقاب إذا تمادي ، إذا لم يرعي ويكتف عن جنونه المثار بالشهوة وحدها ، لأنَّه أبصرها عارية ، تستحم في النبع الذي هو ملك الغابة لا ملكه ، وقد فعل ذلك متلصضاً ، من وراء دغل ، رغم تحذيرها له ، ونهره بقوَّة كي ينصرف بعيداً عن المكان الذي هي فيه ! إنَّ فعلتك حماقة يا دغمش ، أيها البائس !

فكَّر دغمش بعد أن طارت الهداهد : « ماذا أفعل الآن ؟ أقتفي أثراها أم أدعها تذهب وشأنها ؟ أظهر لها ، بأكثر مما فعلت ، انجدابي نحوها ؟ رغبتي في البقاء إلى جانبها أو قريباً منها ؟ أقوم أدور في هذه الغابة بحثاً عنها ؟ أمكث إلى جانب النبع حتى تعود إليه ؟ وهل تعود ؟ وإذا لم تعد ؟ إذا وجدت بعرا آخر للابتراد من الحرّ ؟ أتعلل بالأمل ، أم أ Yas فاستريح ؟ هي ، رئيفة ، أبدت رضى وأنا أمتدا جمالها ، أبدت ما هو أكثر حتى من الرضى ، فماذا يعني هذا ؟ غنج

أنتي؟ غنج لوجه الغنج؟ سبر طاقتني على الاحتمال؟ اللعب
بي؟ الضحك علي؟ اللامبالاة حيالي؟ عدم الخوف متنى؟
استدراجي للتعلق بها، ثمّ بعد عنى؟ إبداء القبول، وبعد
القبول الصدّ؟ كلّ شيء جائز لولا فارق العمر. كلّ شيء
محتمل لو لم أكن قبيحاً وهي على هذا البهاء. يا إلهي!
لماذا خلقتني قبيحاً؟ وخلقتها على مثل هذا الجمال؟»

كان دغمش يخشى أن ينظر في ماء النبع، أن يرى صورته
فيه، ولأنّ هذه الخشية تحولت إلى عقدة نفسية، قرّر أن يحلّها
خلاصاً منها. ذهب إلى النبع، حدق في مائه، رأى صورته
التي يعرفها جيداً. لم يكن على ما تصور من قبح، إنّه ليس
بمليح، إلاّ أنّ الرجل لا يحتاج إلى الملاحة كالمرأة. اطمأنَّ
دغمش قليلاً، تبدّلت وساوسه، ومعها همومه، تعزّى قليلاً،
تطلّع حواليه في الغابة، لم يكن ثمة أحد.. السكون مرين
بشكل مهيب، ومن حين إلى حين يحرّك طائر أوراق الشجر،
أو يسقط كوز صنوبر يابس على الأرض، وبفعل الحرارة يتشرّع
عطر الصنوبر فيفعم الجو، أمّا الوحوش فلا أثر لها حتى
الآن.. هذه تتجول في الشتاء، إبان الثلوج، بحثاً عن طعام،
فإذا لم تجد فريسة وتضورت جوعاً، تهاجم القرى، تفتحم
أسيجة الحدائق وأبواب البيوت، يدفعها حسّ الشميم إلى تتبع
آثار الإنسان، الأطفال خصوصاً، من دون ارتداء سوى
ياطلاق النار عليها، من قِبَل الرجال المسلحين الذين يقتلونها،
أو يجعلونها تفرّ عائدة إلى الغابة، وهي تعوي ألمًا من أثر
جرح، أو ترسل العواء نداء إلى أبناء جنسها، وأشارس هذه
الوحوش وأشدّها افتتاحاً الذئاب. ودغمش يعرف هذا، وقد

هاجمته الذئب ذات شتاء، لكنه ردها عنه بإطلاق النار عليها. ويحدث، من شتاء آخر، أن يقتل ذئباً، فيذبحه ويسلخ جلده بتأنٍ، حذرَ أن يتمزق بعده السكين الرهيف، وبعد تمليع هذا الجلد وتجفيفه جيّداً، يبيعه في المدينة، لأنَّه مطلوب كفراء، مطلوب مثل جلد الثعلب أو السمور أو النمس، لزيته النساء أو بيوت الأغنياء. ويُعدُّ هذا الصيد مهنة بالنسبة للصيادين المحترفين، وقد عجب دغمش لأنَّ الذئب كلها، أو كلَّ التي رآها أو اصطادها، صهباء اللون، ولم يصادف، حياته كلها، ذئباً أسود بينها، الذئب الأسود نادر غالباً، أو غير موجود أصلاً، إنَّه وهم، إنَّه رمز لشيء ما سينكشف يوماً، بحسب التلميحات التي سمعها من الحكميْم.

خلع دغمش ثيابه، وضعها على مقربة، فوق الصخرة التي يجري من تحتها ماء النبع، وضع البندقية والرصاص عند حافة الحوض الذي نزل إليه، غاطساً في مائه العذب الصافي، مرَّة ومرة، قبل أن يسبح واقفاً، محركاً رجليه ويديه فقط. فجأة تعالى هسيس بين أوراق الدغل القريب، أنصت، حدق جيّداً، داوم الإنصات والتحقيق، لم ير في الدغل إنساناً أو حيواناً، غاضت الفرحة التي طفت على السطح من داخله، كان يأمل أن تكون رئفة تتلخص عليه، كما فعل هو عندما كمن وراء الدغل، لكنها لم تكن هي، أو أنها تخفي جيّداً كي لا يراها، رغم أنَّ بينهما صدقة، وأنَّها تلذذت بلحم الحجل الذي اصطاده.

من جديد عاوده التفكير فيها، وشيناً فشيناً صار تفكيره أشبه بالعصاب، على انزياح قليل من نقطة العصب أو الشهوة

«إنها زميلة فقط، زميلة لا غير!» وقد عاملها على هذا الأساس، منذ وافقت أن يأكلا معاً، وساعدته في شيء الحجل الذي اصطاده، والطيور التي اصطادتها هي، وتذوق بشهية ما معها من طعام، صار بينهما خبز وملح، وهو لا يخون الخبز والملح، محال أن يفعل ذلك الآن أو في المستقبل، أما بعد اصطياد الذئب الأسود، إذا ما كان هناك ذئب أسود حقيقة، فسيكون لكلّ حادث حديث.. وهذه الكياسة التي أظهرها، خلال الطعام وبعده، عند تبادل الكلام في شتى الأمور، وجدت فيها رئيفة ارتياحاً، طمأنينة، نوعاً من ثقة في احترام الزماللة التي تجمعهما، وقد أخبرته، في جملة ما أخبرته، أنها تعرف الصياد بشير، وهي معجبة شديد الإعجاب بحكمته، برصانته، بتصميمه على قتل الذئب الأسود، بدعونه إلى اتحاد الصيادين، وضرورة وجود صيادات في هذا الاتحاد.. وهي معجبة بفهمه الجيد لما تقوله الهداهد، وبقولها «للظلم يوم وللمظلوم يومان» خصوصاً، كما تر ami إليه أنّ الهدهد طير مبارك، وأنّه تقدم قافلة سليمان الحكيم في مسيرتها نحو سد مأرب في اليمن، حيث كانت تحكم المملكة بلقيس، وأنّ الهدهد هو الذي كان يكتشف، بحسنة غريزية، منابع الماء ويدلّ القافلة عليها، وفق رواية رئيفة. ولأنه يصدق روايتها كلمة كلمة، فقد اعترف بها، مع ندم حقيقي، بأنه أطلق النار أكثر من مرة على هذه الهداهد ليقتلها، لأسباب عديدة، منها دعوتها إلى الصبر، لأنّه هو، دغمش، يكره الصبر ولا يطيقه! «نعم! إنني أكره الصبر يا رئيفة».

سأله رئيفة :

- هل أنت جاد، يا دغمش، بأنك أطلقت النار على
الهداهد، وأنك نادم على ذلك؟

- كلّ الجدّ يا رئيفة، وقد أعاود، رغم ندمي الآن،
إطلاق النار عليها.

- وتحسب أنك تستطيع قتلها؟

- بالبارود وليس بالرصاص.. سأحضر جفناً محسّواً
بالبارود لهذه الغاية.

ضحكـت رئـيفـة وـقـالتـ:

- هذا هيل يا دغمشر، الهدهد غير عصفور الدوري.

احتیج دغمش:

- هيل! تقولين: «هيل»؟! ظنني أنتي لا أفرق بين الهدد والدوري؟ أنت لا تعرفين مهاراتي في التصويب، وفي الفحص أيضًا.. كنت فنانًا محترفًا!

- في تلك الحرب الأهلية القدرة؟

نعم فيها!

- ولا تخجل من المجاهرة بذلك.

- ولماذا أخجل؟ كان القتل شعalaً، ودون تمييز.. إنها الحرب، وماذا يفعلون في الحرب؟ يتصالحون؟ يقبل الأعداء بعضهم بعضاً؟

اريد وجه رئيفة من غضب، حين استعادت أحداث تلك الأيام الدامية، الأيام التي قتل فيها الناس بعضهم بعضاً على

الهوية، الأيام الملعونة التي طالت وطالت، وباحت
وفرخت مجرمين، والتي بعَدَتُ الآن، إلا أنها خلفت وراءها
الذئاب السود.. ترى يعرف الصياد بشير قصة دغمش هذا؟
اعترف له بما ارتكب؟ قال له إنه جاء يطارد الذئب الأسود
تکفيرًا عما ارتكب من جرائم؟ غبي دغمش هذا، كلّ الذين
كانوا على شاكلته أغبياء مثله، دفعهم الآخرون فاندفعوا،
قتلوا وقتلوا نيابة عن الآخرين، هناك، في غابات أخرى،
جرى، ويجري حتى الآن، ما هو أفعى، وبأسماء وأسباب
أخرى، إنه التعصب الأعمى، إنها الفتنة الكبرى، وهذه
ذيلها: ذئاب سود!

قال دغمش في شبه أسف:

ـ ما جرى قد جرى يا رئيفة.. إنني لا أفارخ بما صنعت،
بل بما أفادت من حرفه، أضعها الآن في خدمة قضية شريفة:
قتل الذئاب السود التي أوجدنها بأنفسنا.. إنني مذنب،
وأعرف ذنبي، لذلك طلبت منك، عند نبع الماء، أن تطلقني
النار على.. اطلقها الآن قبل أن يفوت الأوان!

قالت رئيفة بأسى:

ـ وماذا ينفع حذف قناص، إذا كانت الدنيا ملأى
بالقناصين؟ الوضع، يا دغمش، أعقد وأسوأ مما تظن..
هذا ما سمعته من رجل شريف! هناك أعداء كثيرون: في
الداخل، في الخارج، وفي كلّ مكان، وهناك أندال بمثل
عدهم وأكثر، فما العمل؟ كيف نظهر غاباتنا؟ كيف نحرّك
وجدانات القابعين في قلاعنا؟ بعضهم أصنام، عميّ لا
يرون، صمّ لا يسمعون، بكم لا ينطقون، والقلة منهم، التي

ترى، تسمع، تنطق، لا تقوى بمفردها على صنع ما يحتاج إلى إجماع. وهنا المشكلة، هنا العقدة، هنا البلية الكبرى.. هل تفهم ما أقول؟

قال دغمش حزيناً:

- فهمت بعض ما قلت..

- وماذا فهمت من هذا البعض؟

- إنني مذنب، وقد تبّت على يدي بشير توبة نصوحاً..
فماذا بقي؟ أن أقتل الذئب الأسود؟ ثقي أنني سأقتله..
صحيح أنني بليد.. لكني..

قاطعه رئيفة:

- عند النبع، حين كنت ترى بعض أطرافي العارية، لم تكن بليداً.. كنت متنبهاً، نشيطاً، مدفوعاً بغرائزك المجنونة. غريزة الذكر حين يرى أنثى كمارأيتها.

اعترف دغمش:

- نعم! كان الأمر كذلك.. الغريزة أقوى مما تتصورين، وأين، بين الغرائز كلها، غريزة أقوى من غريزة الجنس؟ إذا قدرت هذا عذرتِ. إنني أعرف، أنا أيضاً، بعض الطبائع.

- وبعد الذي سمعته منك.. قل أنت، بعد الذي سمعت وعرفتُ، كيف أقدر وكيف أغذر؟

- والتوبة النصوح يا رئيفة؟ ألا تشفع لي عندك؟
- لا تشفع!

- حتى بعد أن شفعت لي عند الصياد بشير؟

- ليس لي، ما للصياد بشير، من حكمة!
- لا علاقة للحكمة بالحب، بل إنّ الحكمة تقتل الحب.. إنني أحبك يا رئيفة، أحبك حتى لو كنت على يقين أنك لا تحبّيني..
- الحب، من طرف واحد، لا يكون.
- يكون يا رئيفة يكون.. إنّه ضربة قدر كما قلْتُ شاكِيًّا للهدَدَهَدَهَ.
- وبماذا أجابك؟
- سأله «هل تظن أنّ ضربة القدر هذه قد أصابتك»؟
أجبته:
- وهل تسأل بعد كلّ ما أعاني؟
- واقتنع بجوابك؟ كن صادقاً وصريحاً يا دغمش.
- اقتنع بأنني أشتاهيك.
- وأنا مقتنعة بأنك تشتاهيني لا أكثر، وهناك فرق بين الحب والشهوة، فرق بين اشتهاء الجسد، وبين حبّ الروح.. لنغلق هذا الحديث، إنني ذاهبة.

قالت رئيفة ذلك وذهبت. لم يعرض دغمش طريقها. تركها تذهب. بقي في مكانه ساكناً. أراد أن يثبت لها حسن نواياه. الحب، كما قال الهدَدَهَدَهَ، بالتراسي يكون، بموافقة الطرفين يكون، وبانجذاب الطرفين، أحدهما نحو الآخر، يكون، وإنّ لا فائدة.. القوّة تصنع اغتصاباً لا حبّاً. دغمش فكر باغتصاب رئيفة، لكنّها أدركت ذلك بسرعة. حذرته قائلة: «أنت لا ت يريد أن تموت، أليس

كذلك؟!» وهو، دون أن يغتصبها، يموت!

خرج دغمش من ماء النبع. نظر حواليه من جديد. الغابة ساكنة. سكون الغابة ملأه. دخل جسده من أذنيه وعينيه وفمه وكلّ مسامّه. الغابة كلّها دخلت فيه، أحسن بها، عاشها، أحبّها، كرهها، خافها، خاف الوحدة فيها، ارتدى ثيابه، سار نحو الدغل، الريبة في أنّ إنساناً ما كان يختبئ فيه مجرد ريبة. لا أحد في الدغل، خاب أمله لأنّه لم يجد أحداً، جلس على صخرة النبع، وضع يده على خدّه من كدر وتفكير، احتار في أن يبقى مكانه، أو يطوف في الغابة بحثاً عن الذئب الأسود، الذئب الأسود؟! نعم الذئب الأسود، لا ليس الذئب الأسود. هناك ما هو أخطر: الذئب الأبيض! ذئبة رئفة هذه ليست ذئباً.. لكنه، بدونها، وبغيرها، لن يصطاد شيئاً. لكي يكون الصيد، لا بدّ أن تكون هي، وهي لن تكون، وحتى لو كانت فما النفع؟ ماذا يقول لها.. بأية كلمات يعبر عما به نحوها؟ يركع أمامها؟ يبكي؟ يتسلّل؟ يقبل يديها؟ يقبل قدميها؟ يعتذر لأنّه تلصّص عليها؟ يبدي ندمه لأنّه رآها عارية؟ ليته لم يرها عارية! «مسييتك، يا دغمش، أنّك رأيتها عارية!».

ندم دغمش على ما رأى، جعله يعيش مارأى ثانية. الندم للذّة! نندم على ما وقع، كي نستعيد ما وقع. أحبلة! نحن لا نستطيع إلا أن نندم، وعندما نندم نجد أنفسنا نفكّر بالذي نندم عليه، ولأنّ دغمش نادم فإنه مستعيد، ومع الاستعادة ذهان، عدم قدرة على النسيان، على محو ما كان، وكلّ ما يتبقّى أن يستسلم للتفكير، والتفكير وقود الذاكرة، كلّ ومضة منه حطبة

جديدة في الموقف، ومع الحطبة الجديدة حرارة جديدة، نحرّ،
نُصاب بالحمى، نهدي، نقوم بدفع نفسي، وننطلق.. نمشي
بيطء، بييء أقلّ، نحثّ الخطأ، نحثّها أكثر، نسرع، نركض،
يركض معنا الذي في داخلنا، نركض بقوة أكبر، تركض نفسها
معنا بالقوة نفسها. أين الخلاص؟ لا خلاص! نُجنّ؟ نقترب
من الجنون، يأتي الجنون إلينا، يسكننا، ينام ويصحو معنا،
يأكل من الصحن الذي نأكل، يشرب من الكأس الذي
نشرب، لا مناص! المنعكس العقلي لا تأثير له في المنعكس
العصبي، تتحرّب جملتنا العصبية، تتهراً أعصابنا، نفقد
إمكانية السيطرة عليها، ندخل الحلقة المفرغة، ندور فيها،
ومعها، كما يدور الراكب في دولاب كبير بمدينة للملاهي!

هكذا انسلَ إلى عقل دغمش مسٌّ شيطاني، يُعتبر الأقوى
إذا ما قورن بالخيط الرفيع الباقي من انسلال القدرة على
رباطة الجأش في النفس. ما به حبٌّ، حبٌّ حقيقي وليس
شهوة، وضدّ هذا الحب عليه أن يكافح نفسياً، فهل يستطيع؟
أين نقطة الضعف، وأين نقطة القوة؟ وهل في وسع القوة أن
تبثق ثانية من الضعف؟ وما دور الإرادة الوعية، حتى لو
كانت؟ حتى لو استعيدت؟ حتى لو كانت القدرة على صراع
إرادة لوعية ممكنة، وكان التغلب عليها ممكناً؟ الحب
قضية، ولا انتصار على هذه القضية إلا بقضية مماثلة..
ودغمش نسي، في انسياقه بتيار الحب الجارف، أنّ هناك
قضية أخرى، هي الأصل وما عداها فرع، وأنّها السبب الذي
من أجله وُجد في هذه الغابة، وإليها الرجعى، وإنّ ظلّ يدور
في دوّامة المسّ الشيطاني.. كان عليه، على دغمش، أن

يسأل نفسه: لماذا أنا هنا؟ وهذا السؤال، بقدر ما هو بسيط فإنه معقد، وقد حسب أنه تحصيل حاصل، ولم يكن كذلك أبداً.. إنه الأساس!

نهض عن صخرة النبع، جال بيصره في الجهات الأربع، تناول بندقيته، ذهب باحثاً عن رئيفة. انطلق من الحب في طلب الحب. ظلّ، على هذا النحو، في دائرة جنونه، بينما كان يحسب أنه في تمام عقله، والعقل المرن، سارع في تبرير الفعل، صور لهذا الإنسان الضائع أن فعله هو الصواب، وأن عليه أن يبحث، في متاهة الخطأ، عن الخطأ نفسه، دون أن يفطن إليه، أو يعي أنه خطأ ينبغي، إذا ما أراد الخلاص منه، أن يكفي عن الإيغال فيه!

وبيّنما كان دغمش يمشي ويفكر، أنسد هدهد من على غصن شجرة:

إنَّ في الحسن، يا دليلُهُ، أفعى كم سمعنا فحیحها في سريرِ وهتف هدهد آخر:

والبصیر البصیر تضعفه أنشی فینقاد كالضریر الضریر
توقف دغمش، صوب بندقيته وأطلق.. طارت الهداهد.
قال في نفسه: «محال! هذا محال، رئيفة ليست دليلة، وأنا بصیر بصیر»، وللحال تشکلت جوقة هداهـد وهي تردد:

- أيها «البصیر البصیر» يا دغمش، إنما أنت ضریر ضریر، لكنك، مع الأسف لا تدری! نعم.. لا تدری!

رفض دغمش منطق الهداهـد، سار وهو يصرخ بصوت عالي: «أنا أدری، وأدری، وأدری! رئيفة غير دليلة، هذا ما

أنا واثق منه، مؤمن كلّ الإيمان بصحته!».

جاءته فجأة، من وراء دغل، قهقهة، فصاح:
- من هناك؟

برز بشير الصياد والضاحكة لا تفارقها. اقترب من دغمش، غرز بصره في بصره، بنظرة ثاقبة سابرة، لكنّها غير مؤثّبة أو عاتبة، وضع كفّه ذات الأصابع الخشنة الطويلة القوية على كتفه، وسأله:

- ما هذا الذي «أنت تدري» «أنت تدري!؟».

قال دغمش وقد استعاد رباطة جأشه أمام المفاجأة:
- رئفة غير دليلة!

ابتسم الحكمي بشير، وقال:

- وأنت، يا دغمش، غير شمشون.. رئفة لم تملّقك، لم تجترز شعرة الجبروت من رأسك، لم يربطك أعداؤك إلى عمود الهيكل، وتالياً لم تصرخ مثل شمشون الجبار «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ!» فيتفوّض الهيكل عليك وعلى أعدائك.. أنت قناص، ثمّ صياد، ثمّ عاشق.. ولكن من طرف واحد حتى الآن. أنت مخبّل، والخبّل باب الجنون، وأنت متردّد، بين صحو وغفل. أنت يا دغمش مريض، ومرضك لذيد، لكنّه أكثر من اللازم، لذلك أنت أضعف من اللازم، وحين تشفى من مرض الحبّ ستندم عليه، لا تستعجل الانتصار كيلا تقتله. هذه حكمة! والحكمة الأخرى أن تكون لك قضيّة، تؤمن بها وتكافح لأجلها. فالمرأة، صدّقني، تستهويها في الرجل رجولته، ولكن أن تكون

الرجلة للخير لا للشرّ، أن تكون رجولته في شمائله، أي في أريحيّته، شجاعته، كفاحه لأجل قضيّة ما، لخирه وخير البشرية.. هذه حكمتي ونصيحتي، فخذ بهما تفلح.

قال دغمش على استحياء:

- وتحبّني رئيفة؟

قال بشير:

- هذا متراكّم للأيام. افعل أنت ما هو صواب، ودع الباقي للزمن.

وعى دغمش النصيحة جيداً: العمل من أجل ما هو صواب، وترك حبّ رئيفة للزمن! إنه مع الآخرين في الغابات، وقد امتلأت هذه بالصيادين والصيادات.. نجح بشير، الصياد الحكيم، في استئثار الناس المصايبين بالفقر إلى حدّ الجوع، لمطاردة الذئب الأسود وقتله، وبذلك وحده يسلم رغيف الفقراء من الأذى الشديد الذي لحق به، حتى كاد، في بعض الغابات، يقضي على الناس جوعاً! «أنا لست بكافر، الجوع كافر» هذه العبارة البسيطة عميقة الدلالة، كان بشير قد التقى بها، لا يذكر من أيّ فم أو أيّ كتاب، لكنه كان يرددتها استنهاضاً لهم المتقاعسين عن القيام، في كلّ غابة، لاصطياد الذئب الأسود.. الذئب المفرد والمتعدد، الموجود في كلّ مكان، والعاث، في كلّ مكان من أرضنا، فساداً! إنه وفق تعبير أحد هم مفرد بصيغة الجمع، وجمع بصيغة المفرد، كثير وقليل، يقع ضرره على الناس، دون أن يراه الناس، حتى أصبحت حكايته أشبه بالأحجية!

لقد صارت الغابات الاثنين والعشرون مرتعاً لهذا الذئب، وصارت، تاليًا، ميدان معركة ضدّ عدوّ معلوم مجهول. كان اختلاط الصيادين والصيادات يشكّل في ذاته

مجتمعًا غريبًا، ولكن فيه كلّ مقومات المجتمع البشري المألوف، من حيث بدء الصلات وتناميها، تطورها، تشابكها، بين الذين يجمعهم هدف واحد، وتفرقهم أمزجة وعادات مختلفة: فيها التنافس والتباغض، فيها الألفة والمودة، وفيها أيضًا حرمة الخبز والملح، وتقاسم الطعام، وتبادل الزيارات، وما يخلق كلّ ذلك من رغبات في التواصل، وفي تبادل الأحاديث والحكايات، واستلطاف هذا الصياد لتلك الصيادة، أو تعلق هذه الصيادة بذلك الصياد، في جوّ خال من الإكراه، الذي عقابه، في عرف الصياد بشير الوعي الحكيم، شديد جدًا. فالإكراه، في قدسيّة الغابة، يسيء إلى هذه القدسية، لأنّه، إذا لم يردع يؤدي إلى العنف، وكلّ من يرتكبه يُدان بتهمة محاولة الاغتصاب بالقوة، وتكتفي تهمة كهذه لإخراجه من الغابة، بعد إنزال العقاب المناسب به.

إلا أنّ البشر هم بشر، في كلّ مكان وزمان، ولأنّهم بشر كانوا يلوبون، بدافع من الحرجان، متضورين جوًعا، ناشدين إشباع غرائزهم، بعد إشباع بطونهم، وقد اصطحب هذا الصياد، أو ذاك، زوجته، إذا كانت قادرة على الصيد، واصطحب آخرين خطيباتهم، أو حبيباتهم، على نية الزواج في الغابة. ومع معرفة أكثر الصياديّن أنّ الناس، خارج الغابات، قد وضعوا الشرف على الرفت، وأنّ الدعارة المحمية من بعض المتنفذين قد انتشرت كالجائحة الوبائية، فإنّ هؤلاء الصياديّن حرصوا على طهارة الغابة، وعلى إبقاء أجوائها نقية، عسى أن يساعد ذلك على قتل الذئاب السود

التي يطاردونها. وأصبح مألوفاً أن تقام الأكواخ، وأن تُصان الأعراف، وتنشأ جمعيات ومؤسسات صغيرة، تجعل مجتمع الغابة مجتمعاً مدنياً، ينعم بالديمقراطية وحرّيّة الكلام في كلّ الشؤون المتعلقة بحياة الغابة، ويجري الفصل فيها بعدد ونزاهة تامّين.. وكان الحكيم بشير يعرف أنّ ثمة من دعوا، للوصول إلى هذا المجتمع، ثمناً غالياً.

دغمش احترم كلّ هذه الترتيبات، لأنّها ضرورية ومرحبة، ولأنّ احترامها فيه تكفير عن بعض آثame السابقة، حين كان قنّاصاً في الحرب الأهلية، واستفاد من جوّ الحرّيات المضمونة للجميع، كي يجهز بأنّ الحبّ غير ممنوع، ودون هذا الحبّ لا تحلو الحياة ولا تصفو، وإنّه، هو الكهل، يحبّ، ويبحث عن حبيبته التي تكتم جيّداً حول اسمها وصفاتها، وأين تعرف عليها، وماذا يأمل منها. ولم يطلب منه أكثر الصيادين والصيادات أن يفشي سرّه، الذي كانت تعرفه الهداء، ويعرفه، عن طريقها، بشير، العارف والحكيم، الذي نصحه أن يأتي بزوجته، فأجاب بأنه وحيد، لا زوج له ولا ولد، وأنّه يتعدّب عذاباً أليماً بسبب حبه، وقد تعب في البحث عن التي يحبّ إلى درجة التلف، دون أن يراها، أو يسمع بأيّما خبر عنها، ولا يعرف أهي من الإنس أم من الجنّ! فذكره بشير الحكيم باللقاء بينهما قبل حين، وبالنصيحة التي أسدّها إليه بترك أمر رئيفة للزمن.

وكانت رئيفة تعجب من حبّ دغمش لها، وترى إليه من بعد، في حزنه وشقائه، دون أن تدعه يراها. إنّها تشفع عليه، إلاّ أنّ الشفقة لا تصنع حبّاً، وقد أيقنت مع الأيام أنه

لا يشهدها فقط، بل يحبها أيضاً، يحبها حبّاً حقيقياً، بدليل
نحول جسمه، وطول تفكيره، كأنما أصبح هذا الحب كلّ
قضيته، مع أنّ شفاء لن يكون إلا برجوعه إلى قضيته التي
جاء إلى الغابة لأجلها، ومن العبث أن تقول له، هي، هذا
الكلام، لأنّه لن يفهمه بشكل صحيح أبداً، وسيرده حتماً إلى
محاولتها التهرب منه!

كان يدور في الغابة ويدور، ثمّ يعود، من تطوافه بحثاً
عنها، خائباً، فيذهب إلى جذع السنديانة، حيث مكمنه للذئب
الأسود، من غير أن يفكّر بالذئب الأسود. وفجأة يهبط واقفاً،
مشتعلًا من الداخل، فاصدًا النبع عسى أن تعود إليه يوماً، فما
إن يجلس على صخرة النبع محدقاً في مائه، مستذكرة كيف
رأها عارية تبتعد فيه، حتى يُجذّب من شوق مبرح، تلهبه الهداده
على الأشجار من حوله، حين يهتف أحدها:
وعذلت أهل العشق حتى ذقته.

ويجيء آخر:

فعجبت كيف يموت من لا يعشق!

وعندئذ يفكّر في الموت، الذي وحده يضع حدّاً لعذابه،
إلا أنه يخجل أن يذهب هو إلى الموت انتحراراً، متمنياً أن
يأتي الموت إليه، وهذا لا يأتي عندما نريده.. إنّه يأتي على
هواء، في الوقت الذي يشاء، وحين لا تكون في انتظاره.
ولأنّ العاشق ينتظرونـه، فإنه لا يأتي إليهم متلذذاً بإطالة
عذابهم!

ماذا يفعل دغمش؟ يدع نفسه لمصيره؟ يصنع هذا المصير
بنفسه؟ كيف؟ إنه عاجز عن اتخاذ قرار. وفجأة، ذات يوم

عند الظهر، حظ هدده على ماء النبع ليشرب، وبعد أن
ارتوى رفرف وطار، ثم حظ على غصن شجرة قريبة قائلاً:
- ما بك يا دغمش؟

رفع دغمش بندقيته وأطلق على الهدى. طار الهدى بعيداً، قام بجولة ثم حط على الغصن نفسه، سائلاً دغمش السؤال نفسه:

ـ ما بك؟
تنهد دغمش ملتابعاً ولم يجب. كان من العبث أن يطلق النار ثانية، ومن العبث أن يشكون ما به. عندئذ تولى الهدأة شرح ما به قائلاً:

– أنت عاشق يا دغمش، ومعشوقتك موجودة في هذه الغابة.

- رئيفة موجودة في هذه الغابة، وهي تراك دون أن تراها.

? . ؟ =

رد الهدى:

- في ذاتك التي بين الرأس والقدم.

- وکیف اراها؟

- حین تری ذاتک!

- وكيف السبيل إلى رؤية ذاتي؟ هل تسخر مني؟

فالها ورفع بندقيته، فقهه الهدى وقال:

- لا تكن معتوهَا يا دغمش. دع البدقة واسمع .. شفاوْك سهل ممتنع! ورئيفة تعرفه، لأنها أكثر وعيًا منك.. أنت مريض يا دغمش ورئيفة متغافية، وهذا هو الفارق بينكمَا!
- أنا لست مريضاً.

- بل! أنت مريض جسداً ونفساً، وقد حذّرناك من عاقبة الجنون، لكنك جننت دون أن تدري أنك جننت، وهنا الللة!

- والدواء؟

- رئيسة تقول دواوينك في قضيتك.. أنت الآن بلا قضية.
وأنا أعرف أنك بلا قضية، لأنك أضعتها..

- والحق! أليس قضية؟

- لا! ليس قضية، أو ليس القضية التي جئت من أجلها إلى الغابة.. هناك استبدال! أنت وضعت قضية مكان قضية.

سؤال دغمش:

- لا يمكن الجمع بين القضيتين؟

أجاب الهدى:

- يمكن يا دغمش، إذا راعينا الأولوية. قضيتك الأولى، يا صاح، هي قتل الذئب الأسود، وأنت نسيتها.

- ألهمني عنها القضية الأولى، وهي في المتناول، بينما قضية الذئب الأسود في غير المتناول، وهذا الإشكال!

- صحيح تماماً، هنا الإشكال! ولكي تفوز بالحب عليك أن تفوز بما يتكافأ معه، ودون ذلك لا فائدة. اقتل الذئب الأسود تل قلب رئفة، هل فاتتك هذه البدھيّة؟

- لم تفتني لحظة، أنا دائم التفكير فيها.. إنني أفكّر بقتل الذئب الأسود، وأفكّر بيدهيّتك الملعونة معاً!

- فاتتك هذه البدھيّة دون التفكير فيها، أو أتاك فكّرت بقلبك لا بعقلك، لذلك أصبحت بلا قضيّة.

- والعمل؟

- أن تكون لك قضيّة!

سمع دغمش، في اللحظة نفسها، صوتاً هادئاً، عميقاً، وقوراً، حازماً من وراءه:

- لتكن لك قضيّة لا تخсс ذاتك وحدها، بل تتعدّاها إلى الآخرين، إلى الناس جميماً.

كان هذا صوت الحكيم بشير، وكان على قدر من المهابة أخافت دغمش، أرعبته، جعلته يقف وقفة المذنب أمام قاضٍ عادل، أربكته حتى لا يدرى ما يفعل، ولا بماذا يجيّب. ولم يزايله ارتباكه حتى رأى بشير يبتسم، يجلس على طرف صخرة النبع، داعياً دغمش إلى الجلوس بجانبه، وهو يسأله:

- ماذا تفعل هنا؟

أجاب دغمش بنبرة وجلة:

- في الحقيقة أدرى ولا أدرى. كنت، إذا صدّقتني، أستروح برؤية هذا النبع.

- هذا جيد، الذئاب تأتي لشرب أيضا!

- لكني لم أكن أترصد لها.

- وعلى من أطلقت النار إذن؟

- على الهدد الذي تدخل في ما لا يعنيه.

- وقتلته لا شك، أنت القناص الماهر!

فذكر دغمش وأجاب:

- لا! لم أقتله، حتى مع كوني ماهراً في القنص، وأنت تعلم أنني تبت، على يديك، توبة نصوحاً.. إنني، الآن، كالصيادين الآخرين، أكرس نفسي لقص النعنة الذئب الأسود.

رازه بشير وقال:

- والذئب الأبيض؟

- هل هناك ذئب أبيض أيضاً؟

- ويستحبّ بماء هذا النبع!

- بماء هذا النبع؟ أنت لا تستخف بعقلِي، أليس كذلك؟

- وأنت لا تستغبني، أليس كذلك أيضاً؟

وقف دغمش نزفاً وقال:

- إلى أين تريد أن تصل؟

أضاف:

- أنت رجل وتعرف.. حواء فتنت آدم نفسه، أوقعته في الخطية، ونحن، بعده، كلنا خطاة، حتى أنت نفسك خاطئ. من هذه الناحية على الأقل، فإنما هذا الترميز؟ قل ما تريد قوله بصرامة..

- ما أريد قوله معروف ، قاله الهدى نفسه دون الوصول إلى نتيجة ، إنما ، أستغفر الله ، كانت هناك نتيجة ، وكانت هناك كلمة : النتيجة أنك أطلقت عليه النار ، والكلمة أنك أضعت قضيتك ، وكنت الخاسر في الحالين .. لماذا تلخصت على رئيفة وهي في ماء النبع كما ولدتها أمها ؟ وأين التوبة النصوح التي تستدّق بها ؟ وهل تحسب أنّ قنصل امرأة بسهولة قنصل مخلوق يمرّ في الشارع !؟ المرأة ، يا دغمش ، لا تقنصل إذا لم تشاً أن تُقنص ، فعلام مطاردتها والبحث عنها ؟

قال دغمش بجرأة:

- لم أسمع ما قلت.. أنت تخاطب عقلي، بينما أنا
أسمعك بقلبي، ومن هنا يأتي الصمم! الذي يحبّ، يا
حكيمي، يكافح في سبيل حبه، وهذا ما أفعله أنا.. أين
الغراة إذن؟

وبعد وقفه:

- سأقول لك شيئاً يا صديقي .. الهداد حذرني من الجنون في حبي ، لكنني جنت من جراء هذا الحب ، جنت وانتهى الأمر ، فكيف تخاطب مجنوناً بصفته عاقلاً؟ الزجر ، هنا ، لا يفدي ..

- نعم، لا يفيد! ابن زريق السمّاك قال:

«لا تعذله فإن العذل يوعلمه»

«قد قلت حَقّاً، لكن ليس يسمعه»

هدف هدفه ثالث:

«جاوزت في نصحه حداً أضرّ به»

هفت هدف رابع:

«من حيث قدرت أن النص ينفعه»!

قال دغمش:

- هذا هو الواقع! كفت يا حكيم عن لومي وإلاً أشعlenني أكثر.. إنني أحترق.. ألا ترى النار في ثيابي؟

قال پیر:

— إنتي، يا بنى، أرى النار فى رأسك وليس فى ثيابك!

صاحب دغمش:

- وتأتي لتنفح فيها؟

دَشْرِ:

— أخطأت، فاعذرني.

- تقتلني وتعذر عن قتلي؟

- وأين الدماء على يدي؟

هـدـهـد هـتـف :

لا دماء على يديك، لأن هناك قتلاً مادياً وقتلاً معنوياً..
أنت قتلت دغمش معنوياً.

قال پیر:

أعتذر ثانية.

هدف الهدى:

- اعتذارك مقبول لأنك أردت الإصلاح.. أما الدماء على اليدين فإنها مسألة أخرى.

- هناك قتلى كثيرون ولا دماء على أيدي قاتلهم ..
الفقير مقتول ولا دماء على أيدي قاتله، المريض الذي لا
يملك ثمن الدواء، فيموت بعلته، قتيل ولا دماء على أيدي
قاتله، العاطل عن العمل وعائلته جائعة، قتيل ولا دماء على
أيدي قاتله، الجائع، المحروم، وكذلك المستلب، كلهم
قتلى ولا دماء على أيدي قاتلهم .. والقائمة طويلة!

قال پیر:

- كلّ هذا صحيح، ومن أجل ذلك نطارد، في غاباتنا،
الذئاب السود، لأنّها أصل البلاء.. الفساد - أيتها الهداده
- أصل البلاء، ومكافحته قضيتنا، ودمغش هذا نسي قضيته،
أضاعها، ومن أجل ذلك أعنّه..

رد الهدى:

- دغمش له، الآن، قضيّة أخرى، لا يردعه عنها التعنيف. ثم مَن قال لك إنّ قضيّته في الحبّ أقلّ شأنًا من قضيّته في قتل الذئب الأسود؟

— ولكنَّه، في الغابة، لقتل الذئب الأسود!

- والذئب الأبيض كما أسميتها؟ أليس موجوداً في الغابة أيضاً؟ الحب، أيها الحكيم، ذئب أشد شراسة.. دعه يطارده إلى أن يناله، أو ييأس.. لا تعلم أن اليأس إحدى الراحتين؟

- والجنون؟

- دواؤه فيه! المحب لا ينسى إلا بالحبيب. دعه ينساها
فيها.. هذه نصيحتي!

فکر بشیر وقال:

— أنت على حق أيها الهدى.

رفرف الهدى وطار، تبعه ثان وثالث ورابع، بقى بشير
ودغمش وحدهما، بقىا مجتمعين ومنفصلين، كل يفكّر
بقضيته. برزت، فجأة، رئفة. برزت بعد أن سمعت كلّ ما
دار بين الرجلين، وبينهما وبين الهداده. اقتنعت أنها داء
دغمش ودواؤه، وأنّه لن ينساها إلاّ فيها، ولكي ينساها
جائت إليه، جاءت مشفقة لا محبّة. وفهم دغمش، من
نظراتها إليه، هذه الحقيقة، فانطوى على نفسه حزينا دون أية
كلمة. أدرك أنّ الكلام غير مفيد، وأنّ الحب يكون منحة لا
صدق، وأنّ رئفة تتصدق عليه برأيتها، فتقبل ذلك بعرفان
يُخالطه تمرّد، وحين سأله:

- مَا بَكَ؟

أصحاب:

لَا شَيْءٌ

جلس الثلاثة على صخرة النبع، بشير في الوسط، وعن يمينه دغمش ويساره رئفة.. ساد الصمت طويلاً، انصرف خلاله الجميع إلى النظر في ماء النبع، وإلى الحوض الذي ابتردت فيه رئفة من حرّ الغابة، حيث رأها دغمش عارية، ثم بادلها الحديث، وفيه غير قليل من الإغراء له.. فوقع،

استجابة للإغراء، في هوى صاحبته التي امتنعت عليه. كان يحسب، قبل أن يراها، أن هناك كلاماً كثيراً سيقوله لها، إلا أنه، منذ رأها، استشعر ميلاً إلى الصمت الذي هو أبلغ من الكلام.

لم ينسها فيها كما قال الهدهد، فالنسوان تعلم، وهي تتعلم علينا أن نكابد، والمكابدة من مدرسة الصبر تخرج، وقد كابد دغمش زمناً ليس بالقصير، متميناً، وبإصرار، لويراها مرة. وها هو قد رأها، وكاد يشهد حين رأها، كاد يندفع إليها، كاد يفتح ذراعيه لاحتضانها، غير أن بروداً نز منها، لجم كل حركة تنضح بالشوق فيه.. إنَّه يحبها، ولكن ماذا بالنسبة إليها؟ أيَّ تعبير عن اللامبالاة ارتسم على محياتها؟ أيَّة حيدة تجاهه أظهرتها؟ أيَّ مقابل، وأيَّ ثمن، لعذابه المضني، دفعتهما مشاعرها؟ كان على حق، حين سأله «ما بك؟» أن أجابها: «لا شيء!» نعم. لا شيء! انتهت الأشياء. فالحُبُّ الكبير، إذا لم يكافأ بحبٍ كبير، تموت الأشياء كلَّها.. ما يبقى هو الاستعطاف، التوسل، الرجاء في أن يخفق القلب للقلب، ولو مرة واحدة! قلب رئيفة لم يخفق، والقلوب بالقوَّة لا تخفق، وهذا ما فهمه الثلاثة من خلال الصمت المريض، المبهظ، القاتل للفرح الإنساني.. وماذا يتبقى، إذا لم يكن هناك فرح إنساني؟ قال لها، بعد خروجها من الماء: «أطلقي النار عليَّ!» عبست ولم تفعل، لا يستحق حتى أن تقتله، وهذا منتهى الاحتقار.. وزادت عليه فقالت: «أنظر إلى وجهك في الماء!» وعندما فعل ذلك لم يجد عيباً، لأنَّه من غير

المطلوب أن يكون نافعاً للآخرين، فيردة الأذى عنهم، وقد أخطأ في الماضي، وتاب عن هذا الخطأ، وأخطأ في الغابة، ناسيًا أن قضيته، ككل الصيادين، هي قتل الذئب الأسود.. لقد جنَّ، ولا يزعم أنه شفي من جنونه بعد، إلا أنه اكتشفه، وكشف العلة يريح المعلول، يريحه لأنَّه يجعله على معرفة لعقده، وعندما تُعرف العقدة يُصبح حلها ممكناً. عقدة دغمش كانت الحب، وبعد أن وعاها، صار بإمكانه التخلص منها، ليس بسهولة وإنما بصعوبة، وعلى مهل!

قال بشير، بعد أن ضاق صدراً بصمت اللذين حواليه:

– وبعد؟

قالت رئيفة: ها قد جئت!

وقال دغمش:

– بإمكانك أن تذهبني!

أضاف:

– إنني حزين وفرح.. حزين لأنني أضعت قضيتي، وفرح لأنني وجدتها.

قال بشير:

– صدق الهدهد، قال: «لتأتِ حبيبته إليه، فينساها فيها». هل نسيت يا دغمش؟ هل نسيت رئيفة في رئيفة؟

أجاب دغمش:

– بدأت، تقريرًا، بذلك!

وأنت يا رئيفة؟

- أنا على عكس ما قال، شرعت أذكر دغمش في دغمش، وتلك هي المفارقة!

صاحب هدہد:

— ملّقیہ یا دلیلہ۔

ردّ هدهد آخر :

— رئفة ليست دليلة، قلنا هذا من قبل.

رد الهدى الأول:

- كلَّ رئيفة هي دليلة، إذا كان هناك شمشون من هذا
الزمن.. الرجل هو الرجل، وملق المرأة هو الملقب،
ودغمش هذا ملقطه رئيفة بعرتها، وهي تبتعد في ماء النبع!
حطت حمامات بيضاء على الحافة المقابلة، نظرت إلى
الثلاثة الجالسين بهدوء، المتسللين بثوب الصمت، الغارقين
في لجة التفكير، وقالت:

لعقد الصلح.

قال الهدى الأول:

- لا صلح مع الثار.. كليب قال لأخيه الوزير: لا تصالح! وعلى هذه الكلمة غزل الشاعر أمل دنقل قصيده الشهيرة جداً: «لا تصالح»، لأن هناك عدواً، وهذا العدو ما زال هناك، في البقعة المجاورة، الملتهبة بحسب تعبير الصياد بشير، أليس كذلك يا بشير؟

قال بشر:

- هذا صحيح أيها الهدى.. هناك، في البقعة الملتهبة، عدو، فرخ، في الغابات الاثنين والعشرين، عدواً آخر

اسمه الذئب الأسود.. إنّنا نطارد هذا الذئب الأسود،
وستطول هذه المطاردة، وخلالها لا بدّ من الحبّ، مادمنا
أحياء، ومadam الحبّ وقود حياتنا، والجنس الناجم عنه
وحده قاهر الموت.

انبسطت أسارير دغمش، تهليّ وجهه، انداخ على قسماته
إشراق، تنضرت تقاطيع محيّاه، بان مشاّح من لون أحمر
خفيف يكاد لا يلحظ على جيبيه، حتى أنّ الغضون القليلة،
على هذا الجبين، تخفّت لهنيهات تحت وهج الفرح.
وأذناه، أنفه، وجنتاه، تبدّت كلّها ملوّنة بالغبطة. ذقنه، غير
الحلقة، ارتعشت شعورها رعشة طرويّا. حاجباه، رموشه،
رفت عليها السعادة.. تدلّت شفته السفلّي، مريقة بالنشوة.
ظماً فمه، وهذا المحتفظ بشيء من رواء تلمّظ، ابتلّ،
تشهّى، كأنّما قد أطبق على فم رئيفة ورديّ اللّمّى. استعاد،
مرة ومرة، قيلة الحكيم بشير: «لا بدّ من الحبّ، مادمنا
أحياء، ومadam الحبّ وقود حياتنا، والجنس (آه الجنس!)
وحده قاهر الموت».

نهض واقفاً، تحرك، في المسافة الضيّقة، ما بين الصخرة
التي كان يقتعدها إلى جانب الحكيم بشير ونبع الماء الذي
رأى فيه رئيفة عارية تتبرد، تأمل صورته في الماء الصافي،
راقت له هذه المرّة طلعته في الماء الصافي، أحسّ أنه أكثر
من السابق رواء، وأغزر رضاباً، عاد شاباً قويّاً جسوراً،
مستذكراً عبارة بشير الحكيم: «حين تقتل الذئب الأسود،
تكون قد دفعت صداق رئيفة، وعندئذ فقط تبادلك الحبّ». قال في نفسه، والرغبة الشهاء إلى احتواء جسد رئيفة بين

ذراعيه تسکره: «لأقتلنّ الذئب الأسود ولو دفعتُ حياتي ثمناً لذلك». لكن رئيفة، عندما رماها بلحظ من عينيه خفية، كبحت، ولو قليلاً، اندفاعه فرحته.. كانت واجمة، جامدة، لم تختلج لها جارحة، أمام وثبة الأمينة التي رجّته رجّاً؛ كانت حاضرة غائبة، كانت لامبالية بكلّ ما قاله الصياد بشير عن الحبّ، والجنس قاهر الموت. تعيش، هنـا، بجسدها فقط، تاركة لروحها أن تهيم لا يدرى دغمش أين، عازفة عن الكلام على ما بها، حتى عندما سـأـلـهـاـ بشـيرـ:

ـ بماذا تفكـرـينـ ياـ رـئـيفـةـ؟

قال دغـمـشـ،ـ كـاسـرـاـ الصـمـتـ المـرـينـ:

ـ بالـذـيـ قـلـتـهـ ياـ حـكـيمـ!

قالـ الـحـكـيمـ:

ـ ماـ أـظـنـ.

قالـ رـئـيفـةـ:

ـ وـأـنـاـ لـاـ أـدـرـىـ!

قالـ دـغـمـشـ:

ـ بـلـىـ،ـ تـدـرـينـ.

قالـ سـاخـرـةـ:

ـ كـمـ أـنـاـ مـعـجـبـةـ بـفـرـاستـكـ ياـ دـغـمـشـ.

قالـ الـحـكـيمـ بشـيرـ:

ـ فـرـاستـهـ تـكـادـ تـضـيـعـهـ،ـ هـذـاـ الـذـيـ كـانـ قـنـاصـاـ فـقـنـصـ الـآنـ!

قالـ دـغـمـشـ وـقـدـ اـنـفـضـ:

- حاشا!

وقال الحكيم:

- حاشا هذه قلها لغيري.. ما أنت، يا دغمش، غير
قناص قَنَصَتْهُ.. امرأة!

رد دغمش:

- حاشا ثم حاشا يا حكيم..

أضاف:

- أنا الآن صيّاد.. صيّاد فقط، تركت قنص الناس لما
هو أهم.

قاطعه الحكيم:

- وهذا الأهم، بالنسبة إليك الآن، هو قنص قلب
مستعصِّ؟

- بل قنص الذئب الأسود، وتقديم رأسه المستطيل
عربون حبٍ للقلب الذي أحب.. إبني، أنا الكهل، أملك
 شيئين مهمين: التجربة والجسارة، وبهما أنفُو على الشباب
الرقيعين، كما هي حالهم في هذه الأيام.. لقد مضى، يا
حكيم، زمن الشباب الذي يعمل في السياسة، ويتقدّم حماسة
من أجلها.. شباب خرعون، كلّ ما يفعلونه هو التسّخّع
ولعب «الطرنيب».. لقد تاب الله عليّ من قنص البشر، حين
كنت، سابقاً، أخرق، يلعب بي الآخرون، رؤساء
المافيات، لعبة القتل لحسابهم، سواء بأجر أو بغير أجر..
ثم ماذا أ福德ُ، أنا دغمش القناص، من قنصي الأبرياء دون
تمييز؟ وبماذا استفاد الذين كانوا يقتلون على الهوية؟ كلّ

ما حصلنا عليه، نحن القتلة، بعض النقوذ، وقليل من الأفيون المراد به تعويذنا على الإدمان، وبعد الإدمان جعلنا مطايلا للنهب والسرقة وارتكاب الجرائم، لحساب رؤساء المafيات الذين يشغلون أعلى المناصب الآن، بينما نحن نلوب على اللقمة.. سأعترف لك يا حكيم: دغمش، هذا الواقف أمامك، شرب حشيشة الكيف، شئ الأفيون، لكنه لم يدمـنـ، أنقذ نفسه في الوقت المناسب، تراجع عن طريق الصـلـالـ، تخلـىـ عن ارتكاب الموبقاتـ، بفضلـ رـجـلـ حـكـيمـ مثلـكـ، سـاقـتـهـ الأـقـدـارـ إـلـيـهـ، فـنـاهـ عـنـ المـنـكـرـ، بـثـ فـيـهـ، بـصـبـرـ كـصـبـرـ أـيـوـبـ، مـعـرـفـةـ الـخـيـرـ مـنـ الشـرـ، زـرـعـ فـيـهـ، يـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ، قـلـيـلـاـ مـنـ الـوـعـيـ، فـتـحـ عـيـنـيـ الـمـغـمـضـتـيـنـ عـلـىـ الـمـصـيـرـ الـبـائـسـ الـذـيـ يـنـتـظـرـهـ، إـذـاـ هـوـ تـمـادـيـ فـيـمـاـ يـقـتـرـفـ مـنـ آـثـامـ؛ـ وـعـنـدـمـاـ كـانـ يـنـسـىـ، وـيـعـاـوـدـ مـاـ بـدـأـهـ، لـاـ يـتـخـلـىـ الرـجـلـ الـفـاضـلـ عـنـهـ، لـاـ يـلـوـمـهـ، لـاـ يـعـنـفـهـ، لـاـ يـقـولـ لـهـ: «ـاـذـهـبـ إـلـىـ الشـيـطـاـنـ!ـ»ـ أـوـ أـنـتـ مـنـ «ـنـسـلـ إـلـيـسـ»ـ أـوـ أـنـ أـمـكـ حـبـلتـ بـكـ بـالـدـنـسـ، وـأـبـاكـ جـاءـ بـكـ مـنـ نـطـفـةـ الرـذـيـلـةـ، وـأـنـ العـرـقـ دـسـاسـ، وـعـرـقـكـ فـاجـرـ، وـبـزـرـتـكـ شـبـيعـةـ..ـ بـلـ كـانـ يـرـىـ، أـنـ إـصـلـاحـيـ مـمـكـنـ بـعـدـ، مـادـمـتـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ مـعـرـفـةـ وـعـلـىـ بـعـضـ مـنـ ثـقـافـةـ، تـحـضـلـاـ لـيـ مـنـ الـدـرـاسـةـ وـالـمـطـالـعـةـ، وـمـنـ الـكـتـابـ الـذـيـ كـانـ مـعـيـ إـلـىـ جـانـبـ الـبـنـدـقـيـةـ، وـهـكـذاـ كـنـتـ أـطـالـعـ وـأـنـاـ أـقـنـصـ، وـالـكـتـبـ الـتـيـ حـمـلـهـاـ إـلـيـ لـاقـتـ مـنـيـ التـرـحـيبـ وـالـشـغـفـ، وـقـدـ التـهـمـتـهاـ كـمـاـ تـلـتـهـمـ السـنـدـوـيـشـاتـ الـلـذـيـذـةـ..ـ الـمـهـمـ أـنـهـ أـنـقـذـنـيـ، دـلـيـ علىـ درـبـ الـصـلاحــ.ـ وـلـأـنـيـ اـنـصـلـحـتـ، تـرـانـيـ هـنـاـ فـيـ الغـابـةـ أـسـعـيـ جـاهـدـاـ لـقـتـلـ الـذـئـبـ الـأـسـوـدـ، مـلـكـ وـمـثـلـ الـآـخـرـينــ.

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ هذه المرافعة، يا دغمش، لا تسوى قلامة ظفر إذا لم تفترن بالفعل، إنّي أؤمن بالأفعال لا بالأقوال.. أنت تقول إنّك تبت عن القنص، وأرغب أن أصدقك، وقلت إن المafيات هي التي كانت وراء القنص، ووراء القتل على الهوية، وهذا مفهوم معروف، إلا أنّ توبيتك، وأنت موجود في هذه الغابة، توبة وراءها غاية، فإذا تحققت هذه الغاية رجعت فناًضاً، حشاشاً، نازعاً قلادة الخير من عنقك، مستعيضاً عنها بقلادة الشر، في راحتك اليمني شيطان، وفي راحتك اليسري غول، وفي فمك نابان للنهش، حتى في جثث الموتى! أعرف أمثالك جيداً، خبرتهم في كل المواقف، رأيت الخزي تحت أظافرهم، عاينتُ الخبث في نظراتهم الشرهة إلى الذي لا يملكون، فإذا ملكوه انقلبوا ثعالب يقتاتون بالفضلات.. إنّي لا أنكر التوبة، هذه مطلوبة ومرغوبة، وهناك من يتوب بسبب يقظة ضمير، ومن يتوب بسبب صحوة نفسية، ومن يتوب إثر صدمة عنيفة، ومن يتوب لأنّه لا يستطيع إلا أن يتوب، وهو في الشيخوخة، ومن يتوب لأنّ الولوغ في الدم عاقبته وخيمة، ومن يتوب وهو أمام حبل المشنقة، كي يغفر الله ذنبه، ومن يتظاهر بالتوبة ليخدع من حوله، ومن يتوب لإرضاء شهوته خثلاً، ومن يتوب تواطئاً مع إبليس لأجل مغنة إبليسية؛ وأنت، في توبيتك المدعاة، من أي نوع من هؤلاء التائبين؟

قال دغمش:

ـ أنا من التائبين لأجل التوبة وحدها.

- هكذا بكل بساطة؟

- هكذا بكل بساطة.

رازه الحكيم بشير، وقال:

- أنت من كل هؤلاء التائبين دفعه واحدة!

قال دغمش:

- على فرض أنني من كل هؤلاء، فما هي غايتي؟

- وتسأل بعد؟

- أسأل لأنور.

- النور والظلمة لا يكونان معا في وقت واحد! في
داخلك بقعة ظلام لا تزال.

- ومعها بقعة ضوء أيضاً.

- لا أنكر هذا، إلا أن البقعتين في صراع لم يُحسم بعد.

- ومتى يكون الحسم؟

- بعد صراع طويل جداً.

- أنا، عند نفسي، تائب والسلام!

- أنت تخدع نفسك بنفسك... قل لماذا تُبَتَّ؟ اعترف.

- كي أقتل الذئب الأسود في هذه الغابة.

- وقبل مجئك إلى هذه الغابة؟

- لأن ذلك الرجل العارف قادني إلى الهدایة.

- في أول الحرب الأهلية أم في آخرها؟

- في أولها، ووسطها وأخرها.

- ومتى اهتديت أنت؟

- لا أذكر!

- أنت كاذب.. اهتديت في آخرها، عندما لم يبق مجال للقنصل.

صاح دغمش:

- أنكرت عليّ، يا حكيم، صحة توبتي.. فهل تنكر عليّ صحة غايتي أيضاً؟

أجاب الحكيم بشير بصوت هادئ:

- أنا لا أنكر شيئاً.. جئت إلى هنا لتقنصل، لأنك اعتدت القنصل، هذه هي المسألة!

- ولنفرض أنها كذلك.. أليس قنصل الذئب الأسود غاية الصيادين وأنت منهم؟ ألم تقل لي: أقتل الذئب الأسود تكون رئيفة لك؟

- قلت، وأكرر: أقتل الذئب الأسود تكون رئيفة عروساً لك.

- سأقتله، سأقتله يا حكيم!

- وستكون رئيفة عروساً لك، ستكون عروساً لك، ولكن بعد قتل الذئب الأسود لا قبله.. ستقول لي: أحبُّ رئيفة، والحبُّ يصنع الأعاجيب.. هل تنكر أنَّ الحبُّ يصنع الأعاجيب؟ لا أنكر أنَّ الحبُّ يصنع الأعاجيب، ولكن ما بك، يا دغمش، اشتهرَ لا حُبٌّ، هذه هي الحقيقة.. المرأة، يا صاحبي، رقيقة جداً، حساسة جداً، يستهويها في الرجل صدقه، كرمه، أريحيتها، مكانته بين الناس، شرفه،

شجاعته.. اسمع هذه القصة: كانت هناك، في مدينة من المدن، وفي حي من الأحياء، فتاة جميلة، وكان الشبان يعرضون أنفسهم عليها، يطلبون ودّها، يأملون في حبّها، وكان بعضهم في حال جيد، ووضع اجتماعي جيد، وعلى كثير أو قليل من الوسامـة، إلا أنّ أحداً منهم لم ينل الحظـوة لـديـها، أو يبلغ أن يـصطفـيـها. وصادـفـ أنـ كانـ فيـ الحيـ نفسهـ، شـابـ فـقـيرـ عـرـفـ السـجـونـ نـضـالـاـ لأـجلـ العـدـالـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـأنـ الـمـحـكـمـةـ كانـتـ فيـ الحيـ الـذـيـ تـقطـنـهـ الفتـاةـ، فـلـمـ جـيـءـ بـهـ، بـعـدـ هـربـ فـيـ الجـبـالـ، وـفيـ يـدـيهـ الـقيـودـ الـحـدـيدـيـةـ، إـلـىـ هـذـهـ الـمـحـكـمـةـ، دـفـعـ الـفـضـولـ بـعـضـ النـاسـ مـنـ سـكـانـ الـحـيـ، وـبـيـنـهـمـ الفتـاةـ، لـحـضـورـ مـحاـكـمـةـ الشـابـ الـمـناـضـلـ، الـذـيـ كـانـ جـريـناـ فـيـ الدـفـاعـ عـنـ نـفـسـهـ، وـعـنـ الـقـضـيـةـ الـمـبـدـيـةـ الـتـيـ يـعـتـقـدـهـاـ، مـعـتـرـفـاـ بـأـنـهـ هوـ الـمـسـؤـولـ عـنـ الـمـناـشـيرـ الـتـيـ وـزـعـتـ، وـأـنـ الـمـوـقـوفـينـ لـاـ عـلـاقـةـ لـهـمـ وـلـاـ ذـنـبـ، فـأـصـدـرـ القـاضـيـ حـكـمـهـ بـإـطـلاـقـ سـرـاحـ هـؤـلـاءـ الـمـوـقـوفـينـ، وـبـسـجـنـ الشـابـ لـمـدـةـ شـهـرـ وـاحـدـ، مـعـ غـرـامـةـ، دونـ أـنـ يـأـبـهـ الشـابـ للـحـكـمـ، وـدـونـ أـنـ يـتـرـاجـعـ عـنـ مـبـدـيـتـهـ. وـهـكـذـاـ، أـمـامـ الـجـمـيعـ، وـضـعـتـ الـقـيـودـ ثـانـيـةـ فـيـ يـدـيهـ، وـسـيـقـ إـلـىـ السـجـنـ. وـبـعـدـ الـخـروـجـ مـنـهـ كـانـتـ الـمـفـاجـأـةـ: الفتـاةـ الـجـمـيلـةـ أـحـبـتـ هـذـاـ الفتـيـ دونـ سـائـرـ الـفـتـيـانـ، وـفـضـلـتـهـ عـنـهـمـ جـمـيـعـاـ، حتـىـ معـ مـعـرـفـتهاـ أـنـهـ فـقـيرـ، وـأـنـهـ قـدـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـتـزـوـجـهـاـ.. هـذـهـ الفتـاةـ، يـاـ دـغـمـشـ، فـتـتـهـ رـجـولـهـ الفتـىـ وـأـغـرـتـهـ بـهـ شـجـاعـتـهـ وـتـقـبـلـهـ لـلـسـجـنـ فـيـ سـبـيلـ قـضـيـةـ شـرـيفـةـ.. هلـ فـهـمـتـ؟

قال دغمش:

- فهمت تقريرًا، يا حكيم، ووعيت كذلك، لكتني، في الوقت نفسه، لم أفهم ولم أُعِنْ، اختلطت عليّ الأمور، تخبلت.. .

قال الحكيم:

- أنت تحتاج، إذن، إلى وقت للتفكير.. .

- أفكّر بماذا؟ أنا أيضًا شجاع، وأنا أيضًا دخلت السجن، وأنا ناضلت أيضًا.

سؤاله الحكيم:

- كلّ هذا صار، ولكن يبقى السؤال: في سبيل أيّ قضيّة دخلت السجن أيّها الشجاع؟

ارتبك دغمش.. . احتار في الجواب: هل يعترف؟ هل يقول: سرقت؟ هل يقول: دخلت السجن لأجل قضيّة شريفة؟ هل يصدقه الحكيم إذا قال: إنّي مجرم، وإنّي جئت إلى هذه الغابة للتطهير من إجرامي؟ وماذا بشأن رئيفه؟ هل تكرّره بعد كلّ الذي سمعته عنه، ومن فمه بالذات؟

قطع عليه الحكيم بشير هذا الشroud التفكيري قائلاً:

- المثل، يا دغمش، يقول: «ليس في الإعادة إفاده». لن أعيد عليك ما قلته.. . هيا اقتل الذئب الأسود أوّلاً!

صاحب دغمش وهو يرتجف:

- قلت إنّي سأقتله، يعني سأقتله. ولكن ماذا بشأني الآن؟ إنّي أحبّ، إنّي أُعشق، إنّي أتعذّب:

صاحب هدهد من على شجرة مقابلة:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق؟

صاحب دغمش:

- لكنني سمعت هذا الكلام من قبل، فماذا يفيدني تكراره الآن؟ الموت، أيها الهدى الغبي، أرحم !

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي المهر ، فهو الدهر يرجو وينتقم

لم أفهم!

قال الحكيم بشير:

- هذا ما يسمونه، في لغة العاشقين، التأرجح بين اليقين والشك.. هل عشت قبل الآن؟

- عشقت يا حكيم طبعاً، لكنني قبل الآن لم أتأرجح ولم أتعذّب !

قال الحكيم:

- إنما حلاوة العشق في العذاب تكون يا دغمش!

- والی متی؟

- إلى أن تعلم كيف تنسى، وكيف تمحو..

- هذا لا يعني أيّ أمل!

- الأمل أن تثق، وأن يقترب الوثوق بالعمل الدؤوب،
لتحقيق الهدف الذي تثق به.

- اليأس، إذن، إحدى الراحتين، كما تعلمنا من الأمثال
الصحيحة!

- هذا هو

- وأنا أرفضه.

- إذا استطعت!

- وماذا تفعل هذه البندقية في يدي؟

- تقتل؟

- ليس نفسي.

- رئفة إذن!

- هي بالذات.

وقفت رئفة متهدية وقالت:

- أنا أمامك يا دغمش، اقتلني إذا استطعت.. هيا!

رفع بندقيته، أطلق. خاب الطلق.. كانت يده ترتجف. عجب لأنّ يده ترتجف، ماذا جرى؟ القناص لا يقص؟ طلقته كانت خلبيّة؟ لا. في البندقية رصاص حقيقى، فلماذا لم يقتل؟ خاف أن يقتل؟ أراد، دون وعي، ألا يقتل! ما العمل؟ يقتل نفسه؟ وإذا قتل نفسه فبم ينتفع؟ تبقى هي، تبقى الأفعى؟ يبقى حُسن الأفعى. ولم يبقى حسن الأفعى؟ للذى تُفضله عليه؟ هذا هو. يبقى لآخر.. الآخر هو العدو، الآخر هو الغريم. وعليه، ألا يقتل التي يحبها، بل الذي تحبّه، ومن الذي تحبّه؟ من الذي تحبّه غيره؟ «من الذي تحبّينه يا أفعى؟! من الذي تفضّلينه علىي، بعد أن صار بيتنا خبز وملح؟».

- هل تسمع يا حكيم، كان بيتنا خبز وملح..

قال الحكيم:

- الخبز والملح، وحدهما، لا يصنعان حبّاً!

- وما الذي يصنع الحب؟

- لست قاضياً في الحب حتى أعرف.

- يجب أن تعرف.. وإلا بماذا أنت حكيم؟

- أنا لم أقل إنني حكيم، هذا أولاً؛ وثانياً حتى لو كنتُ، فإن الحكمة تقضي بكبرياء الصبر.. اصبر يا دغمش، اصبر ولكن بكبرياء، لا بمذلة أو رعونة، أو إجبار التي لا تحبك على أن تحبك بالقوة.. الق هذه البندقية من يدك، فالرصاص الذي فيها مفروض أن يكون موجهاً إلى الذئب الأسود، لا إلى زميلة تطارد معك الذئب الأسود.. هل تسمع؟ كم مرة سألك: هل تسمع؟ وأنت، كما يبدو، لا تسمع، وأنا أعتذر. فالحب لا يعمي العيون وحدها، بل يضم الآذان معها.. إنما أنت، كما رأيت منك الآن، أعمى، أصم، أبكم. أنت مخبئ أمام الحُسن، والحسن أحياناً يكون شريراً، يكون جانباً على صاحبه وعلى الآخر، الذي يودي به، هذا الحسن، إلى التهلكة.. لن أسألك: هل تسمع، هذه المرة. لأنني على يقين أنك لا تسمع، فالشهوة رعناء، وقد أذلتكم شهوتكم، فازدادت رعونة، انقلبت فتاصن أبرياء، كما كنت في السابق..

- يكفي! صرخ دغمش، يكفي ما نالني من دليلة هذه.

هتف هدد:

إن في الحسن، يا دليلة، أفعى كم سمعنا فحبيحها في سريرِ
صاحب هدد آخر:

والبصير البصير يُخدع بالحسن وينقاد كالضرير الضريرِ

رفع دغمش بندقيّته، أطلق، مرّة ومرة، على الهداهد.
صاءت الهداهد، كان في صيّتها هزء ملعون، دفعه إلى
الإطلاق عليها وهي طائرة، لم يصبها أيضًا. أطلق في
الفضاء كي ينفرّها، كي يفرّقها، كي يبعدها، لم تنفر
الهداهد، لم تنفرّق، لم تبتعد.. عادت إلى الصياء، إلى
الرفرفة بين الأغصان وهي تصيء بقوّة أكبر، بهزء أشدّ..
وراح دغمش يطلق وهو يركض، وظلّ يطلق وهو يركض،
والهداهد فوقه على أغصان أشجار الغابة، تطير وتحطّ،
وفي طيرانها والحطّ، تتکاثر، تتجمّع، تنفرّق، تعود إلى
التجمّع، تعود إلى الصياء، أعنف، فأعنف، فأعنف!

تنهّدت رئيفة بارتياح مشوّب بالأسى.. وقفـتـ، دارت حول النـبغـ، عادـتـ إلىـ الجـلوـسـ، عادـتـ إلىـ الدـورـانـ، تـناـولـتـ بـنـدقـيـتهاـ، عـلـقـتـهاـ فيـ كـتـفـهاـ، نـزـعـتـهاـ منـ كـتـفـهاـ، لـاحـ تـفـكـيرـ مـعـذـبـ عـلـىـ مـحـيـاـهاـ، دـامـ هـذـاـ التـفـكـيرـ هـنـيـةـ، اـنـفـرـجـ المـحـيـاـ بـعـدـهـ، عـادـ إـلـىـ العـبـوسـ، عـادـتـ إـلـىـ الـجـهـمـةـ طـلـعـتـهاـ، كـلـ طـلـعـتـهاـ، ثـمـ أـشـرـقـتـ طـلـعـتـهاـ، كـلـ طـلـعـتـهاـ. تـسـأـلـتـ: «مـسـرـوـرـةـ أـنـاـ؟ حـزـينـةـ أـنـاـ؟ مـنـتـصـرـةـ أـنـاـ؟ مـنـهـزـمـةـ أـنـاـ؟ لـمـاـ جـرـىـ مـاـ جـرـىـ؟ هـلـ كـانـ مـقـدـرـاـ هـذـاـ الـذـيـ جـرـىـ؟ وـالـحـقـ، بـعـدـ، عـلـىـ مـنـ؟ عـلـىـ أـمـ عـلـىـ دـغـمـشـ؟ الـحـقـ عـلـىـ الـحـسـنـ، نـعـمـ عـلـىـ الـحـسـنـ، مـاـذـاـ أـفـعـلـ بـهـذـاـ الـحـسـنـ؟ مـاـ نـفـعـهـ وـأـرـقـشـ الصـيـادـ يـتـجـاهـلـهـ؟ إـلـاـمـ يـتـجـاهـلـهـ؟ هـلـ هـذـهـ لـعـبـةـ شـدـ الـجـبـلـ بـيـنـيـ وـبـيـنـهـ؟ شـدـ الـجـبـلـ فـيـ الـحـبـ أـيـضـاـ؟ لـاـ بـدـ أـنـ يـكـونـ فـيـ الـحـبـ أـيـضـاـ، مـاـدـاـمـ التـواـزنـ فـيـ لـعـبـةـ الـحـبـ لـاـ يـدـوـمـ طـوـيـلـاـ، يـتـأـرـجـعـ الـمـيـزـانـ قـبـلـ أـنـ تـسـتـقـرـ إـبـرـتـهـ، لـاـ وـزـنـ هـنـاـ، فـيـ أـشـيـاءـ الـقـلـبـ، كـمـ الـحـالـ مـعـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ. هـنـاـ، الـعـاطـفـةـ هـيـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ. الـأـكـرـمـ فـيـ الـحـبـ تـشـيلـ كـفـتـهـ. الـأـبـخـلـ هـوـ الرـابـعـ. مـنـ مـنـاـ الـأـكـرـمـ، وـمـنـ مـنـاـ الـأـبـخـلـ؟ مـقـيـاسـ؟ لـاـ. الـحـبـ لـاـ يـخـضـعـ لـلـمـقـايـيسـ، يـخـضـعـ لـلـخـفـقـانـ. كـمـ نـبـضـةـ خـفـوقـ فـيـ الـدـقـيقـةـ؟ فـيـ الثـانـيـةـ؟ فـيـ رـفـقـةـ الـهـدـبـ؟ وـمـاـذـاـ بـعـدـ هـذـاـ التـعـدـادـ؟

إنه لا تعداد، إنه سبر، كأن نسبر قلوبنا في خفقاتها، يعني أن نعرف قوتها والضعف، فالقلوب تخفق عند مرأى الآخر، الحبيب، وتحفق أيضاً لدى تذكرة، لدى تخيله، لدى مروره في الخاطر، ولو بشكل عابر.. وتحفق للرياح، تهبت من صوبه، في أيّ جهة كان، وصبا نجد الذي هاج من نجد، تلقاه شميمَا الها رب من نجد ذاتها، فأين المفر، و«قرب الدار خير من بعد»؟ وكيف الهرب والحب «كالليل الذي هو مدركي، وإن خلت أنَّ المنتأ عنْه واسع»؟ نعم! كيف الهرب، أيها الحكيم، العجالس على عرش الحكمة؟

ابتسم الصياد بشير، وقال:

- إنما أنا جالس على عرش الجهل يا رئيسة، أعن الحكمة المبتدلة، والعادمة القاتلة، داعيَا إلى وئدهما، تحت طباق الرمل! ولكن ماذا بك؟ لماذا تلوين كما تلوب دودة الفكر في الدماغ؟ لكلَّ مَا سلاح واحد هو البنديقة، ولكل سلاحان: حسنك والبنديقة، إلاَّ إنك لا تعرفي، أو لا تتقني، استعمال أيِّ منها، في الموضوع المناسب وبالشكل المناسب.. مع الكفاح يكون الحب، وهذا مفهوم تماماً، فإن نحْت ونحْن نكافح، فهذا أمر مشروع، غير أننا نخطئ إذا خطر لنا، حتى في الخيال المجرد، أنَّ أيَّ منها يحل محلَّ الآخر.. هذا هو خطأ دغمش. وتکادين، أنت أيضاً، تقعين في الخطأ نفسه: تنسين القضية التي أنت هنا، في الغابة، لأجلها.. أنت لست دليلاً، والأرقش ليس شمشون، ولسنا في وارد تمثيل دور دليلة وشمشون في هذه الغابة.. حسناء أنت؟! هذا لا

شك فيه، والحسن أحياناً سلاح معاكِ وسلاح ضدكِ، فلا تغترّي به، في المطلق، لثلاً تخسريه، لثلاً يصبح ضدك.. وأبو نواس، في تاريخنا العربي القديم، قال: «تناهى سكون الحسن في حركاتها» ولم يقل تناهى جنون الحسن في حركاتها، هذا يدلّ على أنَّ الحسن في سكونه وليس في جنونه؛ إنَّه في الكيفية التي يكون عليها، خيراً أم شرّاً، وأعيذ حسنك أن يكون للشرّ، وأعيذك أنتَ أن تحسبي أنتَ دليلة كما قال دغمش، وأنَّ حسنك يفتح كالأفعى كما قال الهدهد، في تورية للتحذير.. نحن، يا رئيفة، عرب، ولسنا يهوداً. اليهود هم الذين، كما في التوراة، استخدمو دليلة للنيل من شمشون، وماذا كانت النتيجة «عليَّ وعلى أعدائي يا رب!» وهذا ما يخالف هدفنا. ولن نقول للذين وراء الذئاب السود « علينا وعليكم ». هذه صيحة يأس، فهل يئست؟ اخرجي من الغابة إذن، دعينا نطارد الذئاب السود، وفي سرائرنا هتفة واحدة: « عليكم أنتُم ، يا من تقفون وراء هذه الذئاب! » اعتذر لأنَّي أطلت في الكلام، فالحكماء الحقيقيون يصغون كثيراً ويتكلّمون قليلاً، وبوضعي في خانة الحكماء، ولو مجازاً، كان عليَّ ألا أثرّ على هذا النحو، لولا أنَّني أشفق عليك من الضياع، مدركاً تماماً أنَّ الشفقة طعنة نصل في الخاصرة، وإنَّني افترفت هذا الإثم: طعنك في خاصرتكِ، أنتَ التي أحبَّ!

التقطت رئيفة، فوراً، عبارة «أنتَ التي أحبَّ!»، نظرت إلى بشير الحكيم نظرة تأمل، فيها بعض تساؤل وبعض دهش، فوجده مطرقاً، مشيحاً عنها كأنَّما ليست موجودة، أو

كأنما يمضغ ندمه على زلة لسانه هذه.. رغبت، في
اللاشعور، ألا يكون نادما على ما قاله، وأنه يحبها حقاً
ويشكل صادق، لا لتبادلها الحب، وهذا لن يكون أبداً، ما
دام هواها عند الأرقش الصياد، بل لتزيد محباً بين محبيها،
وفي هذا التعداد إرضاء لأنوثتها، فيه عبث للمكتون في
سريرتها، هذه السريرة التي لا تستعلن حتى لصاحبها، كونها
خفية وبسبعة ألوان شيطانية.. قال «أنت التي أحب!» فمن
أي نوع حبه؟ افتتان بحسنها الذي يريده ساكناً؟ مجنوناً؟
شهوانياً؟ بريئاً؟ نصحها ألا تكون دليلاً، لأنها يأبى تمثيلية
شمثون ودليلة في هذه الغابة، يأباه فعلاً؟ يخدع نفسه في
أمرها؟ يبطن غير ما يعلن؟ يعلن غير ما يبطن؟ قال ما قال
بدفع من عاطفته، وندم عليه بدفع من عقله؟ يطرق مفكراً لأنَّ
العاطفة والعقل يحتربان في ذاته؟ وإذا احتربا فلمن تكون
الغلبة؟ للقلب؟ لا! للعقل. وماذا بشأن القلب؟.. يموت
القلب؟ محال أن يموت القلب، ومحال أن يموت العقل، إنه
الصراع! العقل والقلب في صراع.. كذلك كانوا، وكذلك
يقيمان، والصراع تاريخ، والتاريخ طويل، فأين كان البدء؟
حواء أكلت التفاح، أطعمتها آدم، هنا كان البدء، الجنس
كان البدء، ومع البدء كان الكفاح، هبط آدم وحواء من الجنة
إلى الأرض، كافحا في الأرض، ولكن ماذا مع الكفاح؟ أو
في الكفاح؟ ماذا أيضاً بعد التفاح؟ النسل، الذري، كيف
كان النسل؟ كيف كانت الذري؟ صلب رجل، رحم امرأة،
هذه هي الحكاية.. هل يدرك الحكيم بشير الحكاية؟ آه لو
يدرك الحكاية! آه لو يدرك الناس الحكاية!

سألت رئيفة :

- وأنت، أيها الصياد الحكيم، تدرك الحكاية؟

أجاب :

عن أي حكاية تسألين؟

- عن حكاية التاريخ!

- هناك تاريخ وتاريخ!

- وبدء التاريخ؟

- التفاحة!

- لماذا الندم إذن؟

- الندم على ما كان..

- وعلى ما تريده أن يكون، ظناً منك أنه لن يكون.

- وإذا قلت لك إنني لا أريده أن يكون؟

- أقول لك إن إصبع يدك طويل، وأنت تحسب أن
بامكانك الاختباء وراءه.

- وبعد؟

- كن كما شئت أن تكون، لكنك لن تكون إلا كما أشاء
أنا أن تكون.

- وكيف تشاءين أن تكون؟

- هذا هو السؤال الذي لا تُسأل عنه امرأة!

- إنما أنت إبليس في زي امرأة.

- وهل كانت الملائكة لولا الأبالسة؟

– لكتّني لست الملّاك الذي في ظنّك، ولست الإبليس
الذى في وهمك.

– كن على سجيّتك إذن.. هل أنا مخيفة إلى حدّ أنك
تحاشى النظر إليّ؟

قالت ذلك رئيفة وقهقت ضاحكة.. انقلبت رئيفة حواء،
انقلب بشير الحكيم آدم.. حواء وأدم، وللمرة التي لا
يُحصى عددها، في الجنة. وحواء وأدم، وللمرة التي لا
يُحصى عددها، في الأرض، والتفاحة تتدلى من غصن
شجرة متارجحة في إغراء لا يقاوم، فماذا أنت صانع أيّها
الصياد الحكيم؟ الفتنة أشدّ من القتل، والفتنة في قتلها لا
تكون على حال واحدة، فالفتنة أشكال، والقتل أشكال،
ورئيفة لا تضمر قتل بشير، وحتى لو أرادت فإنّها قاتلة
مقتولة، تقتل بشير ويقتلها الأرقش، وهكذا يتساوى طرفا
المعادلة، فلا غالب ولا مغلوب، والكسب الوحيد زهرة
أخرى في باقة الزهر، أو شوكة أخرى في باقة الشوك..
والغنج لهو، ولا بأس بشيء من اللهو، حتى في الغابات
التي يطارد فيها الصيادون الذئاب السود!

جورج ديمتروف، المناضل البلغاري، قال: «تسّلوا أيّها
الرفاق فإنّ الطريق طويل!»، والمتنبي أنسد:

نحن أدرى وقد سألنا بنجاح أطويل طريقنا أم يطول
وكمّير من السؤال اشتياق وكثير من ردة تعليل!
والحكيم بشير يعرف ما قاله الاثنان، مؤمناً أنّ الطريق
لاصطياد الذئب الأسود طويلاً، وأنّه لا بدّ من التسلّي، ولا بدّ
من التساؤل، ولا بدّ من الشوق، ومن التعليل.. وأنّ رئيفة

تكيل له بالكيل الذي كال لها، فقد أغرق في مواجهته النافلة، وأغرق في تجهمه أمام البشر في وجهها، وأغرق في رفع الجد إماماً للهزل، ناسيًا أن أحدهما، في المطلق، هو الآخر في المطلق أيضاً، وأن القضية التي تحدث بصراحتها يمكن أن يتحدث باللسان عنها، وأن عليه، هو الحكيم، أن يتعلم الحكمة من جديد، ومن امرأة، تومئ له إيماءً، مفاده أن للنفس على صاحبها حقاً، وأن للجسم على صاحبه واجباً، ومن المستحيل على المرء أن ينسى حق النفس، وأن يتتجاهل واجب الجسد، إذا ما أراد أن يكمل طريقه إلى الغاية التي ينشدها، مهما يكن سمو هذه الغاية، ومهما كان في الجلوس على أعصابه، التي ستخونه لف्रط جلوسه عليها !

نهض الحكيم بشير، منتسباً مستشاراً، رافعاً بندقيته في شيءٍ من الغضب، لا يدرى، هو نفسه، الدافع إليه، وبتسديد دقيق، أطلق رصاصة على التفاحة المتذليلة من شجرة الخير والشرّ، كما لو أنه آدم آخر مع حواء أخرى، في الجنة التي طردا منها، نزولاً إلى الأرض التي يقترب فيها الحب بالكافح، وحسبما تبدى له، في انتفاضة غضوب، أن الأمر هكذا كان، وهكذا يجب أن يكون، ولا حاجة بعد للكلام، حول ما إذا كان قد أخطأ أو أصاب، فاللهم، في حكمة الخلاص، أن يتخلص من التفاحة أولاً، لأنها اللعنة التي تقوده إلى الجحيم، وكلّ تنگر للقضية، التي من أجلها وُجد في هذه الغابة، جحيم تسعره هذه التفاحة !

مرة أخرى، والتفاحة شظايا، فهفهت رئفة ضاحكة من

فعلة بشير. قالت في نفسها: «بشير يحبّني حبّاً مجنوناً، أو يشتهيني اشتئاه مقبولاً، فأن يطلق على التفاحة، فإنه يحسب أنه يطلق على حبه، أو يطلق على شهوته، وكلا الأمرين مردّهما إلى الخوف؛ إنه يخاف الخطية، والخطية في دمه، والدم، في شرایین الحب أو الشهوة، لا يمكن الإطلاق عليه، لا يمكن فصده بشارة حادة. وفي التقابل، بين حبه لي وحبي للأرقش، أكون قد كسبت الرهان، تكون حواء قد انتصرت، كرّة أخرى، على آدم! مأفون آدم هذا، مصاب بالانفصام، بارتظام رأسه بجدار الحقيقة، وهو، لو يعلم، جدار تكسرت عليه قرون كلّ الوعول التي نطحته، وسيتكسر عليه قرناه إذا افترضنا أنه وعل!».

قالت:

- أنت وعل يا بشير!

قال بشير:

- لكنتني لا أنطع صخراً.

- الحقيقة هي الصخرة، وأنت تخافها.. أنت كالوعول تنطح صخراً، ولو اتعظت بحكاية الوعول والصخر لأدركت ألاً فائدة من النطاح، فالصخر يبقى صخراً، والوعول يبقى وعلاً، ومن العبث إعادة تمثيليهما في هذه الغابة.. أنت لست وعلاً، وأنا لست دليلة و«بالكيل الذي تكيلون يُكال لكم». أليست هذه هي الحكمة التي سعيت لتلقيني إياها؟ وأين؟ في الغابة! ولماذا؟ لأنك في المضمير من سريرتك تخافني، فهل أنا مخيفة إلى هذا الحد؟ إبني، ببساطة، امرأة، وأنت، ببساطة، رجل، إلا أنّ الرجل فيك خاف من

التفاحة فأطلق عليها، جعلها شظايا، إلا أن التفاحة عادت كما كانت، وهي تأرجح فوق رأسك، فأطلق عليها إذا شئت ثانية، وثانية تعود كما كانت، لأنها في الوهم تفاحة، وفي الواقع حقيقة، وعبيتاً قتل الحقيقة بأي أداة من أدوات القتل! ارجع إلى رشك، أو أن رشك سيعود إليك تدريجياً.

كان الحكم بشير يتکئ على بندقيته، يهز برأسه صامتاً، مصغياً إلى مرافعة أنشى يعرف أنها ليست له، وأن الأرتش ليس لها، وتلك التي يحبها الأرتش ليست للأرتش، والسلسلة قد تطول وقد تقصير، فيكون كلّ لكلّ، وهذا جيد، هذا لابد منه، الحب لابد منه، والجنس لابد منه، بالحلال وغير الحلال، فالناس يستلطف بعضهم بعضاً، والناس يحبون ويعشقون، مadam عالم الغابات عالم الحياة نفسها، وفي الحياة تكامل، وفي التكامل تأخذ الحياة مجرها الطبيعي، وما كان في الجنة قد كان، وما هو كائن على الأرض كائن، والكينونة، هنا، تعبّر عن ذاتها من خلال هدف، وجميل من الإنسان أن يكون له هدف، وحتى الذين يخيل إليهم أنهم دون هدف، يعيشون هدفاً بغير معنى، هدف البلادة، الكسل، الفراغ، الموت دون موت، لمخالفتهم الناموس الأول، ناموس آدم وحواء، اللذين هبطا من الجنة، أو طردا منها، بسبب جرأة حواء، بسبب الأفعى التي هي حواء، وبحكمة الأفعى، أغرت حواء آدم بأكل تفاحة الخير والشر، فهبطا إلى الأرض ليمارسا الخير والشر، هذه الثانية الخالدة بخلود الحياة، وبممارستها، في تناقضها، تكون النقلة إلى أمام، ومadam ذلك كذلك، مadam

الخير حق والشرّ حق، فإنّ الحياة حق والموت حق، وفي التداول، بين هُزم الحياة للموت، وهزم الموت للحياة، ثم هزم الحياة للموت، في صراع لا ينتهي، تأكّد الصيرورة، وتتأكّد الصيرورة، في الارتفاع إلى أعلى، والصيرورة ارتفاع، بالعنف بدءاً، وبغير العنف خاتماً، عندما يصبح الارتفاع انتقالاً طوعيّاً، مستنداً إلى التطور المبدئي الانتقالي، المتّسق والحركة، المجانف للسكون، الوعي للتناقض بين القديم والجديد، الهادم للقديم، الباني للجديد، أو المفسح لهذا الجديد أن يكون متجدّداً أبداً.. رئيفة كانت على حق، وأنا كنت على خطأ!

قال بشير الحكيم لرئيفة الصيادة:

- كنتِ يا زميلتي، على حق.. لأنّ حواء، في التاريخ السابق لتاريخنا، كانت على حق.. قال السيد المسيح: «كونوا حكماء كالحيّات»، وقد كانت أفعى الفردوس حكمة في إغرائها حواء بأكل التفاحة، وإطعام آدم منها.

سألت رئيفة:

- ولماذا أطلقت النار على التفاحة إذن؟

- لأنّها كانت، في الوضع الذي كنا عليه، تفاحة للشّر دون الخير.

- وأنت، حين إطلاقك النار عليها، كنت تعرف الخير من الشّر؟

- كنت أجتهد طلباً لمعرفتهما.

- وبلغت أن تعرفهما؟

- ليس تماماً بعد.. والحديث يقول إذا أصاب المجتهد
كان له حظان، وإذا أخطأ كان له حظ واحد، وهذا الواحد
يكفيني راهناً.

- ماذا ت يريد أن تقول بعد هذه الكفاية؟

- إننا، أنت وأنا، على الأرض.. ومادمنا عليها توجب
 علينا أن نعمل بحسب قانونها.

- وهل الحب خارج هذا القانون؟

- إنه في داخله تماماً، شرط ألا يكون أحادي الجانب!

- ومتى كان للحب أكثر من جانب؟

- سلي آدم وحواء.

- أنت آدم وأنا أسألك.

- وأنت حواء وتعرفين.

- الذي أعرفه أن حواء أغرت آدم بأكل التفاح فأكلها..
وأنت ترفض هذه التفاحة وتطلق عليها النار.

- هذه معرفة ناقصة.

- وتماماً؟

- أن نكون، بعد أكل التفاحة، ما كان آدم وحشاء
بعدها.. أن ننزل إلى الأرض، فنحب ونكدح.

- وماذا نفعل نحن هنا؟ أليس اصطياد الذئب الأسود نوعاً
من الكدح؟

- هذا هو.. إننا هنا نكدح و... .

ضحكـت رئـفة بـغـنجـ، وـقـالتـ:

- . . . نحب!

- ونحب أيّا .. تعالى إليّ ..

قال ذلك وتقَدَّم خطوة نحوها فاتحًا ذراعيه.

صاحت به:

- مكانك!

- تعالى إليّ!

- مكانك!

- قلت لك تعالى إليّ، إنني أحبك ..

- أنت تشهديني ..

- وأشهدك .. تعالى إليّ .. لا! .. أنا آتي إليك.

- مكانك!

تقدَّم بشير الحكيم من رئفة خطوة، خطوتين، ثلث .. .
كان بشير يتقدَّم، وكانت رئفة تصيح قف. لكنه ظلَّ يتقدَّم،
وظلَّت تصيح قف. تابع التقدَّم، تابعت الصياح، وفي اللحظة
التي كاد يحتويها سُمع صوت سقوط جسم في ماء النبع .. .
بقيق الماء، ضحكت رئفة، بان رأس بشير، تابعت الضحك
رئفة، قال بشير بصوت نائح:
- الآن اكتملت الحكمة!

قالت رئفة وهي ترکض هاربة ضاحكة:

- نعم .. الآن اكتملت الحكمة!

كان الأرتش صياداً ماهراً، معتزاً بنفسه دون غرور، دون تواضع، إذا قال فعل، لكنه نادراً ما كان يقول، تاركاً الكلام لغيره، مصغيًا بأنفه إلى هذا الغير، حتى لو كان يعرف ما يقوله، لكثرة تجاربه وشدة معاناته، والمعارك التي خاضها، جسداً ونفساً، في مكافحة الفساد الذي يستشرى، يوماً بعد يوم، عاماً بعد عام، في الغابات الائتين والعشرين، التي طوّف فيها ويندقته في كتفه، باحثاً، متعمقاً الذئب الأسود، في غير هواة أو ملل، مع يقينه التام أنَّ هذا الذئب له سلالة، من الصعب القضاء عليها، لأنَّ القلاع المحصنة بالحواجز، الممتنعة عن الأخذ بالحرس، المالكة لكلِّ أنواع السلاح الحديث، هي مصدر الذئاب السود، في سلالة بعد سلالة، بعد سلالة، تتواتد فيها، تتکاثر في رعايتها، تنتشر في كلِّ الغابات بأمر منها، ويدفع لها كي تنهش، بأقوى ما يكون النهش، في جسوم الرعايا البائسين، المذليين والمهانين، العاجزين عن مقاومة مطامع الذين في هذه القلاع، لا فتقارهم إلى ما يُقاوم به من سلاح متكافئ، ولأنَّ دولة القانون مغيبة، والدولة لا دولة، بل هي سلطة.. ففي الغابات الائتين والعشرين، سلطات بهذا العدد، وكلَّ سلطة تسنَّ من القوانين ما يرسخ سلطتها، وهذه القوانين

برأقة من الخارج، مكفرة من الداخل، دون، حتى
استثناءات، لترسيخ القاعدة!

ولشدّ ما كان الأرقش يبتسم بإشراق للذين تخدعهم هذه
القلاء، برمي بعض الفتات لهم، كما ترميها لكلابها تماماً،
وكان هؤلاء المخدوعون يتلقّفون هذه الفتات، شاكرين للقلاء
صنيعها، مسبحين بحمدها، متدافعين لخدمتها، عيوناً
بصاصة، وسواعد فتاكه، وأزلاماً خنوعة، بسبب من الجهالة
والضلال، وال الحاجة إلى لقمة العيش، والخوف من فقدانها،
ورغبة في الاستزادة منها، واعتبارها منة من الأسياد، تقتضيهم
الولاء والإكبار، والبذل والتضحية في سبيلهم، وتقبل كلّ ما
يصدر عنهم على أنه عطاء كريم، وفق تلقين ما يسمعون
ويشاهدون ويقرأون في وسائل الإعلام، بكلّ تفتنها في إضفاء
حالة من المجد والأريحية والسخاء على هؤلاء الأسياد.

ما العمل والحال كذلك؟ الوعي؟ إنه وعي مفضل على
مقاس الجهل. التنوير؟ النور هنا ظلمة، يزوقها الإعلام
بطلاء كاذب. النقابات؟ إنّها مفبركة برؤسائهما وأعضاء
مجالس إدارتها. الجمعيات؟ موجودة ومنتفعه، وانتفاعها
يلغى حتى وجودها. الأحزاب؟ قد كانت، في النصف
الأول من القرن العشرين، أحزاباً، وفي نهايته صارت
توابع، وصدق نظام حكمت الذي قال: «عصري مجيد
وسافل!» ففي بداية عصرنا كان المجد، وفي نهايته كانت
السفالة، وهذا، في زحمة التدافع إلى نيل الرضى، لا يفطن
إليه أحد، فإذا فطن بعضهم سبق الفاطنون إلى السجون أو
مشافي الأمراض العقلية، وقد كانت نكتة، إلا أنها حقيقة،

قوله من قال: «إنهم يبيعون النيل والأهرام!» فإذا لم يُبع النيل فعلاً، ولم يُبع الأهرام صدقاً، كان المجاز أبلغ تعبير عن الواقع، وخلاصة الأمر، كما الحال المعيش «لا تفكروا لأننا نفكّر عنكم». وهذا ما جرى في عهد زعيم عربي كبير كبير، مات في غير أوان الموت، مات عندما اكتشف المخاري، من وراء ظهره تمرّ، ومات عندما أعلن: «إن دولة المباحث قد انتهت!» فانتهى هو وظلّت دولة المباحث قائمة، وبعد موته كُشف الستر عن كلّ الفضائح التي كانت ترتكب في «عهده الاشتراكي الميمون!».

ما العمل يا الأرقش؟ اليأس عار، والأمل حلم حتى لا نسقط في العدم، والرجاء في سفر، والذئاب السود ترتع، وأنت تعرف الصياد صقرش، والصيادة قمطرة، وتعرف دغمش وبشير وأكرم ورئفة ونافع والآخرين، وقد قلت لهم هذا الكلام كلّه، وشرحـت لهم الواقع بكلّ تفاصيله، المعلن منها والمستتر، فأجابـك الصياد بشير، بحكمـته التي لا شك فيها «القول موت والصمت موت فقلـها ومت!» ولما صارتـه بأنـ هذه الحكمة قد تكرـرت على لسانـه مرـة ومرة ومرـات، أطرقـ ينـكـ الأرضـ بعدـ منـ الصنوبرـ!

مع ذلك، يا الأرقش، تبقى حكمة بشير حكمة، ولـما بلـغـكـ ما فعلـتـ بهـ رئـفةـ، ظـلتـ حـكـمةـ بشـيرـ حـكـمةـ، فـيـ نـظـركـ وـنـظرـ الصـيـاديـنـ الآـخـرـينـ، الـذـيـنـ اـسـتـغـرـبـوـاـ، وـلـاـ غـرـابـةـ، أـنـ يـهـوـيـ بشـيرـ رـئـفةـ، وـبـيـنـهـمـ هـذـاـ الفـارـقـ فـيـ العـمـرـ وـالـتـفـكـيرـ، فـقـلـتـ لـهـمـ «الـحـبـ صـنـوـ الـكـفـاحـ، فـمـنـ يـكـافـعـ يـحـبـ»، وـمـنـ يـحـبـ يـكـافـعـ، وـأـنـ حـوـاءـ أـغـرـتـ آـدـمـ بـأـكـلـ التـفـاحـةـ، وـعـنـدـمـاـ

أكلاها هبطا الأرض، المسكونة بالحب والكافح معاً، وهذا ناموس الحياة، ومن الخير أنه ناموسها، لأنّه لو لا الحب ما كانت الذراري، ولو لا الكدح ما عاشت الذراري، وصدقت حكمة الحكيم بشير في فراستها، حين أرخ بداية التاريخ ببداية الجنس، في المؤثرة التي اجترحتها حواء، بنقلها آدم «من الغفلة إلى اليقظة»، وصدق من قال: «لولا هزيمة سبارتاوكوس ما كان المسيح المخلص». فالعبودية المهزومة مع ثورة سبارتاوكوس، وجدت خلاصها في تقبل الفادي لمحنة الصلب، التي هي ثورة من نوع آخر، إلا أنّ هذه الثورة لم تبق ثورة، ألغتها مقوله «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فأباطرة روما اطمأنوا، منذ تفحصوا المقوله المباركة، ووجدوها متناسبة مع أشيائهم، مع مصالحهم، والأهم مع بقاء عروشهم لهم، كاملة غير منقوصة، ومن هذا المنطلق، في فهم ما هو معلن وما هو مستتر، تقبلوا فداء «الفادي»، دخلوا في إهابه، كسبوا الرهان في اقتسام الغنيمة، صار الأباطرة أصحاب الملك في شقيقه: الديني والدنيوي، حكموا الرعية باعتبارهم الآباء بالروح وبالسلاح، وتوارثوا، على هذا النحو، حكم إمبراطورياتهم، حتى وصل الحكم إلى نيرون، الذي أحرق روما، ومن نافذة قصره الإمبراطوري، راح يضحك على مشهد النيران تتضرى، ملتهمة البيوت وما فيها من السكان في روما!

من ذا الذي زعم أنّ النار تطهر؟ كم نفساً من نفوس ذوي السلطة طهرت؟ كم من قلاعتهم أحرقت؟ كم من أملاكهم أتلفت؟ كم من عائلاتهم شُردت؟ كم من كنوزهم

طالت فأهدرت؟ كم من غواياتهم ومجوناتهم أوقفت؟ كم من نساء حريمهم عرّضتهن للنبي؟ كم من أولادهم دفعتهم إلى الموت، فداء للوطن أو للشعب؟ ومن الذي، في البقعة المجاورة، الملتهبة، يندفع إلى الموت، في عمليات مقاومة أو استشهاد؟! ومن، في هذه البقعة المباركة، فجر نفسه ليفجر العدو المجرم معه، هل هو من أولاد المسؤولين، في داخل البقعة أو خارجها؟ لا! نعم لا! أولاد هؤلاء المسؤولين، في الداخل والخارج، ينعمون، في قصور آبائهم، بالنعمـة البطرة، يرفلون بالأزياء الباريسية الفاخرة، يقودون، بسرعة مجنونة، سياراتـهم الفارهة، يدرسون في جامعـات أوروبا وأميركا وغيرـهما أحدث ما أنتجهـ ثورة الأزياء ومصمـميـها، أمنـين، مطمـئـين، باذخـين بـغـير حـساب!

كان الصيـاد أـكرـم يـراـقب الأـرقـشـ، الصـيـاد الشـابـ، الوسيـمـ، من وراء دـغـلـ قـرـيبـ. دـهـشـ لـأـنـ الأـرقـشـ، العـالـسـ في الغـابةـ عـلـىـ مـهـادـ منـ إـبـرـ الصـنـوـبـرـ، يـلـوحـ الـهـمـ عـلـىـ قـسـمـاتـ وـجـهـ، يـبـدوـ، فـيـ إـبـحـارـهـ الفـكـرـيـ البعـيدـ، مـسـتـغـرـقـاـ فـيـ هـذـاـ إـبـحـارـ، إـلـىـ حـدـ أـنـ صـارـ معـهـ فـلـكـاـ عـائـمـاـ، عـلـىـ هـدـئـةـ مـنـ الـمـيـاهـ الزـرـقاءـ السـاـكـنـةـ، لـاـ تـتـحـرـكـ فـيـ جـارـحةـ، لـاـ تـنـذـ عـنـهـ نـائـمـةـ، لـاـ يـشـعـرـ بـمـاـ وـمـنـ حـولـهـ، غـيرـ مـكـثـرـ حـتـىـ بـالـذـئـبـ الـأـسـودـ، الـذـيـ هـوـ، فـيـ هـذـهـ الغـابةـ، لـأـجلـهـ وـمـنـ المـفـرـوضـ أـنـ يـتـرـضـدـهـ، وـأـنـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ فـيـقـتـلـهـ.

ثـمـةـ لـحظـاتـ، يـنسـىـ فـيـهاـ الـمـرـءـ نـفـسـهـ، يـسـافـرـ، عـلـىـ مـتنـ الـخـيـالـ، إـلـىـ بـعـيدـ، يـعـيـشـ بـشـغـفـ فـيـ هـذـاـ بـعـيدـ، وـفـيـ الرـؤـىـ التـيـ تـنـدـاحـ لـنـاظـرـيـهـ السـاـهـمـيـنـ، تـتـبـدـيـ أـمـامـهـ فـتـنـ

الهوى، على تنوع أشكالها، فتنا للعشق، من منظر خلاب في الطبيعة، إلى مشهد مرؤضٍ في هذا الجزء أو ذاك الجزء، منها، والمرء، في سدوره، يرتاد آفاقاً عاشها، أو يحلم بأن يعيشها، سابحاً، في فضاءات خارج الجاذبية الأرضية، بين أرض وسماء، تماماً كما في حلم غريب غريب، لذيد لذيد، يوّد ألا يفيق منه، وأن يمسك به في القيقة، فلا يدعه يفرّ من بين يديه، فمادام هناك دماغ، فإنّ هناك تفكيراً، ومادامت دودة التفكير تنقب في هذا الدماغ، فإن سلسلة الفكريات تكرّر، حلقة بعد حلقة، كما في مشهد عبر كتاب، يأخذنا إليه، أو كما في فيلم سينمائي، يسلبنا، في الوعي واللاوعي معاً، القدرة على الانفكاك من أجواه، فتحن نتابعه بانخطااف إلى أن نصير فيه أو يصير فيما، وتبقى المرأة، في الطبيعة، في الكتاب، في الفيلم، سيدة الرؤى جميـعاً.. إنـها، المرأة، ساحرة الوجود، وفي وجودنا المسحور بها، تخون عيناهاأماناتنا، فنقع في شباك، الخلاص صعب منها، والاندفاع، للوقوع في «خائنة الأعين وما تخفي الصدور» قدر، قد نأسى له، نندم عليه، إلا أن الندم والأسى لاحقان، لا سابقين، فغلالة الجسم المتخيـل، في الاختراق الذي ننجرـ إليه، تصبح لاغلةـ، وفي الوهم، كما في اليقين، يتمرأـي الجسم العاري مغريـاً، لا طاقة لنا على مقاومة إغرائه.. إنـه الشبق، ويزداد، في الشرق، بفعل الحرمان، وفي ازدياده المحروم بجرفنا كالسـيل الآتي.

هل كان الأـرشـ، في حرمان الغـابةـ، مجرـوفـاً مع هـذا

السيل؟ وهل المرأة، في رؤى الطبيعة، تتماهي والطبيعة في خيالنا؟ وإذا كنّا في الأحياء، ماذا في وسعنا لاجتناب هذا الخيال؟ وإذا الكبت كان، وإذا الكبت طال، فإن المكبوت يتقمّ من كابته، اليوم، غداً، بعده، إلى أن يتم التفليس عنه، وبشكل غير صحي أحياناً، وفي هذا الشرق خصوصاً.

دغمش الصياد، بسبب هذا الكبت، انطلق في الغابة شبه مجنون. الحكيم بشير، بسبب الكبت أيضاً، ترذلت حكمته في ماء النبع. رئيفة، في حبها المكبوت للأرقش، تضاعف حبها له. الأرقش، في حبه لفدوى، كان يفكّر، من بين ما يفكّر، بهجر. الغابة التي هو فيها، عائداً إلى غابته الأصلية التي جاء منها، لأنّه هناك يكون ذاته، يكون في أرضه، بين الصياديّين الذين من أمثاله، يبحثون عن الذئب الأسود، يترصدونه والإصبع على الزناد، ولا بدّ، لا بدّ كما يقول القناص دغمش، أن يُقنص هذا الذئب، فالإنسان صيد القنص، وإذا كان، قبل ما يَزعمُ من توبّة عن قنص البشر، قد قنص بشرًا كثيرين، فإنّ من السهل عليه، أو على الصياديّين أمثاله، أن يقنصوا الحيوانات المفترسة كالذئاب السود، التي ليس لها عقول للتفكير، وهي، لذلك، ترمي نفسها إلى التهلّكة، دون أن تعي أنّ هناك تهلّكة.. لكنّه، المسكين، قبل أن يُقنص ذئباً، قنصته «ذئبة»، قنصته امرأة، قنصته رئيفة، فردّ على هزء الهازيّين منه، الشامتين به: «المرأة، يا زملائي، أخطر من الذئبة، ففي حسنها درع زرّد لا يخترق رصاص، وعيناها اللتان ترzan نوراً، ترzan ناراً، وهذه هي النار الحارقة، التي تكوي، والكّي، في الوجع،

أشدّ إيلاماً من الرصاصة، وهناك، كما تعلمون، طلقة الرحمة، القاضية على مَنْ تُطلق عليه في ثانية، وبعد الثانية نوم أبدى مرتع، بينما طلقة العين لا تقتل ولا تريح، تُبقي من يُصاب بها متارجحاً في الهواء الطلق، وما الهواء الطلق، في هذه الحال، إِلَّا مركب إيليس، يحسب البحار الذي فيه، أنه على وشك الوصول إلى بَرَّ السلام، فتأتي، في الريح الشروق، موجة مصطحبة تعيده إلى حيث كان، ومن حيث كان، يحاول من جديد، ومن جديد تصدّه الموجة إليها، تعثّث به ويقاربه، ويعثّ بها وباصطبابها، في لعنة تدوم طويلاً طويلاً!».

الصياد أكرم كان حاضراً، شاهداً على ما قاله دغمش، ضاحكاً مع الضاحكين على بلائه، حاسباً مع الحاسبين إنّ ما يقوله هذّر من الهذر، غير أنّ الصياد بشير قال بجدّ:

ـ ولكن هذه فلسفة، في الحبّ وعداب الحبّ، يا دغمش.. لابدّ أنك قرأتها فحفظتها، وجئت الآن تسمعن ما فيها من طرافة، ومن صواب يجعل الطرافة أعمق من طرافة.. هل تدرّي أنك، في هذا الذي قلته، كنت حكيمًا أكثر من حكماء الحبّ أنفسهم؟ صدق مَنْ قال «اسأل مجربيًا ولا تسأل حكيمًا»، ولكنك، يا زميلى، لا تتّعظ بتجربة ولا حكمة، إِلَّا لتركت رئفة شأنها..

هتف دغمش:

ـ أتركها شأنها! كيف بالله عليك؟ ثمّ لا تنس، ولا ينس الحاضرون، إِنّي ابن مدارس، ومصيبة إِنّي ابن مدارس، لأنّ رئفة، في صدّها عنّي، أطارت من رأسي كلّ

ما تعلّمته في المدارس والكتب التي في المدارس.. لقد تخلّيت، فهل من دواء لديك للخجل؟

أجاب الحكيم:

ـ تذَكّرْ قضيّتكْ تسلُّ حبكْ!

ـ هذه سمعناها.

ـ ابتعد تنس!

ـ وهذه سمعناها أيضًا.

ـ فتَكَرْ بقنصِ الذئبِ بأكثَرِ مَا تفَكَرْ بقنصِ الذئبةِ.

ـ وهذه سمعناها أيضًا وأيضًا.

ـ فارقْ، ففي الفراقِ السلوانِ!

قال دغمش:

ـ هذه ليست من الحكمة يا حكيم.. أنت، بما تقول، تدعوني إلى ترك الغابة والعودة إلى قنص البشر، وأنا قلت لك إن الله تاب علىي من هذه الفعلة.. قل لي ما الذي يشفيني من الحبّ.

ـ تعني الذي يشفيك من المرض!

ـ هذا هو.

ـ أين أنت الآن من الجبل؟

ـ عن أيّ جبلٍ تتحدث؟

ـ جبل الحب طبعاً.

ـ وما علاقة الحب بالجبل؟

ـ هنا مربط الفرس. اسمع يا دغمش! الحب جبل،

وعندما تكون، في حبك، في سفح الجبل، تكون البداية،
فإما أن تترك الجبل وتذهب فتنسى، أو تصعد الجبل فتُوغلُ
في الحب..

- لقد صعدنا، يا حكيم، الجبل وانتهى الأمر. فمتى النزول عنه؟

- عندما تبلغ ذروته.

- وبعد الذروة؟

الانحدار.

وقبله؟

- الحب يصعد معك مادمت صاعداً، فإذا بلغت الذروة انحدر الحب معك، من الجانب الآخر للجبل.. هذه هي جوهرة النصيحة!

فَكَرْ دَغْمَشْ وَقَالْ:

- لدی حلّ.. أبقي على النزوة.. أليس جميلاً أن أبقي
على النزوة؟

و تستطيع؟

لِمَ

ضحك الحكيم وقال:

- الشمس كرة، فإلى متى تبقى كرة الشمس في يدك،
معطلة عن الحركة؟ هل نسيت أنَّ الأفلاك في دوران دائم؟
والحب، تاليًا، في دوران دائم مثلها! إذا كان في وسعك

ثبتت الفلك، كان في وسرك ثبيت الحب، وهذا محال! أنت لا تستطيع أن تبقى على ذروة الجبل، مع كلّ ما في البقاء عليها من جمال، لأنّ من يصعد ينزل، من يرتفع ينحدر، إلّا في حال الموت. فمع الموت وحده الثبات وحده، وأنت لن تموت، لن تنتحر، لأنك، في ذاتك، تفكّر: «إذا انتحرت، إذا مُتْ، أُبقي رئيفة لمن بعدي؟» هذه أناية العاشق لا أناية الإنسان.. أنت الآن عاشق، والعشق حلو وممّ، فذق مرارة الحب إلى أن تصل إلى حلاوته.. إنما حذار من الجنون. في الماضي، كما في الحاضر، كان عشق وكان جنون.. وأنت يا دغمش على وشك الجنون.. وهذا لأنّ نداء الجسد أغلى لديك من نداء الواجب.. تذكّر نداء الواجب، اصغ له، فكّر فيه، فكّر في البؤساء، في الفقراء، في المساكين، الذين تأكل الذئاب السود رغيفهم، وفكّر، أيضاً، في القلّاع التي تطلق هذه الذئاب علينا، بعد أن تكون قد تربّت وترعرعت في كنفها، وأجبني: إلى متى تبقى هذه القلّاع؟ وإلى متى تبقى ذئابها؟ وإلام السكوت عليها؟ المرأة حساسة جداً، ذكية جداً، مجرية جداً، ومن تجاربها تعلّمت أن تفضل من يأتيها برأس ذئب، على من يأتيها برأس خروف.. هيّا.. وإلى اللقاء!

أكرم الصياد، المندهش من استغراق الأرقش في التفكير، حسب أنّ الأرقش مثل دغمش، يفكّر برئيفة التي سلبته قدرته على التحكّم بنزوله، متّجاهلاً أنّ الحب ليس نزوة، ولن يكون، وأنه حقّ من الحقّ، وأنّ الإصابة به، برغم لذتها أو مرارتها، تبقى الإصابة الأخلاقى في حياة

البشر.. الأرقش مصاب بداء الحبّ، ودواؤه في نسيان
رئيفة برئفة، فلماذا لا تأتي إليه رئفة حتى ينساها فيها؟
ينساها ليتذكّر غيرها: القلاع وذئابها السود، يتذكّر ما تفعله
هذه الذئاب في رغيف الجائعين إلى الرغيف، وعندئذ يضع
الحبّ جانباً، والواجب جانباً، فلا يخلط بينهما، ويترتب
على ضميره، بعد ذلك، إعطاء الأولوية إلى أحدهما.. لقد
تكلّم بشير الحكيم من خلال العقل، متناسياً، وهذا ما ينبغي
أن يكون، سقطته في ماء النبع من جراء العاطفة.. بدا
متوازناً، جريئاً، متفلسفاً، وفلسفته المبسطة مفهومة، تغري
بالمتابعة، بالتأمل، بالتفكير، تشير، في رؤوس سامعيه،
الأسئلة، والأسئلة لها أجوبة، فإذا لم يتوصل إليها السامع،
في مكنته أن يسأل القائل، فإذا لم يجده بما يشفى غليله،
فإن الأسئلة تبقى، والأجوبة في تطلبها تبقى، والتجربة
كافية، بعد ذلك، بأن تعطي السائل جواب سؤاله.

تنحنح أكرم الصياد، لفت إليه الأرقش، خرج من الدغل
واقترب منه ببطء، معتزماً أن يسرد على مسامعه ما قاله
الحكيم بشير، كي يلفته إلى واقعه، يواظبه من غفلته، ينبهه
إلى واجبه، يطمئنه إلى أن رئفة تحبه، ولأنّها تحبه فقد كانت
أن تودي بعقل دغمش، ولعبت بعقل الحكيم فأسقطته
في ماء النبع، لكنّها، بنت أمّها، تطلب ممن يحبّها رأس ذئب
لا رأس خروف، وعلى الأرقش، إذا كان كفؤاً لها، أن يأيتها
برأس الذئب الأسود لا برأس عصفور دوري، وعندئذ تعرف
أنّ الذي يحبّها له قلب نسر لا قلب درغل!

ألقى أكرم التحيّة وجلس على بساط إبر الصنوبر، قائلاً

للأرقش إنه كان هناك، مع الصياد بشير والآخرين، وإنه سمع كلاماً كبيراً، حلواً، لم يسمع بمثله حياته كلها، والكلام الكبير، لاستيعابه، يحتاج إلى رأس كبير، ورأسه هو، أكرم، ليس بالذكر الذي للأخرين، لذلك لا يستطيع أن يقول ما سمع، ما عدا أمرين: أن العاشق يصعد الجبل من جانب، ينحدر عنه من الجانب الآخر، وأن رئفة، كما يتصور، مستعدة أن تصعد معه الجانب الأول من الجبل، فإذا بلغا ذروته، عليهما أن يتثبتا بها، فلا ينحدران من الجانب الآخر!

ابتسم الأرقش من دون أن يتكلّم. بطبعه، يكره الكلام، يصغي أكثر مما يقول. القول الفصل، الذي به وحده معنى، قتل الذئب الأسود، مع معرفته أن قتله غير مجيد مادامت كل قلعة، في كل غابة، تطلق بدل الذئب الواحد نسلاً من الذئاب، وأن اليوم الذي يطلق فيه، على أيّاماً قلعة، لم يأت بعد، وبانتظاره يحسن به أن يتدرّب على الإطلاق، وأن يحكم التسديد، كي يقتل في كل طلقة ذئباً، وقتل الذئب ليس غاية في ذاته، إذا لم يكن هذا القتل رسالة لمن يربّي الذئاب، ولمن يطلقها على أرغفة الفقراء، ومع احترامه لحكمة الصياد بشير، في استنفار الناس لمطاردة الذئاب وقتلها، فإنه يكره الحكمة، خصوصاً تلك التي «تعوي وتتعجّع».. وكم من «حكمة» في كلّ مسألة، هذا شأنها دائمًا، تعجّج دون أن تطحن، والتعجّعة، في هذا الزمان، تنتج نفاقاً، وحيثما يدبر المرء رأسه يسمع جعجعة، ويسمع نفاقاً. فالناس، أكثر الناس، ألقوا هذا اللون الأصفر،

البائس، من الحياة، لهذا فإنهم، دون أن يدرؤا، قد تعايشوا مع حياتهم الصفراء كجلودهم.. ورئيفة هذه، التي مهرها رأس ذئب لا رأس خروف، ستتعنس قبل أن تنال مبتغاها، ولأنها حسناء، فإن كلَّ من حولها يقول في نفسه: «هذا الحسن لي»، فإذا لم يكن له، تاه مثل دغمش، أو تبلل مثل بشير، والدور، بعد، على كما يظنَّ أكرم، لكنني أنا لا آبه بحسن رئيفة، وأفضل عليها فدوى، وقدوى قد تفضل غيري علىَّ، وهذه هي المهزلة!

قال لأكرم:

- حكاية الصعود إلى الجبل، والانحدار عنه من الجانب الآخر، صحيحة جداً.. هذه هي حكاية كلَّ رجل وكلَّ امرأة في هذه الدنيا، إلاَّ من عصم ربك.

سؤال أكرم:

- وأين أنت يا الأرقش من هذا الجبل؟

- في السفح!

- ألا ت يريد الصعود؟

- جبل الحب لا يصعده الرجل وحده أو المرأة وحدها.

- ألا توجد هناك حبيبة تصعده؟

- توجد. لكنها حتى الآن لم تقرر ما إذا كانت تصعده معِي أو مع غيري..

- سُلْها!

- السؤال، قبل أوانه، تطفل على المسؤول، وهذا ما لا أريده.. الإشارة أحياناً رسالة... وقد أشرت وأشرت،

وهذا يكفي.. الرسالة بلغت، ومن تبلغه رسالة يُجب عليها، لكن التي أحبّها لم تجب، وأنا لا حدود لصبري.. ألم تريدينني أن أكون مثل غيري؟

- غيرك يحبّ رئيفة، ورئيفة، كما يُشاع في الغابة، تحبّك أنت.. المثل يقول: «عصفور في اليد ولا عشرة على الشجر!»

غرز الأرقش نظراته في عيني الأكرم، وقال بحسنه:

- أنا أريد العشرة التي على الشجر. فإذا قلت لي «هذا اعتداد!» أجيبيك: «وهل بقي لنا غير الاعتداد؟»، وما هو الاعتداد الصحيح؟ إنه المبدأ، وهل بقي لنا، كما قال أحدهم، سوى المبدأ؟! ولماذا نحن هنا؟ أليس لأنّا أصحاب مبدأ؟ نعم! الحبّ مبدأ أيضاً، غير أنّ الحبّ لا يُشحد، فإذا لم يكن لا تنفع فيه الشحادة، ومن الأفضل أن نتعذّب دونه، على أن نتعذّب فيه، قصدت أن نضيع معه الكرامة.

أضاف الأرقش:

- الماء إذا لم يجر يسكن، ومع سكونه يستنقع، يتنن يا أكرم، ولست من شاربي الماء النتن.. إقامتي، في هذه الغابة، طالت، استنقعت، وعلىّ أن أعود إلى غابتي، كما عاد فياض إلى بلد़ه.. تعرف قصة فياض؟ لا؟ أنا أقول لها لك: كان فياض، في جبل لبنان، محاصراً بالثلج، كان يبرد، إلا أنّ البرد لم يكن من الثلج بل من الغربية، ودفعه واحدة قال: «وداعاً للغرية!» عاد إلى بلدِه، إلى ترابه، وما إن بلغه حتى انحنى فقبله.. ثم أغمض عينيه على هناء

الراحة بعد تعب.. في مديتها سيعيش، وفي مديتها سيكافح، وفيها سيسقبل الدين بصدره، وأعداه بصدره، وأصدقاءه بصدره، وقد هتف كأنه يقسم: «أبداً لن أهرب بعد الآن، أبداً لن أهرب بعد الآن!». وأنا لم أكن هارباً.. الأرقش لا يهرب، وقد جاء لمطاردة الذئب الأسود، وفي غابته التي سيعود إليها، سيعود لمطاردة الذئب الأسود، «هناك، يا أكرم، حبي، وهناك كفاحي، وقد أرجع إلى هنا إذا اقتضت الضرورة، وإذا كان علينا أن نطارد الذئب السود جماعة، فالفرد وحده، مهما يكن شجاعاً، لا يحقق الانتصار للقضية التي يناضل لأجلها».

فدوى التي عاد الأرقش إلى غابته الأولى لأجلها، كانت قد غادرت هذه الغابة إلى غيرها. المصادفة لعبت دورها في هذا التفارق غير المقصود. إنّهما زميلاً، صيادان من صيادي الغابات الاثنين والعشرين. الهدف الأول لكلّ منها قتل الذئب الأسود، إلا أنّ للمرء أهدافاً أخرى، في حياته والعيش، بعضها ظاهر وبعضها مستتر، ويأتي الحبّ، لا كهدف، وإنّما كضربة قدر، وعلى هذه الضربة، ومنها، تتناسل أهداف أخرى، وليس العكس!

إنّ ديوجين اليوناني، الفيلسوف الذي يحمل فانوساً في النهار، بحثاً عن إنسان، والذي طرد الإسكندر الأكبر لأنّه حجب الشمس عنه، كان في سريرته يبحث، في الوقت نفسه، عن حبيب.. هذا ما لم يقله التاريخ، سكت عنه ظنّا منه أنّ الفيلسوف قد اختار الفلسفة حبيباً، هذا خطأ، التاريخ يخطئ، التاريخ يمكر، التاريخ يكذب، الفيلسوف رجل، وكلّ رجل يحبّ، كما كلّ أنشى تحبّ، وفي الحبّ انتصار وانكسار، ولا يستطيع، حتى المتبحر في العلم، أن يزعم أنّ الفيلسوف، كإنسان، لم يحبّ، أو أنه عازف عن الحبّ، بدليل أنّ أكثر الفلاسفة لم يشتهروا بحبّهم بل بفلسفتهم، وأنّ بعضهم لم يتزوج، ولم تكن له أسرة، وهذا

كله صحيح، ومعه يأتي الأصح: الجميع أحبوا، ما دام الجميع لهم قلب، وكل قلب يتحقق، غير أن الحفقان، في العضلة التي تحت الثدي الأيسر، قد لا يقابلها بالضرورة حفقان مماثل، في صدر هذه المرأة أو هذه المرأة، وحتى لو كان التمايل قائماً، فإن التخالف قائم أيضاً، والشهرة هي الصفة الغالبة عند المشهور، وديوجين اشتهر بفلسفته، لذلك لم يشتهر بحبه مثل مجرون ليلي، لأن الحب، عند هذا الأخير، كان هو الصفة الغالبة.

فدوى التي خرجت لصيد الذئب الأسود، أحببت بدورها، لكنها اشتهرت كصيادة أكثر مما اشتهرت كحبية، والأرقش اشتهر كصياد أكثر مما اشتهر كمحب، وهذا لا ينفي أنه أحب فدوى، وأنه رجع إلى غابته الأولى لاصطياد الذئب الأسود بحسب شعوره، ورجمع، في لاشعوره، لأجل فدوى التي كانت قد غادرت الغابة التي رجع إليها.

الأسف في هذه المفارقة لم يستعلن، ظلل في اللاشعور كامناً بقوّة عند الاثنين، وظلّ الاثنان يعيشان، في وهم الوهم، وهمّا أكبر، غير واعيين السبب الحقيقي لنقلة أحدهما إلى غابة الآخر.. ظلاً، في خُبُثِ اللاشعور، يحاولان إقناع نفسيهما أنّ سريرتهما نقيتان، وأنّ لقاء أحدهما بالآخر، أو عدمه، سيان تماماً، فالدافع كما خيّل إليهما بسيط جدًا: قتل الذئب الأسود! وما داما يجدان وراء هذا الذئب، فإن الأمر واضح جداً.

لا. ليس واضحًا بهذه البساطة.. إن الإضمار هجوع مخاتل، يتربّس في قاع الذاكرة دائماً، وكل هاجع إلى يقظة،

عاجلاً أم آجلاً، وعندما يستيقظ قد يُكتب بقوة الإرادة، يصبح محكوماً بالصبر والتصبر. وفي المقابلة، بدفع من الأنفة، قد يطول صبر المحبّ، على أمل أن ينفد صبر الآخر، المحبّ بدوره، وفي هذا لعب على العاطفة، أو على الممْوَه منها، لا يلبث أن ينكشف مهما يكن التمويه متقدّماً، وعندئذ يتفجر في اللاشعور شوق لا سبيل إلى ردعه، فيتهاوى المشوق مستسلماً لمن كان الاشتياق، في الأصل، إليه.

اتجاهان معاكسان: الاتجاه الأول يسلكه الأرقش، في طريقه إلى قلب الغابة الأولى، غابته الحقيقة كما يدعوها؛ الاتجاه الثاني تسلكه فدوى، في طريقها إلى قلب الغابة الثانية، غابة الحكيم بشير كما تسمّيها.. كلّ منهما يسير، يبتعد، يفكّر، يغزل على نول المُكْرِ أكذوبته، يزعم أنه لم يأت لأجل من يحبّ، وأنّ الحبّ لا مكان له في مهمّات التي تُنذر النفوس لتحقيقها، وكلّ منهما صُدم، حين سأله عن الذي، في المضمر، جاء لأجله، متناسياً بشكل عفوّي المهمّة وما نُذر لها من نفس.

الصيادون، في الغابة الأولى، أخبروا الأرقش أنّ الصيادة فدوى انتقلت إلى الغابة الثانية، وبشير الحكيم، في الغابة الثانية، أبلغ فدوى أنّ الصياد أرقش انتقل إلى الغابة الأولى.. إحباط! الأرقش وفدوى في حالة إحباط، لكنّهما تسترا، كما هي العادة في الشرق، على إحباطهما، دارياه بالابتسام، بالكلام على أيّ شيء، إلاّ على الحقيقة نفسها، إلاّ على الحبّ الذي يتعلّج في صدريهما، خوفاً من جهة، وتفيقه من جهة أخرى، لثلاً ينكشف أمرهما فيكون التغيير من

قبل الصيادين على فعلة هي العيب، ويزداد عيها، لأن الحب في رأي الآخرين يخل بالمهمة، وبهذا يصبح إنما مزدوجاً.

توقف الأرتش ليستريح، ليفكر على مهل، لا في العودة إلى الغابة التي جاء منها، بل لنزع قلبه وعُكس المعادة، أي وضع العقل مكان القلب والقلب مكان العقل، في عملية مجنونة، يقتل فيها نفسه، أو يقتل التي تهفو إليها هذه النفس، انتقاماً من قلبه، الخافق لشيء يعظله عن مهمته في مطاردة الذئب الأسود.. لكنه، بعد أن التقط أنفاسه من التعب، ضرب رأسه بجذع الشجرة التي يستند إليها، راغباً في تحطيمه، لاستحالة ما يفكّر به من الاستبدال الممتنع. فالقلب عضلة يمكن الإمساك بها وانتزاعها، أما العقل فإنه موجود في جوف الرأس، ولا سبيل إليه إلا بتحطيم الرأس الذي علتَه في دماغه.

تصور الأرتش الدماغ الذي يعرف شكله، يعرف تداخله تلافياً البيض، وانجدال هذه التلافيف بعضها على بعض، في حركة تعطي للدماغ أن يكون على شكل حبة «مانغا» بيضاء، لزجة، تتشوه باللمس، فلا تعود هي ذاتها بعد تشوهها، ومن غير الممكن، إذا أخرجت من الرأس، أن تُعاد إليه كما كانت، بعد تنقية علتها منها، على فرض أن هذه التنقية يستطيعها حتى الجراح الماهر!

الشجاعة والحب، هذا الثنائي المنضفر، يحيى كرة أخرى إلى الدماغ، ومع الدماغ لا حيلة في الأمر، والشجاعة إذن لا فائدة منها في الخلاص من الحب الصعب، الذي يقال إن مركزه القلب، والقلب لا يتلقى الأمر إلا من الدماغ، وللعبة

التي من البدء نشأت، تعود إلى البدء الذي نشأت منه، ومهما تتكرر فالنتيجة واحدة: الموت أو الصبر! والأرقش لا يريد أن يموت، ولا طاقة له على الصبر، الذي به ومعه يتلاشى الحب تدريجياً.. فما العمل؟

- ما العمل؟ صاح هدهد على شجرة مجاورة.

هتف هدهد آخر:

- هذا هو السؤال الأزلي الأبدي.

صاء هدهد ثالث:

- الإنسان، يا أرقش، منذ وجد وهو يسأل: ما العمل؟ وكلما سأله وجد الجواب على سؤاله دانيا، فلا تيأس.. اليأس من الخَوَر مصدره، وأنت لست ببائس، أم أنتي مخطئ؟

قال الأرقش في نفسه: «اليأس بعيد عن شرفني، وهذا الهدед لا يعرفي من الداخل، يحسبني خرعاً، وما أنا بالخروج، أنا الأرقش، وكل ما أريده هو الاستبدال: وضع العقل في موضع القلب، ووضع القلب في موضع العقل، فكيف السبيل إلى ذلك؟ أيها الهدед، يا صاحبي، كيف السبيل إلى ذلك؟ إن ما أريده، في هذا الاستبدال، هو حذف قلبي، والإبقاء على عقلي، وعندي ذلك يكون في وسعي التفرغ لمطاردة الذئب، ويصبح بإمكاني التحرر من الحب لتحقيق هدفي، وأنت تعلم أن التضاد بين العقل والقلب يعطل أحدهما الآخر، فمتى يخضع قلبي ويتسيد عقلي؟

أجاب الهدед:

– عندما تريـد ذلك حـقـاً!
– وإذا كـنت أـريـده حـقـاً؟
– تكون كـذـبـتـك بـلـقاء.. أـنت يا أـرقـشـمـحـمـومـ، أـنت
تهـذـيـ منـالـحـمـىـ، فـنـمـ قـلـيلـاًـ تـسـرـحـ.
– وإذا استـرـحتـ؟
– يـصـيرـ بـإـمـكـانـكـ أـنـ تـفـكـرـ بـهـدوـءـ، بـرـوـيـةـ، بـشـكـلـ صـحـ.
وـعـنـدـئـذـ يـنـتـفـيـ، مـنـ خـيـالـكـ، مـاـ تـزـعـمـ مـنـ تـعـارـضـ بـيـنـ الـعـقـلـ
وـالـقـلـبـ.. إـلـاـ جـنـتـ!

«درجـتـ، فـيـ هـذـهـ اللـحـظـةـ، حـمـامـةـ بـيـضـاءـ أـمـامـ الأـرقـشـ،
اقـتـرـبـتـ مـنـهـ، فـرـدـتـ جـنـاحـيـهاـ، كـأـنـهـاـ تـهـمـ بـالـطـيـرانـ، لـكـتـهـاـ لمـ
تـطـرـ، رـاحـتـ تـخـلـعـ جـنـاحـيـهاـ، تـشـرـيـتـ بـعـنـقـهاـ، تـنـفـضـ عـنـهاـ
رـيشـهاـ، تـنـتـصـبـ بـقـامـهـاـ، تـسـتـويـ وـاقـفـةـ، تـفـتـحـ ذـرـاعـيـهاـ، تـعـانـقـ
الأـرقـشـ المـنـدـهـشـ، المـمـحـمـومـ، وـبـلـطـفـ تـمـدـ زـنـدـهـاـ، توـسـدـ
رـأسـهـ زـنـدـهـاـ، وـتـقـولـ لـهـ بـحـنـانـ: «أـنـاـ فـدـوـيـ.. نـمـ ياـ حـبـبـيـ
نـمـ.. نـمـ عـلـىـ زـنـدـ حـبـبـيـتـكـ!» وـبـأـنـاملـهـاـ الرـخـصـةـ تـمـسـدـ عـيـنـيـهـ،
تـبـقـهـمـاـ فـيـنـطـيقـانـ، وـيـأـتـيـ النـوـمـ لـيـأـخـذـهـ إـلـىـ مـلـكـةـ غـرـائـبـةـ!»

قال دـغـمـشـ لـبـشـيرـ:

– أـلـيـسـ مـنـ أـمـلـ يـاـ حـكـيمـ؟

قال بـشـيرـ:

– جـبـ الـأـمـلـ طـوـيـلـ، وـلـابـدـ أـنـ يـكـونـ جـبـ الصـبـرـ كـذـلـكـ.

– وـبـعـدـ الصـبـرـ الطـوـيـلـ تـكـونـ رـئـيفـةـ لـيـ؟

– هـذـاـ مـاـ لـاـ أـعـرـفـهـ. لـكـتـنـيـ، مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ، كـنـتـ عـلـىـ
يـقـيـنـ دـائـمـ أـنـ الصـبـرـ يـزـهـرـ وـيـثـمـرـ.. أـمـاـ فـيـ مـجـالـ الحـبـ فإنـ

الأمر يختلف.. الحب، يا دغمش، لا يكون بالقوة، ولا بالجنون.. الجنون يأتي بالشفقة، وأنت، كفتاًص سابق، لا أظنك تقبل الشفقة، وأنت، كصياد في هذه الغابة، من باب أولى أن ترفض الشفقة. هذه التي لا تتلام مع الكرامة الشخصية.. ارفض شفقة الحب، ارفضها!

– ولماذا لم يرفضها الأرقوش؟

فَكَرْ الحَكِيمُ بِشِيرٍ وَقَالَ :

– لم أسمع يوماً شكوى حبّ من الأرقوش، الذي عاد إلى غابته الأولى الآن.

– رئفة تحبّ الأرقوش.

– والأرقوش يحبّ فدوى، إنما السؤال هو: فدوى تحبّ مَنْ؟

قال دغمش كمن ينقل خبراً مفرحاً:

– فدوى، يا حكيم، في هذه الغابة.. انتقلت إليها يوم انتقل الأرقوش إلى الغابة الأولى التي كانت فيها.. هل تحسب ذلك مصادفة؟

– ولمَ لا؟ المصادرات تلعب دورها في الحياة، ولكن قل لي: لماذا أنت فرح بمجيء فدوى إلى هذه الغابة؟

قال دغمش بخثث:

– أنا فرخ، نعم! ولكن لماذا، لست أدرى!

تفرس فيه الحكيم بشير، وقال:

– بلـى! انت تدري، هذا الفرح ليس مجاناً، هناك قصد، هناك غرض، فـما هو؟

نبع دغمش :

ـ ولماذا تسأل بهذه اللهجة التي أرفضها؟! هناك، في رأيك، غرض، وسواء كان أو لم يكن، فإني لا أقدم تقريراً عنه لك أو لغيرك.. هذا شأن يخصني وحدي!

رد الحكيم بهدوء:

ـ اسمع يا دغمش! نحن هنا، في هذه الغابات، لهدف وليس للتسلية.. أعرف من أين جئت، وماذا كنت تقنص، وكيف أزيدك معرفة بنفسك على أن أصارحك: أنت، حين أقسمت بأنك تبت عن قنص البشر، لم أصدقك، ولم تصدقك رئيفة أيضاً، وأنا لا أخاف الذئب كذئب، أخاف الذئب عندما يلبس ثوب الحمل، وزيادة في الإيضاح أقول لك: الذئب الذي أقصد هو الذئب الأصفر، الموجود في هذه الغابات، وليس الذئب الأسود الذي نطارده فيها.. أنت ذئب في ثوب حمل، والذئب عندما يلبس هذا الثوب، تكون له غاية هي الغدر، فإذا غدرت هناك، في المدينة، خلال الحرب الأهلية، وعشت على قنص البشر، فإنك لن تستطيع ذلك هنا في الغابة.. هل تفهم!

زرق دغمش :

ـ لا. لا أفهم، ولا أريد أن أفهم.. رئيفة التي أكاد أجّن بسببها، هي نفسها التي هزّت بك ورمتك في ماء النبع.. ولو كنت مكانك لقتلت نفسك أو قتلتها!

قال الحكيم بشير:

ـ ما قلتَه حدث بالفعل، أنا ذكر ورئيفة أنشى، ومن

ال الطبيعي أن يشتهي أحدهما الآخر، وقد أغرياني جمال رئيفه، فتنبني غنجهما، وكأيّ رجل وقعت في فخّ هذا الإغراء، ظنّاً مني أنها لا ترفضني. أكثر من ذلك، تريدني أن أحتويها بين ذراعي، وأقبلها ولو من خديها، إذا لم أقل من فمها، وكان هذا خطأً لست أنا المسؤول عنه، المسؤول عنه جمالها، لماذا هي جميلة إلى هذا الحد؟ قل أنت!

قال دغمش وقد التهب مغناه:

- إنك، يا حكيم، ترمي على عواطفني التي هي من قشرّ عود كبريت مشتعل.. أنت لا تقول هذا لنفسك، تقوله لي، تقوله لنفسي الجائعة، وماذا يفعل الجائع أمام الطعام الشهي؟ يأكل أو يموت؛ لكنني لم آكل ولم أمت، انطلقت في الغابة هائماً، مجذوناً، مسعاً إلى حد النهاية.. إلى حدّ أن أنهش، كالكلب، جسم التي حلمت بجسمها في يقظتي ومنامي، وبعد هذا كله تزجّني؟ تشلّك في توبتي عن القنص؟ تقول إيني ذئب في ثوب حَمَل؟ وأنت، ألسْت ذئبًا في ثوب حَمَل؟ أنت الحكيم فُتنْت، فكيف لا أفتّن أنا الجاهل بالنسبة إليك؟ أفكّر، أحياناً، أن آكل رئيفه وأستريح، رغم إيني لست من أكلة لحم البشر! أمّا فدوى، التي بلغني أنها تحب أرقش، فإنّي لست في وارد حبّها، مع ذلك سأذهب إليها، سأتوّدد لها، سأشبع، حينما ذهبت، أنّ لي علاقة بها.. وذلك لغاية في نفسي.

قال الحكيم بشير:

- أعرف هذه الغاية، إلا أنّه من المشكوك في نجاحها.. فدوى سترفضك، وقد تقسو عليك فتضربك، وحتى

تقتلك.. إنها، كما بلغك، تحبّ الأرقش، وقد جاءت
هاربة من هناك، لأنّها ت يريد، في هرويها، أن تجعل من
تحبّ يلحق بها، غير أنّ الأرقش لن يلحق بها، لأنّه، هو
أيضاً، يريد لها أن تلحق به.. هذا ما يسمونه لعبة القطّ
والفار، والفائز فيها الأقوى على التحمل، لا بالجسم وإنما
بالروح، وما فيها من طموح إلى الانتصار، وكيف تنتصر
تحمّل، وصاحبها الذي اختبر سراديّتها يفهم ما في هذه
الدهاليز من مكر، فإذا فهم مكر بدوره، وهكذا تصبح
المعركة بين مكر ومحرك، وأنت ت يريد أن تمكر برئيفة بتقرّبك
من فدوى، إلا أن اللعب بينهما مصيره الفشل.. عد إلى
المدينة وتزوج، اقتص امرأة ترتاح إليها، وسيكون قنصك،
هذه المرة، حلاً.

قال دغمش بتسلّيم:

- هذا مستحيل.. ما تقوله صَحَّ ولكنّه مستحيل، إما
رئيفة أو لا امرأة غيرها!

فَكَّرُ الحكيم بشير، وقال:

- تذكّر ما قالته لك رئيفة: «مهرى رأس الذئب الأسود!»

- وسأطّلها به.. هذا عهد!

- وإلى أن تأتيها به، كفّ عن مضايقتها.. أنسها يا
دغمش!

- تعرف جوابي: فلتأتِ إليّ، لأنّساها فيها.. أنا لن
أنسها، سأراها فقط.. هل الرؤية، مجرد الرؤية، حرام؟

- لا! ليست حراماً، الأفضل أن تأتي في وقتها.. كم

مرة قلت لك: الحب لا يصير بالإكراه؟
- وبالشحادة؟

- يصبح موقفك أضعف.. لو يُشحد الحب لشحده الكثيرون والكثيرات، إنما، في هذه الحال، وحتى لو شحّدت الحبيبة حبيبها ما يطلب، أو بالعكس، ينقلب ما بينهما عبودية.. تريد أن تكون عبداً؟
- أريد.

- عبد شهوتك؟

- عبد شهوتي.

- ورجولتك؟

- أضعها تحت قدمي التي أحب.

- أنت تهذى.. أنت محموم وتهذى.. لنؤجل الكلام على هذا الموضوع.

- قبل أن نصل إلى نتيجة؟

زعق به الحكيم بشير:

- وهل النتيجة في يدي؟ إنني ذاهب إلى الأرتش.

- وأنا ذاهب إلى فدوى!

الصيادون، في الغابة الأولى، عثروا على الأرتش نائماً، تجمعوا حوليه، جسّ الطبيب بينهم ذراعه، وضع راحته على جبينه، كانت حرارته مرتفعة، ومن هذianne بين النوم واليقظة أدرك الطبيب، في تشخيصه للمرض، أنه محموم.. كانت الحمى، في وجهه الضارب إلى الحمراء وعينيه

الذابلين، تصرخ: إنني هنا! لكن ما نوع هذه الحمى؟ وماذا على الطبيب ياسر أن يفعل؟ وكيف ينقذ حياة الأرقش، في غابة لا عيادة فيها ولا صيدلية؟ وماذا لو كانت حمى معدية؟ لديه، في الحقيقة الطبيعية، خافض حرارة، لديه أيضاً بعض المسكنات، وهذا يفيد في المرحلة الأولى، ولكن بعدها؟ لا بدّ من فحص الدم، وفي الغابة لا يوجد مختبر، لا يوجد سرير، لا توجد خيمة لعزله فيها، الوضع خطير، معقد.. وياسر، كطبيب، رجل علماني، يقدر قيمة الإنسان كإنسان، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي، ودونما اعتبار لمذهبه أو عقيدته، سواء كان مؤمناً أو ملحداً، ففي الدولة العلمانية تنتفي كلّ هذه الاعتبارات، وينتفي معها الإيمان إلا بالعلم، والعلم لا يجيز منطق الخرافة، رافضاً، بشكل قاطع، الرقى والتعاويذ، وحتى المداواة بالأعشاب تحتاج إلى خبرة، وهذه غير متوافرة. إذن الحلّ، كما قال للصيادين المتجمّعين حول الأرقش، في أحد اثنين: نقل المريض إلى أحد مشافي المدينة، أو توفير وسائل المعالجة هنا في الغابة، سواء اعتمد هذا الحلّ أو ذاك، فلا بدّ من توافر المال.

قال الصياد صقرش:

- وتوافر الأمان أيضًا يا طبيب.. المريض ليس أيّ مريض!

أيدته الصيادة قمطرة:

- نعم! المريض ليس أيّ مريض.. الحذر واجب.

قال الطبيب ياسر:

- المريض، رغم أنني لا أعرف قصته، صياد مثلنا،
يطارد الذئب الأسود، فهل مطاردة الذئب الأسود جرم
يعاقب عليه القانون؟

قال صقرش:

- عن أيّ قانون تتحدث يا طبيب؟.. قانون المجتمع
المدني؟ قانون الدولة العلمانية؟ قانون دولة القانون؟ تعرف
مصير الذين طالبوا بمثل هذه القوانين. منذ كم من الوقت
عدت من البلاد التي كنت تدرس فيها؟ ومنذ أيّ عام جئت
إلى هذه الغابة، وحملت السلاح لقتل الذئب الأسود؟ منذ
شهر. نحن هنا منذ سنوات، وأنت مستجدٌ بيننا، دفعتك
إنسانيتك للانضمام إلينا، أما نحن فقد دفعنا الحرمان، دفعنا
الجوع لمطاردة الذئب الذي يأكل رغيفنا.

قالت قمطرة:

- تمام يا طبيب، الذي دفعنا هو الجوع.

قال الصياد ميلاد:

- ومع الجوع، يا طبيب، الحرّية.. نحن جياع
ومقموعون.. هنا نتدبر رغيفنا، نستنشق نسيم حرّيتنا، نطارد
الذئب الأسود الذي اغتصب كسرة الخبز ونسمة الحرّية، أما
مريضنا هذا، فإنه يذهب أبعد مما نذهب، يقول إنّ مصدر
الذئاب السود هي القلاع، وأنّ علينا أن نعي حقيقتها،
ونتخذ موقفاً منها!

قال الطبيب ياسر:

- فهمت، بقدر المستطاع، سبب حذركم من نقل

الأرقش إلى المدينة، ليعالج في أحد مشفىها.. إنّه، كما يبدو، غير مرضي عليه هناك.. كلامه على القلّاع أزعج أصحاب القلّاع، وضع الإصبع على الجرح.. الأفضل أن يعالج هنا، في الغابة، ألا توجد خيمة في الغابة؟

قالت قمطرة:

- الخيام في الطرف الآخر من الغابة.
- ونقله إليها، في الحال التي هو عليها من المرض، فيه مجازفة.

صاحب الصيادون:

- لا نريد أيّ مجازفة!

أضافوا:

- نحن نبني له خيمة من أغصان الأشجار، في المكان الذي تراه مناسباً.

قالت قمطرة:

- وأنا أسهر عليه وأمرّضه.. لي خبرة في مثل هذه الأمور.

قال الطيب:

- اتفقنا.. من يذهب معه إلى المدينة؟

قال ميلاد:

- أنا.

ذهبَا معاً، لكنّهما، في الطريق، كانا على صمت غير مبرّر. ميلاد يتساءل: «هل يشفى الأرقش؟ تعود له عافيته

بعد هذه الحمى الخبيثة؟ يعود ذلك النمر الذي يهابه الجميع؟ ترجع فدوى إليه؟ بلغها خبر مرضه؟ تعرف أنها، إلى حد ما، كانت السبب في هذا المرض؟ لماذا يمرض الرجل لأجل امرأة؟ لماذا يضعف أمامها مهما يكن قوياً؟ خرجنا لقتل الذئب الأسود، وها نحن يقتل بعضنا بعضاً بغیر سلاح، عيناها كانتا سلاحاً، عيناها خانتا المودات، حواء مرّة أخرى، آدم مرّة أخرى، حواء أشجع من آدم، أغرته بالتفاحة، اللعنة على التفاحة، اللعنة على الأفعى، هي التي وسوسـت في أذن حواء. الغريب، أنـ الحكيم بشير يبارك حـواء، يبارك الأفعى، يبارك التفاحة، يقول إنـ الجنة ليست إلا معبراً للأرض، وإنـ الحبـ والكفاحـ، في الأرضـ مجالـهماـ، وإنـ بدءـ التاريخـ كانـ بدءـ الحياةـ المشتركةـ للرجلـ والمرأـ، وإنـ لاـ غـنـىـ عنـ المرأةـ، وإنـ دـيـوجـينـ، الذيـ كانـ يحملـ مصـباـحـهـ فيـ النـهـارـ بـحـثـاـ عنـ إـنـسـانـ، كانـ يـبـحـثـ، فيـ الـلـاـشـعـورـ، عنـ المـرـأـةـ -ـ إـلـاـنـسـانـ، وإنـ أـبـاـ العـلـاءـ المـعـرـيـ قدـ أـعـطـىـ فيـ الـفـلـسـفـةـ وـالـفـكـرـ ماـ أـعـطـاهـ، نـاكـرـاـ التـفـاحـ فيـ وـجـنـاتـ المـرـأـةـ، فـمـاـذاـ «ـلـوـ ذـاقـ شـمـائـلـ التـفـاحـ فيـ وـجـنـاتـهـ؟ـ»ـ أيـ آفـاقـ جـديـدةـ كـانـتـ سـتـنـفـتحـ لـهـ؟ـ وـأـيـ مـجاـهـلـ كـانـ سـيـرـتـادـ؟ـ وـلـمـاـذـاـ ذـاقـ بـشـارـ بـنـ بـرـدـ بـعـضـ شـمـائـلـ التـفـاحـ فيـ المـرـأـةـ، وـهـوـ كـفـيفـ، بـيـنـماـ تـأـبـاهـ المـعـرـيـ؟ـ بـشـارـ مـارـسـ حـيـاتـهـ، خـرـجـ مـنـ مـحبـسـ عـمـاهـ، عـرـفـ الدـنـيـاـ، لـعـبـ دورـهـ فيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ، قـالـ فـيـهاـ أـصـدـقـ مـاـ يـقـالـ، اـتـهـمـ بـالـزـنـدـقـةـ، جـلـدـ حـتـىـ المـوـتـ بـسـبـبـهـ، فـهـلـ كـانـ زـنـدـيـقاـ حـقـاـ؟ـ وـكـيـفـ يـكـوـنـ زـنـدـيـقاـ وـالـمـعـرـيـ لـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ الـفـارـقـ هـوـ الزـمـنـ، زـمـنـ بـشـارـ غـيـرـ زـمـنـ المـعـرـيـ، لـكـلـ زـمـنـ قـانـونـهـ، وـدـوـنـ أـنـ نـعـرـفـ الزـمـنـ وـقـوـانـيـنـهـ،

نخطئ في الحكم على الذين عاشوا فيه، وعمر بن الخطاب، وبعد نظره، لاحظ تغير الزمن، قال: «لا تقسروا أولادكم على عاداتكم، فقد خلقوا لزمان غير زمانكم». رأس الحكيم بشير، الذي يطارد الذئب الأسود مثلنا، يختلف عنّا، إنه رأس ينغل بالأفكار، وعندما يُشفى الأرقش، سألتحق بشير، آخذ عنه وأحاوره، فهو، كما لاحظت من معاشرته، لا يضيق بالحوار، ويقرّ حق الاختلاف فيه، ويحرّض على النبش في جذوع الشجرة لرؤيه ما فيها، إنه من أنصار تقليل كلّ شيء: الأفكار والأحجار وجذوع الأشجار.. ما رأيك يا طيب؟

قال الطيب:

-رأيي أن نتح الخطا، لأنّ حالة المريض تدعو إلى القلق، ونحن سنذهب إلى أحد المخابر أولاً، للحصول على الأنابيب المعقمة وشراء بعض الأدوية، ثمّ نعود إلى الغابة بسرعة، وغداً صباحاً نسحب الدم اللازم على الرّيق، فتحمله إلى المخبر، وتبقى في المدينة حتى تتسلّم نتائج الفحص، وترجع بها إلينا ولو في الليل، دون أن تذكر اسم المريض أو مكان وجوده، ومن جهتي ساحتاط فأضع في ورقة الفحص اسمًا آخر، ول يكن صقرش مثلاً.. لا تخف، فكّرت بكلّ شيء، وستسير الأمور على ما يرام، إلا إذا كانت هناك إصابة بالحمى المالطية، التي تستغرق معالجتها مدة غير قصيرة.

سأل ميلاد:

- ألا يمكن تشخيص الحمى المالطية من علامات تظهر على المريض؟

- لا يمكن! ففحص الدم ضروري جداً، فالعلاج يتوقف عليه.

- وهل هناك خطر على حياة المريض؟ أعني هل الحمى المالطية قاتلة؟

- الحمى، يا ميلاد، أنواع، وبعضها قاتل إذا لم يعالج سرعة.. الموقف دقيق، والسرعة ضرورية.

- لدى رأي في موضوع المعالجة.. علينا، مع الدواء، أن نحضر فدوى لتمريضه.

- ومن فدوى هذه؟ ممرضة؟

- حبيبة!

- وما علاقة الحب بالمرض؟

- علاقة، بحسب رأيي، مهمة.. الأرقش يحب فدوى، وقد أصيب بالحمى بسببها، وهو عاد إلى هذه الغابة لأجلها، وكانت هي قد انتقلت إلى الغابة التي كان فيها، فشكّل ذلك صدمة له.

قال الطبيب ياسر:

- الصدمة تولّد، في هذه الحال، مرضًا نفسياً لا جسدياً.. ولسنا الآن في وارد السبب بل النتيجة.

- معرفة النتيجة تتوقف على معرفة السبب.

زعق الطبيب:

- هل توصلت إلى النتيجة قبل ظهور التحاليل؟ هناك علاقة ما، لكنها ليست كما تظنّ.

رَدَ مِيلَادُ:

— هذه العلاقة الافتراضية، حتى لو كانت جزئية، لها دور في الرجّة التي أصابت الأرقش. أنا لا أفهم في الحميات، لست طبيباً، لكنّ الأرقش والحكيم بشير هما كلّ شيء في هذه الغابات، وهذا هو سبب ما أنا فيه من خوف على الاثنين.

قال الطيب:

— اسمع يا ميلاد! بعد خروجنا من الغابة، نمشي مسافة إلى أمام، بعد ذلك نركب سيارة أجرة مهما يكن نوعها، وفي عودتك تفعل ما نفعله في ذهابنا.. تقول إنّ الأرقش إنسان مهم؟

— وكذلك الحكيم بشير.

— وما سبب هذه الأهميّة؟

— الحكيم بشير عقل الحملة على الذئاب السود، والأرقش يده الضاربة.

— كنت تفكّر بهما خلال صمتك الطويل هذا؟

— فكرت بأشياء كثيرة.. ما رأيك بالتفاحة؟

— بالنسبة للمربيض؟

— بالنسبة للأفعى!

توقف الطيب ياسر، وقال:

— دعني أضع كفي على جبينك، لأنّا تأكد من أنك غير محموم، وأنّ العدو لم تنتقل إليك.

ابتسم ميلاد، وقال:

ـ اطمئن يا طبيب! أنا بخير.. كنت أفكّر، طول هذا الوقت، بما سمعته من الحكيم بشير.. تعرف ديوجين؟ نعم؟ إذن كنت أفكّر بديوجين!

ـ وإلام وصلت في تفكيرك؟

ـ لا غنى عن المرأة، حتى بالنسبة لديوجين نفسه.. إنما حذار منها.. حذار من المرأة!

ـ هذا تناقض يشبه الهذيان.. أنت تقول إنّ الأرقش أصيب بسبب تلك المرأة.. ما اسمها؟ فدوى؟ طيب! كيف أصيب بسبيها، وكيف تقترح أن تأتي لتمريضه؟ وإذا سلّمنا بهذا وذاك، لماذا تحذر منها؟

قال ميلاد:

ـ لأنّها ذات صلة، إيجابيّة كانت أم سلبية، بالنسبة للمعري وبشار بن برد وديوجين والفتاحه والأفعى..
قاطعه الطبيب ياسر قائلاً:

ـ كفى.. كفى! أنت محموم يا ميلاد، والحمى، التي فيك، كامنة.. يجب أن تحلّ أنت أيضاً!

كان تعليق فدوى على مرض الأرقش موجزاً:

- هذا أول ذئب أصهب أصطاده!

تأملها نافع الداري، خريج الآداب والحقوق، الصياد الماهر، من مدرسة الأرقش الغابية، الحامل مثله فكرة الإطلاق على القلاع أولاً، باعتبارها منشأ الذئب السود، وقد قال، بعد أن تمدد على الأديم الشوكى لإبر الصنوبر:

- لن تبلغى أن تكوني جورج صاند أخرى.

قالت فدوى بكبرباء، وهي تنتصب شامخة بقامتها الفارعة:

- وأنت لن تبلغ أن تكون دون جوان العصر، أو حتى ردولف فالتيينو!

قال نافع بلا مبالاة:

- أنا لن أكون الاثنين، ولا أستطيع أن أكون، كما لا أريد أن أكون، إبني نافع الداري فقط، صياد الذئاب السود، ومن أجل ذلك أحمل السلاح في هذه الغابة، بعد أن طوفت في الغابات الاثنين والعشرين لهذا الوطن العربي، المنكوب بقلالعه ومن فيها من أسياد، ومن كلاب وثعالب وقطط، ورأيت.. خلال تطاويف الطويل، الكثيرات

من أمثالك، اللوالي جن إلى بعض الغابات، أو ربما كلّها، لسبب بسيط: هو أنَّ التواجد فيها على الموضة؛ وحمل السلاح، مثل شرب نراكيل المعسل، على الموضة أيضًا.. هل تعرفين الصيادة قُمطْرَة؟

سألت فدوى بلاكترايث يخفي بعض حنق داخلي:

- ومن هي قُمطْرَة هذه؟

- صيادة غجرية حقيقة، شجاعة، مقدام، حملت السلاح للقتل لا للغواية، جاءت الغابات لغرض شريف، كشريك مساوٍ لنا فيه، وربما أكثر، ولم تحد عنه.. وأحسب أنها لن تحيد عنه مهما تكن الصعاب، إنها شكيبة أخرى، لا جورج صاند أخرى، مع احترامي الشديد لشكيبة، التي حولت زكريا المرستلي من وحش إلى إنسان، واحترامي الأشد لجورج صاند التي، رغم نزواتها، كانت إلى جانب الحق، جانب القراء، جانب المستضعفين، في أكثر كتاباتها..

قاطعته فدوى، وهي ترفع شعرها الكستنائي المبعثر على كتفيها:

- وأنت، أيها الفيلسوف المستلقى على قفاه، كتنابلة السلطان، ماذا فعلت حتى الآن، أو ماذا ستفعل بعد الآن، كي تثبت أنك مثل الصياد صقرش، الذي حمل السلاح للمطاردة لا للنوم، أو للاضطجاع تحت شجرة التقاح مثل آدم، بانتظار أن تسقط الثمرة في فمه؟! إنني أصرخ في وجهك، كما صرخت حواء في وجه آدم، انهض!

أضافت فدوى باهتياج:

- نعم! أنا التي اصطدت الأرقوش، وأنا التي أغويته، وهذا من حقي، وقد فعلت ذلك بسهولة ويسر، دون تعب، وأنا من أثرت غلنته بسهولة ويسر أيضاً، ثم لزحت له بالطعم في صنارة الأنثى، فعلق هذا الفrex البوري بها وياحكام، من دون أن يفطن إلى الطعم، ومن دون أن يتمكن حتى من ابتلاعه، لأنه ذكر، لأنّه سمكة في بحر، وتجهل أنها في بحر.. أنت، جميعاً، هذه السمكة، وأنتم، جميعاً، من تستعبدكم شهوتكم فتُعمى عيونكم، أنت أرنب، مفتتحة عيونكم ولا ترى. وهذا الأرنب، الذي اسمه الأرقوش، أقلّ من أرنب، التقى به في طريقي فلم أطلق عليه، لقلة شأنه بالنسبة إليّ، لكنه لم يرعي، تابعني، لاحقني، استعطفنـي، تصرّع إليّ، وللخلاص منه أطلقـت عليه رصاصة الهرء، غير مدركة أنّ الهرء به، هو أدنـد من طلقة الرحمة عليه.. وماذا كانت النتيجة؟ الصدمة! صدم صاحبـك فأصبـبـ بالحـمىـ، وهو الآن محمومـ، ضعيفـ، شـلوـ، يـهـذـيـ، وسيـظـلـ يـهـذـيـ حتـىـ يـمـوتـ، وعـندـئـذـ سـأـذـهـبـ وأـرـقـصـ عـلـىـ قـبـرـهـ حـيـثـماـ كـانـ.. وـأـنـاـ!ـ مـنـ آـنـاـ؟ـ اـمـرـأـ جـمـيـلـةـ.ـ انـظـرـ إـلـيـ!ـ أـلـسـتـ جـمـيـلـةـ؟ـ وـأـنـتـ،ـ مـنـ آـنـتـ؟ـ رـجـلـ قـبـيـحـ!ـ وـكـيـفـ يـتـآـلـفـ الـجـمـالـ وـالـقـبـعـ؟ـ وـلـمـاـذـاـ تـلـاحـقـنـيـ بـدـورـكـ،ـ دـوـنـ أـنـ تـتـعـظـ،ـ يـاـ مـغـفـلـ،ـ بـمـصـيرـ صـاحـبـكـ؟ـ أـنـتـ الآـخـرـ أـرـنـبـ،ـ الـعـيـنـانـ مـفـتـحـتـانـ وـلـاـ تـرـيـانـ..ـ لـاـ تـخـفـ،ـ لـنـ أـطـلـقـ عـلـيـكـ،ـ لـاـ أـطـلـقـ عـلـيـ أـرـنـبـ،ـ وـلـاـ أـتـمـلـقـ بـحـسـنـيـ مـثـلـ دـلـيـلـةـ.ـ أـنـتـ لـسـتـ شـمـشـوـنـ وـأـنـاـ لـسـتـ دـلـيـلـةـ..ـ هـذـهـ غـادـرـةـ،ـ وـالـغـدـرـ عـيـبـ لـاـ أـقـارـبـهـ،ـ آـتـيـ الرـجـلـ مـنـ أـمـامـ،ـ فـيـ وـجـهـهـ،ـ أـغـرـزـ نـظـرـاتـيـ فـيـ نـظـرـاتـهـ،ـ وـعـيـنـايـ تـكـفـلـانـ بـالـإـجـهاـزـ عـلـيـهـ..ـ مـاـ لـكـ؟ـ

هل أنت محموم «يا صريح الغواني!؟»

قال نافع الداري، بعد أن استوى جالساً، كلمة واحدة:

ـ هذا كذب!

أضاف دون أن يرفع رأسه المطرق:

ـ أنت كاذبة يا فدوى.

ثم نهض واقفاً دون أن يتلقط بحرف، نفض يديه من تراب الأديم، اتكأ على شجرة صنوبر، راح ينزع لحاءها، أخرج بعض الصمع، تنسق شذاه، جمع القشور، كومها على الأرض، احتطب الأغصان اليابسة، صنع بيدها صغيراً منها، أخرج سكيناً، ملخ شظية من المرخ، أشعلاها بهدوء، دفع بها في باطن الحطب، علا اللهب، اتقدت النار، جاء ببعض الجذوع، أضافها إليها، تجمّرت العجذوع، أخرج من حقيبته بطة بريّة، نقّاها من وبر الرّيش، شكّها بعود أخضر، أنضجها على مهل، فرش منديلاً، قطع الخبز.. وقال:

ـ هل تنفضل الملكة بلقيس بمشاركة سليمان الحكيم
طعامه؟

نبّرت فدوى:

ـ أنا لست الملكة بلقيس!

قال ببرود أعصاب:

ـ ولا أنا سليمان الحكيم.

ـ لماذا الهزء إذن؟

ـ لا تخلطني التكريم بالهزء.

- قلت عنّي إتنى كاذبة!

- تعرفي أنّ ذلك حقيقة.

رفعت بندقيتها مصوّبة إليه، وقالت:

- أنا كاذبة؟

- أنت كذوب! والفرق بين الكاذبة والكذوب كبير وواضح، وزيادة في الإيضاح أشرح لك هذا الفرق: الكاذبة هي التي تكذب مرّة واحدة، والكذوب من يكون الكذب طبعاً في نفسها.. هيا! أطلقني علىّ، صوبي إلى الجانب الأيسر، إلى القلب مباشرة، وعندئذ لا تحتاجين إلى طلقة الرحمة!

قال ذلك ووقف قبالتها تماماً، كشف صدره، مزق الفانيلة التي تحت القميص، أشار إلى موضع القلب وقال:

- سدّدي إلى هنا، وبأحكام.

انتظر، لم تطلق، انتظر، لم تطلق، تقدّم نحوها بهدوء، ظلّ يتقدّم، يتقدّم، إلى أن حاذها، لاصقها، أمسك ببنديقتها وقال:

- ألا تستحقّ، أنا الأرنب، طلقة من هذه البنديقة الجميلة مثلك؟

صاحت:

- أنت وغد!

ردّ وهو ينظر في عينيها نظرة شماتة:

- إنّما أنا مثل صاحبي.

- صاحبک وغد أكثر منك!

- في هذا أنتِ على حق.. قلت لكِ إنّي من مدرسته.

- صاحب القدر ليس له مدرسة!

– بلى! له مدرسة، وأنت منها.. أنت تحبّينه يا فدوى، يا صيادتي العزيزة، تحبّينه حتى النخاع، أو حتى مفرق هذا الشعر الذي يؤطر وجهك كهالة.. ولكن السؤال يبقى: هل يحبك هو؟ طبعاً أنت أدرى، أنت تعرفين الأرقش أكثر مما أعرفه، وقد علمتِ، من الصيادين، أنه عائد إلى غابته، فماذا فعلتِ؟ سللتِ إلى هذه الغابة هرباً منه، الأصح هرباً من حبك له، وهذا باطل الأباطيل كما قال الجامعية، لا مهرب من الحبّ يا زميلتي، الحبّ، عندما يكون مركزه الدماغ، فأين تهربين من دماغك؟ تعرفين لماذا يركض المجنون؟ أنا أقول لك: كي يهرب من دماغه، دون أن يدرك أنَّ دماغه يركض نحوه، ولا مهرب منه.. ثم لماذا نهرب من الحبّ؟ الحبّ لذيد وبارك، والذي قال: «داوني بالتي كانت هي الداء» كان يعبر شعراً عن دائنه، وكان يفهم بعمق أنَّ الدواء بالداء نفسه، وهذا ينطبق على الحبّ، ولا دواء للحبِّ إلا بالحبِّ نفسه.. تعالى نأكل، تعالى.. تبكين؟ ولماذا البكاء؟ ما نفعه؟ الأرقش سيشفى من الحمى، وسيكون لك كما أنت له، والمستقبل مفتوح على الأفق دائمًا، فخذار من اليأس، «رجاء المؤمن لا يخيب إلى الأبد». إنه، مع السعي، يتحقق، وحبك سيتحقق.. صدقيني!

زعقت فدوی من بین دموعها:

- أنت، يا نافع، أبله! أنت لا تفهم المرأة، أنا لا أبكي
لأجل الأرقش.. أنا...

ارتمنت فدوى على صدر نافع وهي تبكي، وبقبضتيها
راحٌ تدقّ على صدره، تدقّ بقوّة، تنسج أعلى فأعلى،
تحتضنه وتصرخ:

- أنا أحبك.. أنت، أنت، أنت!

- والأرقش؟ ألا تحبّين الأرقش؟

رفعت رأسها، نظرت في عينيه، التقت العيون الأربع،
رأى نافع طيفاً من الاحمرار في عينيها، خاف عينيها، خاف
وجهها، كان مهستراً وجهها، كانت شفتاها ترتجفان، كانتا
شاحبتين ترتجفان، كان لهب الشهوة الحمراء يرتسם عليهما،
يتقد في البياض منهما، يلتمع في المؤيدين الفاجرين، في الفم
الفاخر، المتنزّي في الوجنتين الشبقتين الضارعتين، في الجبين
المحموم ولا حمى، في الشعر المبعثر المغربي بتهتكه، في
الأنفاس الحارة اللاهثة في الجسم اللدن، الساخن، في
الحوض الذي راح يتتصق بالحوض، يضغط، يضغط، يعنف
في ضغطه، يعنف أكثر، في الوجه الذي بين كفّي نافع،
يحاول جاهداً أن يقترب، أن يصل، أن يتفلّت، أن يهجم،
في الأسنان البيض، في النابين الرهيفين، المتشوّقين للعرض
وللنّهش، في اليد الممسورة وهي تفك أزرار القميص
المستعصية من اضطراب، في النهددين المكؤزين، تفك
منهداً هما فيشرّبان نافرين، في الشجو الأبح للهدد المستثار
وهو يصيغ من على الشجرة:

زَوَّدِينَا مِنْ حَسْنِ وَجْهِكَ مَا دَامَ فَحْسُنَ الْوِجْهَ حَالٌ تَحُولُ

فيجيبيه هدهد آخر أشدّ استثارة:

وصلينا نصلك في هذه الدنيا، فإنّ المقام فيها قليل!
ويصلُّ نافع في ذكورته فدوى في أنوثتها، يفترشان
الثرى، يفترعن عاربين، يغيبان في حمأة الخن، يشعبان
النفسين الجائعتين، يغمغان «يحرقان في جحيم من
القبل». يشتَّد الظلماء كلّما اشتَّتَت الغمغمة، كلّما عنف
التقبيل، كلّما ازدادت العسيلة في الصُّلب دوراناً، كلّما
اقتربا من لحظة الإراقة، كلّما شعوا أنّ الأرض تدور
والفضاء يدور، والسفر إلى الغيبة يوشك أن يكون، أن
يكون، إلى أنّ كان، وكان.. وأفاقا من سكرة التفاح، على
عريهما الذي لا تستره حتى ورقة التوت، أفاقا مذهولين
نادمين، والأفعى تدلّت كحبل مبرقش بين غصين، حين
رجع آدم إلى آدم، رجعت حواء إلى حواء، عادت الخطيئة،
التي لاختطئ، تحزّ كشفرة صدئة في نياط القليين، اتبها من
غفلة اللذة إلى يقظة الخيانة، تبخر الخيال المدمن من شبّق،
تجسد الواقع المرير من أسف، صاح هدهد فوقهما على
غضن الصنوبرة:

أفسدت بيتنا الأمانات عيناها، وخانت قلوبهن العقول
فأجابه هدهد آخر:

وإذا خامر الهوى قلب صبْ فعليه لكلّ عين دليل
تلقت نافع، تلفّت فدوى، نظراً إلى عريهما، إلى
بؤسهما، استعادا ما كان، ما صار، ما حدث، ما اقترف..
وراح نافع، بخزي موجع، يستر جسمه، يتذكّر ما سمع من
الهدّهدين، ما خان من الأمانات، فأطرق يبكي، وقهقهت

فدوى جذلى، والنار في الحطب ترمت، والبطة البرية احترقـت، والدنيا غامت، غامت، هطل المطر في غير أوانه، فتبلاً، وحارة فيما يقولان، يفعلان، يأكلان، بعد أن تلف الخبز، ونفذت المؤونة، لكن فدوى، الضاحكة من دمع نافع وعليه، كانت المبادرة إلى الكلام، فقالت:

– أنت، يا نافع، لم تُضع ملئكًا مثل عبد الله الصغير، حتى تبكي عليه مثل النساء!

– . . .

– والماء الذي انسفح لا يُلم!

– . . .

– والدمع لا يحتاجه لغسل ما كان، فقد تكفل المطر بذلك.

– . . .

– والنار التي انطفأت ستشتعل بعد قليل!

– . . .

– والفضاء الذي دار بنا سيتوقف عن الدوران.

– . . .

– والاغتسال سيمحو كل أثر.

– . . .

– والنکاح، في الغابة، محلل من الغابة.

– . . .

– والذي فعلته أنت بغير إرادة، فعلته أنا برارادة.

– . . .

- والكلام، على الحب بيتنا، كان استدراجاً.

...

- أنا أحب الأرقش أكثر مما تحبه أنت.

...

- وأنا لم أهرب من الحب إلى الحب... هذا وهم! أنا
انتقمت من الأرقش بصديق الأرقش..

...

- تقول كلّنا من مدرسة واحدة، وكلّنا نخون هذه
المدرسة الواحدة، فكفت عن سماحة الكلام على المدارس.

...

- تعرف لماذا أضحك أنا، وت بكى أنت؟ هذا لأنك
جبان!

صاحب نافع الداري:

- لا! لست جباناً، أنا خائن، خائن، خائن! وأنت
جليلة التي لعنها الزير سالم!
قالت فدوى:

- زمن جليلة والزير سالم غير زمننا.. وزمن قيس
وحببيته غير زمننا.. أنت أبله إذا كنت تظن أنّ قيس لم
يجمع بليلي.. وأنت أكثر بلاهة إذا صدقت أسطورة
شمثون ودليلة.. هذه الأسطورة فبركها الرجل لإدانة
المرأة.. الرجل، منذ عهد الأمومة، وهو يضطهد المرأة،
ولأنه اضطهدتها فقد ألجأها إلى الحيلة للدفاع عن نفسها..
لقد ندمت، للحظة، على خيانة الأرقش، وبعدها عاد إلى

الوعي، تعرف ماذا قال لي وعيي؟ قال: «الأرقش، لو كان في مثل وضعك، لخانك وهو يقتل شاربيه كعترة!» فلماذا، بحق الله، يحقّ لعترة ما لا يحقّ لعلة؟

قال نافع:

– المسألة ليست هنا.. المسألة كما جرى الكلام عليها آنفًا: الأرقش يحبّ فدوى، وفدوى تحبّ من؟

قالت فدوى:

– هذه سفسطة يا نافع، وبعبارة أخرى: حذقة كلامية! فدوى تحبّ الأرقش، وتريد أن تنتقم من الأرقش، وقد انتقمت.. أنت تسمّي هذا خيانة، وأنا أسمّيه: «وفاء الروح وخيانة الجسد» مadam ليس هناك زواج بعد، زواج؟ نعم زواج، لأنّا من بلاد مجتمعها ذكوري، وفي المجتمع الذكوري الشرع وحده يحمي حقوق المرأة، لذلك تتمسّك المرأة بالزواج، كي يحمي الشرع حقوقها، وهذا لا بدّ منه، هذا ضروري، لكنَّ الزوج يخون، ولا أحد يحاسبه على خيانته، الحساب على الخيانة يقع على الزوجة وحدها، ومن هنا تعاستها، لكنَّ المجتمع الذكوري يجحد هذه التعasse، يراها غير مبررة، وأنا التي درست في الغرب، وعشّت فيه سنوات طوالاً، أرى تعasse المرأة مبررة، ومعبرة، وأسمع صراخها، صباح مساء، في وجه الرجل: «اعطني حرّيّتي، أطلق يديّ» لماذا ذلك كذلك؟ لأنَّ المرأة في هذا الشرق تحرّرت، ولو نسبياً، بالعلم والعمل، وهي تفكّر الآن على هذا النحو: «ما احتفاظي بعهود لم تصنّها والدنيا لدّي»؟ ضع خطّ تشديد تحت عبارة «عهود لم

تصنها» تدرك فحوى صيانة العهد من قبل المرأة، واستباحة الرجل لهذا العهد، وما فيه من ظلم شنيع للمرأة حتى لو كانت زوجة.. فـ«كـرـقـرـقـلـلـاـ»، تجد أنـكـ مـارـسـتـ حـقـاـ وـلـمـ تـرـتـكـ خـيـانـةـ، وـأـنـ الدـمـعـ الذـيـ ذـرـفـهـ كـانـ مـجـاـنـاـ.. إـنـيـ أـعـزـ الأـرـقـشـ، وـلـاـ يـنـقـصـ مـنـ هـذـهـ المـعـزـةـ أـنـيـ نـمـتـ مـعـ غـيرـهـ، لـأـنـهـ هـوـ لـوـ كـانـ مـكـانـيـ لـنـامـ مـعـ غـيرـيـ، وـلـمـ تـنـقـصـ مـعـزـتـهـ لـيـ.. هـذـاـ غـيـرـ مـأـلـوـفـ عـنـدـنـاـ، وـنـحـنـ جـمـيـعـاـ عـبـيـدـ هـذـاـ الـلـامـأـلـوـفـ، فـإـلـىـ مـتـىـ؟

قال نافع :

- إلى أن يصبح خرق هذا اللامألوف مألوفاً.

قالت فدوى :

- متى؟ ومن يخرق هذا اللامألوف؟ الرجل أم المرأة؟

- لا أدرى!

- أصدقك.. أنت، كرجل، لا تدرى، أما أنا، كامرأة، أدرى.. أنت جبان وأنا شجاعة، ومع شجاعة المرأة يكون التقدّم الاجتماعي.. ماذا قالوا عن أول امرأة خرجت سافرة؟ وماذا قالوا عنها وهي تمشي إلى جانب الرجل وليس وراءه؟ ثم ماذا قالوا عنها وهي تدخل المطعم معه، وهي تشرب مثله، وهي ترقص معه أيضاً؟ قالوا: عاهرة! ومع الأيام، مع خرق اللامألوف الذي اجترأث عليه، صارت طاهرة.. لقد سألك وسائلك، وتحديث وتحديث وأنت صامت، أو في أذنيك وقر، فلما نعتك بالجيان استهولت النعت، صحت:

- لا ! أنا لست جبانا ..

نعم يا سيدى، يا مولاي، يا عنترة، أنت جبان،
وجبان، وجبان ! وصيحتك لم تغير من حقيقتك شيئاً .. أنت
عبد المألف، وسأك مني أتنى اخترت مألفوك هذا،
ولولا خوفك من العقاب لقتلتني، أما أنا فلم أقتلك لأنك
لا تستحق حتى القتل، لا تستأهل حتى تلوث يدي بدمك
القذر .. أنت رجل ليس لك قضية.

- وأنت ! ما هي قضيتك ؟ خرق المألف ؟ خيانة الحب ؟
استباحة ما لا يُستباح ؟

قالت فدوى ودمها يغور :

- أنا كلُّ ما قلته، إنما لي قضية ..

أضافت ثائرة :

- وجودي في هذه الغابة، والسلاح في يدي، يؤكّدان أنَّ
لي قضية .. وقضيتي مثل قضايا كلَّ الصيادين والصيادات في
هذه الغابات : مطاردة الذئب الأسود !

قال نافع ساخراً :

- وبانتظار رؤية الذئب الأسود وقتله، تتسلّين على
هواءك !

ردَّت متقدّية :

- تماماً !

- وتوقيعين الصيادين في شراكك !

- ليس كلّهم .. من يعجبني منهم، وأنت من هؤلاء الذين
أعجبت بهم، أنت شابٌّ وأنا شابة، وأنت وسيم وأنا أكثر

منك وسامة، وأنت صديق الأرقش وقد خنته معك لأنك صديقه، لكنَّ البداء أظلم، الأرقش، وقد أصيَّب بالحمى، لم يبعث أحداً في طلبي إليه، أو لعله بعثك رسولاً إلى فختن الرسالة ولم تبلغني، بل جئت تقول لي: الصيادة قُمطْرَة هي التي تعتنِّي به، هي التي تقوم على تمرِّضه، هي التي يخونني معها.. هذه الغجرية القدرة!

قاطعها بنبرة حسم:

– أنا لم أقل هذا، ومن العار أن تكذبي، أن تقوليني ما لم أقل ..

– هذا صحيح كلَّ الصحة.. أنت لم تقل هذا، وكيف تقوله؟ كيف تشي بمن اثنمنك على سرّه؟ لكثني أنا، كأنّي، فهمت كلَّ شيء فوراً، وقررت، بعد تفكير، أن أرَّدَ الصفعَة بمثلها، أن أغويك كما أغوى قُمطْرَة.. وكان عليك، كصديق مخلص، من المدرسة نفسها بحسب تعبيرك، أن تبقى مخلصاً، أن تمتّنُّ علىَّ، أن ترْفُضَني أو تضرِّبني، لا أن تكون رخواً فتسلِّم لغوايتي.. أشعُّل لي هذه السيكارَة!

أخرج علبة الكبريت، أشعُّل لها السيكارَة، توقعتُ الأسوأ فلم يحصل، لماذا لم يحصل؟ هل هذا من اللياقة؟ هل هو من أدب السلوك، باعتباره ذكرًا واعتبارها أنثى؟ ربما نعم، ربما لا، وربما علق هذا الصقر على دبق قبّرة، وقد تكون اللذة تستجِرَ لذة أخرى، إنه يرضى، إنه يلاطف، إنه يأمل، بماذا يأمل؟ بماذا تأمل يا آدم؟ بتقاحة حواء؟ استسغت طعمها؟ بتُ أسيرها؟ نسيت كلَّ شيء إلَّاها؟ فدوى مطلقة، تزوجت ولم تنجُ، هي التي حرَّصَت علىَّ لا تنجُ، خاب

أملها في الزواج، خاب أمل زوجها بها أكثر، كان يريدها زوجة لا فلسفية، تفلسفت أكثر مما يحتمل، تصرفت مع زوجها كما تصرفت مع نافع، تكلمت وتكلمت، كان يطيب لها أن تتكلّم، اذاعت أنك تسللت إلى هذه الغابة لأنها موجودة فيها، هل هذا ادعاء محض؟ أنت، في نفسك، تراه ادعاء محضاً، إنما الحقيقة غير ذلك؟ الأفضل لا تبحث عنها، أن تنساها، أن تتمسّك بالظاهر دون الباطن، أن تبقى على قناعتك بأنك جئت لمطاردة الذئب، ففي هذا راحة، بعض راحة على الأقل، جئت تصطاد ذئباً، فاصطادتك، دون إرادتك، ذئبة، وماذا في ذلك؟ هي قالت ماذا في ذلك؟ هي هونت الأمر، فلماذا تصعبه أنت؟ الينابيع في الغابة كثيرة، اذهب واغسل في أيّ نبع، وهي تفعل مثلك، وبعدها تكون الطهارة، تتطهران من الخبرت الخارججي، وهو لا شيء، مadam الخبرت الداخلي هو كلّ شيء، وأنت بريء منه كما تقول، وكذلك هي، إلا أن يكون هناك خبيث، في سريرتك أو سريرتها، إلا أن تكون اللذة العابرة، قد أنسنكما القضية المقيمة: مطاردة الذئب السوداً

قالت فدوى :

ـ ما تفكّر فيه يا نافع، أفكّر فيه أنا، الغابة شاهدة أنّ ما جرى كان برغمينا، كان بداعي من الشيطان الذي يسكننا، ولأنّ ما جرى قد جرى، ولأنّ الإيجاب جدلي مع السلب، فإنّ علينا أن نبحث عن هذا الإيجاب، وفي رأيي أنه متوازن.

سؤال نافع :

ـ وما هو هذا الإيجاب المتوازن؟

ـ

قالت فدوى باقتناع كامل:

ـ الإيجاب في أننا تخلصنا من حاجة الجسد، فأصبحنا أقدر على تلبية حاجة الضمير، صرنا من الداخل أقوى على مطاردة الذئب الأسود وقتله، وفي هذا إرضاء كافٍ للضمير!

قال نافع شارحاً نفسه:

ـ هذا الذي تقولينه تبرير عقل مرن، العقل يبرر الأخطاء في مرونته، العقل الذي اتخذ المعرّي إماماً، ليس بالإمام المصيب دائماً. ديكارت، في شّكّه، أتاح لنا أن نشكّ في إمامية العقل، وأنا من هذا الرأي.. ماذا يعني أن نخطئ فيأتي العقل لتبرير أخطائنا؟ ما تقولينه عن راحة الضمير، بعد الخطأ الذي ارتكبناه، تبرير عقل مرن، قادر، في كلّ وقت، أن يبرر الأخطاء؛ وأنتِ، في لعبة الأنثى الإلديسية، أخرجت الإيجاب من السلب، قتلتِ السلب، أعدمته، نفيته تماماً، فلم يبق في نظرك سوى الإيجاب، ترغبين في أن تقلّده وساماً!

قالت فدوى:

ـ أنا جائعة يا نافع، والجوع كما تعلم كافر، لا يؤمن إلا بإطفاء الألم باللذة، وما هي اللذة التي تطفئ ألم الجوع؟ الأكل.. علينا، إذن، أن نجد ما نأكله، وبعد ذلك نناقش فلسفتك في مرونة العقل، والشكّ الديكارتي، وتحطّة أبي العلاء المعرّي، وراحة الضمير المنشودة.. ما رأيك؟

أطرق نافع مفكراً، وقال وهو ينهض:

ـ لدى اقتراح يا فدوى، أحسب أنه وحده الكفيل

بإصلاح غلطنا، وهذا الاقتراح ينفع كلينا.. إذا ما وافقت عليه.

تفرست فدوى في وجهه المربد قليلاً، وسألت بغير قليل من الفضول:

ـ وما هو هذا الاقتراح الذي يتجلج لسانك في نطقه؟

ـ أن نتزوج!

ـ نتزوج؟

ـ دون تأخير.

ـ صاحبك الأرتش؟ هل جنت!

ـ أنا عاقل تماماً!

ـ وأنا مجنونة تماماً.. الأرتش سيكون زوجي لا غيره، حتى لو رفضني فلن أتزوجك أنت، حتى لا نرتكب الحماقة مرّتين!

طافت المُدُن بمن فيها، وحفلت الغابات بمن جاءها مع هذا الطوفان، فتشكلَّ مع الأيام مجتمع غابيٍّ، فيه من كل لونٍ لونٌ، ومن كل فتنة زهرة، ومن كل شذى نفح لمن حرموا، في مدنهم المزدحمة كيوم الحشر، من الحدائق التي تحولت تدريجياً إلى ركام من الإسمنت.

«لا بأس، قال الحكيم بشير في نفسه، الذين هنا، في هذه الغابات، هم ضحايا المدن، الذين لفظتهم المدن، طاحتهم كما حبات الشعير بين الرحي والمستنات، وعاثت الذئاب السود في أشيائهم الناحلة، ما بين قرض وبيعة، وتهدمت بيوتهم الطينية من جراء «الأمطار»، وانطمرت بالرمال التي سفتها القلاع بغير رحمة أو شفقة.. إنهم المؤساء المعذبون، المشردون، الذين وجدوا ملاذهم هنا، فنصبوا خيامهم وأقاموا، فرحين بأجواء الحرية، مستتبثين الجنى من عباء أمهم الأرض، مستخدمين وسائل بدائية للعيش، حاملين السلاح لمطاردة الذئاب السود، ولغرض آخر، في السرائر إضماره، موجه ضد القلاع، على نحو ما يرى الأرقش، وفي رؤيته تحريض مستر يستعلن من حين إلى حين».

كان دغمش القناص عدو الصمت، يخافه، يكرهه، يراه

نافلًا، لا ضرورة له، مستغربًا أن يفکر الإنسان بغير القنصل والمرأة.. وكان الحكيم بشير ينهاه عن قنص أي حَيٍّ سوى الذئب الأسود، وعن التحرش بأية امرأة صيادة، لاجمًا نفاد صبره حيال اثنين: الذئب الذي لا يظهر له، ورئفة التي لا تحبه، ناصحًا إيه بالتروي لأنَّ الأمور مرهونة بأوقاتها.. ومع أنَّ النصيحة تكررت، والنَّهْيُ لم يتوقف، فإنَّ دغمش ضاق ذرعاً بصمت الحكيم، ويتفكيره المرتسم همَّا على محياه، فسأله وهما يسيران:

– لماذا تفکر؟

ابتسم الحكيم وقال مداعبًا:

– بك يا دغمش.

– من أيِّ ناحية؟

– من كلِّ النواحي.

– كيف، من كلِّ النواحي؟ هل وجودي في الغابة صار مشغلتك؟

– وجودك ووجود الآخرين!

أضاف الحكيم بشير بعد خطوات:

– لابدَ من التنظيم.. الغابات صارت مزدحمة بمن فيها، صرنا قبائل متفرقة، مبعثرة بين الاشجار والأدغال، ولكلَّ جماعة مطلب، ولكلَّ فريق حكاية، ولا بدَ من التفكير طويلاً بهذه المطالب والحكايات، والعمل على حلها!

قال دغمش:

– ومطلبي أنا؟

- في قنصل البشر؟ لا! هذا جزاؤه بالإعدام.. قلت لك وأكرر: قنصل الذئب الأسود هو المباح، وحده المطلوب، وقد تأخر هذا تأخّر كثيراً، وبدأ التململ في صفوف الصيادين.. العلة أنَّ هذا الذئب لا يظهر، وليس من أحد يراه، والسؤال الذي نُحار في الإجابة عليه: هل نطارد وهما أم حقيقة؟ هناك بطء، وهناك إلحاد، وهناك شك، وهناك خبث، وكلَّ مساوى المدن انتقلت، مع الأسف، إلى الغابات، فالكذب، والاغتياب، والنمية، والاحتيال، وحتى بعض الفضائح، رائق، وسبِّ هذا كلَّه العطالة.. إنَّهم عاطلون عن العمل، قصدت مطاردة الذئب، التي صارت، يوماً بعد يوم وشهرًا بعد شهر، لعبة طواحين، محاربة الطواحين الهوائية، بسيوف خشبية، مثلما فعل ذلك الإسباني دون كيشوت. أنت لا تعرفه؟ حسناً! سأروي لك قصته يوماً، وهي قصة ذات مغزى، قديمة نسبياً، إلا أنَّ دلالتها محاربة الظلم، مثلما نفعل نحن. دون كيشوت حارب الهواء، ونحن نحارب الشَّيْخَ، نعم! نحن نحارب شَبَحاً لا ذَبَباً.. الذئب يمشي حتى في شوارع المدن، ونحن لا نراه!

قاطعه دغمش:

- الذئب، يا حكيم، كثيرة في هذه الغابات، قتلنا منها، حتى الآن، عدداً كبيراً، حتى صار قتلها تسليمة، فيها بعض النفع لنا، إلا أنَّك، في وسواس خناس، كنت تَتَهَلُّوسَ بسببه، تصرَّ على أنَّ هناك ذئباً أسود، ويمضي العام بعد العام، وهذا الذئب اللعين لا أثر له.. ما اسم صاحبك الذي كان يحارب الهواء؟

- طواحين الهواء!

- طيب! يحارب طواحين الهواء، وما الفرق؟ إلى القرد بكل التسميات.. لماذا تدقق فيها؟

- لأن الدقة، هنا، ضرورة.. الهواء شيء وطواحين الهواء شيء آخر.. دون كيشوت لم يكن مجنوناً، ولو قالوا عنه، في زمانه، إنه مجنون..

- قالوا إنه مجنون؟

- زعموا أنه مجنون، مع أنه كان راجح العقل، يعرف ما يفعل.

- وكم طاحونة هواء قتل؟

- ولا واحدة!

- نعيمًا يا حكيم! صاحبك المحارب المقدام كان مجنونًا بشرفي.. ونحن مجانين مثله، وبشرفني أيضًا..
تأمله بشير الحكيم وقال:

- بأي شرف تقسم يا دغمش، الذي كان قبل التوبة أم بعدها؟

هرش دغمش رأسه، وقال:

- عيب يا حكيم! وأرجو أن تصدقني، الذي كان قبل التوبة صار في ذمة التاريخ، نحن أولاد اليوم، واليوم دغمش تاب وأناب.. ليس لي هدف سوى قتل الذئب الأسود، تعرف لماذا؟ لأقدم رأسه مهرًا لرئيسة كما وعدت.. إنني.. إسمع! لماذا تشتك في كلامي؟ ولماذا لا تهتم بقلبي؟

- أهتم بقلبك؟ إذا فتحنا هذا الباب، يكون علىي أن أهتم بقلوب عدد كبير جدًا من أمثالك، وماذا يتبقى عندئذ؟ يجرفني سيل من التفاهات، تضيع معه القضية التي أنا في هذه الغابات لأجلها.. هل أنت معتوه يا دغمش؟

رد دغمش بخبث:

- العنة يكون، حين يكون الإنسان قد تقدم في السن، ولا أريد أن أضرب مثلاً بأحد.. الجنون، يا حكيم، قائم قاعد! صاحبك ما اسمه؟ اللعنة على اسمه. صاحبك الذي حارب طواحين الهواء كان مجنوناً، ونحن الذين نحارب طواحين الذئب الأسود مجانيين.. ما أريد قوله.. ولكن لا، لن أقول، الليب، كما علمتني، من الإشارة يفهم!

أطرق الحكيم بشير خجلاً، جلس على جذع صنوبرة مهموماً، راح يتذكرة: «لقد أخطأ، جلَّ مَنْ لا يخطئ، والخطيئة لها ثمن، عليه أن يدفعه، «لا تدينوا لكي لا تدانوا» وقد أدين هو، وإدانته الكبرى، لا من ناحية العمر، بل من ناحية «الحكمة».. من الذي ألصق به تهمة الحكمة؟ من الذي، على رأي الجاحظ، كتفه تكتيفاً؟ أنت، يا حكيم، منافق لأنك تورّطت في النفاق، قبلت قوله القائل بأنك حكيم، صدقها، تسامحت معَ من روجها، روجتها بنفسك عن طريق سواك، كنت ثعلباً في داخلك، حسبت أنَّ ما في داخلك سيبقى في داخلك، نسيت أنَّ الرمح، رغم الحرص، يبرز من الشوال الذي وضع فيه، تجاهلت عاطفتك، ظننت أنك وأدتها، لم تتبه إلى أنَّ الوأد هو الوأد، سواء كان وأد عاطفة أم مولودة، غابت عنك قوله تعالى: «وإذا المؤودة

سُئلت بأي ذنب قتلت؟ تزمنتَ مع الآخرين، عبْت على دغمش أنه أحب رئيفة، وأنه في حبه قد كاد يجنّ، مع أنه معدور، لأنَّه رأها عارية في النبع، وأنت، في اندفاعك نحوها، لم تكن معدوراً، لأنَّك لم ترها عارية مثله، أنت أغواك جسدها وهي كاسية، فكيف لو رأيتها عارية؟! إِبِكِ إِبِكِ لو ينفع البكاء.. لا! لا تبكي، لا تندم، إعلم فقط أنه «بالكيل الذي تكيلون يُكال لكم»، وقد عمل دغمش بهذه القاعدة، قال عنك، ولو تلميحاً، إنَّك فاسق مثله!

«حكمة وفسق! هذه إحدى الكبائر، ولكن لماذا نسمّي الاشتياق فسقاً؟ في هذا مغالطة، فيه جورٌ على النفس، فإن نشتهي يعني أننا أحيا، وأن نكون أحيا، فلا بد من الرغبة في الحب، تكون مندفعه حيناً، متأنية حيناً آخر، إلا أنها تتظلّ رغبة إلى أن تتحقق، إلى أن يكون وصلٌ بين الحبيب والمحبوب، إنما بالرضى وليس بالقسر، وقد اشتهى الحكيم بشير أن يضم رئيفة، فسخرت منه ودفعته إلى ماء النبع، أو بتعبيره هو: «رَفَضْتُني!» وقد تبلّل كلَّه، وعندما خرج من الحوض، كان عليه أن يبدل ثيابه، ولأنَّ مكان خيمته بعيد، فلم ير حرجاً في أن يفعل كالآخرين، الذين لا بدائل لما يلبسون، فهم يوغلون في الغابة، وفي مكان محاط بالأدغال، يتعرّون وينشرون الثياب التي غسلوها، في بقعة شمس كبيرة، منتظرين حتى تجفّ، دون أن تتعكّر أمزجتهم.. ولماذا تتعكّر؟ الغابة الضليلة، العامرة بأشجار الصنوبر، يشيع منها عطر صمغيٍّ، وعلى أطرافها، قرب مسيل الينابيع، تسمق أشجار الحور خضراء الورق، منضرة

بالنسغ، موشحة بالضياء، لماعة بالبريق الخاص، المتبدّل، في رصاصيّته البهيجّة، في الأصباح والأماسي من ليالي الصيف، ولئن كانت الصنوبرة ملكة الغابة، وكانت أشجار الصنوبر ذات الأكواز جندّها المنتشر بغير نظام منضمّ، فإنّ هناك، في الأطراف، حراسة لهذه المملكة، تتشكل من أشجار السرو، السنديان، البلوط، البطم، القطبّل، العرعر، الزعور، وعلى التخوم ترعى المواشي في طمأنينة، بينما يغازل هذا الراعي تلك الراعية وبالعكس!».

الحكيم بشير كان صاحب حكمة إلا في الهوى، كان له قلب يخفق، وعين تتمرأى على شاشتها طيف الجمال، ونفس تهفو إلى اللذادة دون إفراط.. تكفيه، في الوضع الذي هو فيه، ضمة جسم لن تكون، في غير الغابة، مثلها في الغابة، ضمة تزّر الخصر بالذراعين، برفق وحنان وبذوب شوق، يسيل من المقلتين نظرات ساغبة، يُجذّب فيها الحرمان، يُعرّيد الاشتياق نداء من الفم إلى الفم، ارتعاشة شفة إلى شفة، والقدّ الميّاس، المطاوع من مرّن، من لدانة، يستسلم في حرارة الجسد إلى حرارة جسد مقابل!

فكّر الحكيم، أطرق، تململ من أسى لأنّه أقدم، تململ، من أسى أشدّ، لأنّه لم يتقدّم كفاية، نفرّت رئيفة، ابتعدت، صاحت لا تقترب، اقترب، وهل كان قادرًا، في ظمآن الرغبة إلى العناق، ألا يقترب؟ ألا يجاذف؟ ألا ينسى الحكمة العوراء، أمام العذوبة البصيرة، الخارقة؟ لا! لم يكن قادرًا، ولم يكن صاحبًا، فالراح العتيق، في صوفية التبتل، شراب صوفي، وماذا في الشراب الصوفي، الذي

تدوّقه المتصوّفة، من البوصيري إلى الخيّام؟! «ريم بين البان والعلم/أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرم». . رئيفة لم تحل دمَه، لم تسفكه، كلّ ما فعلته أنها دفعته في صدره، بكثير من اللطف، وبكثير من اللطف وجد نفسه في ماء النبع، بينما هي تقهقه هاربة إلى أعماق الغابة!

قال له دغمش:

– لو كنت مكانك لقتلتها!

زوى الحكيم ما بين حاجبيه، في نظرة نافذة، وقال:

– قتلت من يا قنّاص البشر؟

– رئيفة طبعاً!

– رئيفة، يا معتوه، هي التي كان من حقّها أن تقتلني.

– أنتي قتلت رجلاً؟

– ولماذا لا؟

لأنّها أنتي.. النساء، يا حكيم، ناقصات عقل ودين!

– وعلى فرض أنّ هذا انطبق على أنتي ما، رئيفة أو غيرها، فكيف تجيز قتل نفس حرم الله قتلها إلّا بالحقّ؟

– قتل رئيفة، هنا، كان حقّ الحقّ!

– خسئت يا دغمش، أنت تراوغ كثعلب أجرب، حقّ الحقّ كان قتلي أنا، لأنّي كنت المعتدي، ورئيفة المعتدى عليها.. لماذا تجامعني؟

– لأنّ التقبيل، فيرأيي، حلال بين الأصدقاء، وحلال أكثر بين الزملاء في هذه الغابة، إلّا إذا كنت تنويني ارتكاب

الفاحشة معها ، وعندئذ كنت سأقتلك أنا !

كانت البقعة الغابية، التي استراح إليها الحكيم بشير، مسورة بالأدغال، بعيدة نسبياً عن مرتاد أي صياد، ورغم ذلك احتاط، خلع ثيابه المبللة كلها ما عدا السروال الداخلي، نشرها في الشمس، جلس يتشمس هو أيضاً، أراح بندقتيه على مقربة منه، لا خوفاً بل تحسباً، فالغدر، في الغابة، يسيء إلى بهاء الغابة، والغدر في الغابة من طبيعة الغابة: ثمة وحوش كاسرة، من الحيوان والإنسان، وغدر الإنسان هو الأفظع، هو الأسهل والأيسر معًا. وإذا كان الحكيم بشير، في يقينه الراسخ كصنوبرة، على معرفة ألا أعداء له، وأن الصيادين والصيادات جميعاً يؤثرونها، يبدون له المودة والاحترام، فإن هذا بالذات ما يجعله هدافاً لهم، والسبب هو حكمته التي تجعله متميّزاً عنهم، وامتيازه يفرى به، فالآخرون، غير المتميزين في شيء، لا يغفرون له تميّزه، تماماً كالشريف في طغمة اللأشراء، الذين إذا تاب أحدهم بصدق عن السرقة، تحسّوا، في داخلهم، من توبته، وعليه في هذه الحال أن يرحل عنهم، أو يقتلوه لأنّه لم يعد منهم.

عزيز الجن في الصنوبر هبوبُ ريح رهوة، ينداح وسط السكينة مسافرًا بغير حقيبة، على رِيشل الأماني لكلّ مشوق، اعتاده اللاعج من الشوق فأضناه الفراق، والفارق صدأ الحب، يربى ولو كان حديداً «وداعاً عذاري الهوى» والوداع، في الاستبدال، لقاء مأمول تباركه الغابة، كما يبارك البحر شبوب اللجة، في توقيها لعناق نورس أبيض الجناحين، والحكيم الذي خرم من العناق، لم يُكسفهُ الحرمان، لم

يُخجله، لم ير فيه عيّناً، فالطالب طلبَ، والمطلوب نفر من الطالب لأنّه يطلب آخر، فاتلاً القنَب حبلاً طويلاً للأمل.. رئيفة، في دلّ الأنثى، لم تستجب للذكر، استجابتها لذكر آخر، منذورة للأرقش الهارب من الحمّى إلى الحمّى، وليس من براء، في حميّات الجسد، إلّا بالوصال، وخشية الحكيم أن تتفشّى الحميّات في الغابات، أن تصبح جائحة تعمّ العدوّي، فيمرض الناس، وتكون البلّية مضاعفة: النحول والقعود عن مطاردة الذئاب السود.

استشعر الحكيم بشير تهاویل اللّون في كلّ ما يحيط به، وابتھالات أدعية مرفوعة إلى الأعلى، سابحة في الأثير، تدعو المؤمنين إلى الصلاة، في معبد موجود، غير منظور، وجوقة ترفع، في هارمونية الصمت، نشيد إنشادها الخاصّ، على نحو ما كان رَمَن الإغريق.. وهو، في هذه البقعة حرّاً، الصيادون جميعاً أحراراً، فما أسعد أن يكون الإنسان حرّاً، في حدود الضرورة لا حدود المطلق، وما أسعده أن يكون في فيء دولة القانون، لا فيء عرفيتها، حيث القانون، بذرعة وجود العدوّ، يجعل الناس مطيّة الطغمّة، فلا القلاع قادرة، أو مبادرة، إلى محاربة هذا العدوّ، ولا الشعب المسلوب الإرادة بالمتروك كي يبادر. وفي محيط هذه اللعبة السخيفـة، المضحكة، يتسيّد الأسياد، ويستعبد العبيد، ومن رحم التسيّد الظاهر، المستند إلى القوة وحدها، تلد الذئاب السود وتناسل، وتنطلق على هواها، كي تعثّث في كلّ شيء: الحرّيات، الكرامات، أرغفة الخبز، ناحلات الأدام، بيوت الطحين، أنسجة العنكبوت الساترات للعورات،

مترحمة على أبي ذر الغفارى، متأسفة على أيام عمر بن الخطاب الذى قال: «ما اغتنى غنى إلا بفقير فقير»، متذكرة سخرية جبران خليل جبران، عبر رومانسيته الحلوة «والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا به، ويستضحك الأموات لو نظروا!» لكن الجن لا تبكي، وما خلقت لذلك، والفرد الذي يقع في المأساة، تُغَيِّب عنه موضوعة الصراع الاجتماعي، لأنَّه في جهله، لا يعرف أبا حيَان التوحيدى، تلميذ أبي سليمان المنطقى في الفلسفة، ولا ما هي الفلسفة، ولا يدرك أنه، في دوامة التغيير «ينحنى عنصر أمام القدر، ويصبح عنصر آخر قدرًا بذاته، ويختفي واحد مع التيار، بينما الثاني يصنعه».. وهكذا ننجرف، الواحد بعد الآخر، مع تيار الفقر الذى صنعه الآخر لنا، ويجهدون لإقناعنا أنَّ هذا قدرُنا، بينما هم أقدارٌ بذواتهم، يصنعون، في ستر منها، ما يريدون!

الغاية مكان للصمت، ومع الصمت يكون التفكير، وقد ترحل الحكيم بشير مع صمته، بعيداً في أفكاره، وكان هذا أفضل له، كي لا يحسب دقائق الزمن، أو يبهظه انتظار أن تجف ثيابه. إنَّه، في بحرانه الذهنى، نسي الثياب التي فرح بها لأنَّها جفت، ولأنَّه بارتدائها صار بإمكانه التطاواف في الغابة، ومن حسن الحظ أنَّ سرواله الداخلى جفت على جسمه، وجفت، بدورها، بركة ماء النبع التي أسقطته رئفه فيها، انتفت، غدت ذكرى «والذكريات صدى السنين الحاكي!» غير أنَّ الصدى يتلاشى، يبقى الصوت وحقيقة، والحقيقة لها طعم الحقيقة. وبفعل إرادة، حاول أن ينسى

الحكيم بشير ما جرى، أن يتلع طعم الحقيقة، لكنه، في الأشبور لم يتلع شيئاً، هجع التفكير بالمرأة، ولكن إلى متى؟! إلى متى يا حكيم؟ لا أدرى. الحكيم لا يدرى.. وعندما أفاق من شروده، من ذكرياته، كان دغمش قد اختفى.

لكنه، في طريقه إلى ماء النبع، التقاه ثانية، كان دغمش قناص البشر، يطوف في المنطقة نفسها، غير قادر على الابتعاد عنها، وكان، من وقت آخر، خلال النهار والليل، يعتاده الشوق لا إلى الديار، بل إلى من سكنها، لا إلى النبع، ولكن إلى رئفة التي عاينها عارية في مائه، وفي هذا كانت له شراكة مع الحكيم بشير، فهذا أيضاً عوّته رئفة عند النبع، وكما يعود المجرم إلى مكان جريمته ولو متخفياً، عاد دغمش والحكيم إلى مكان جريمتهما في الحبّ الذي أزهر ولم يثمر، وكان دغمش حانقاً لإفلات فريستين منه: رئفة والذئب الأسود! قال:

- أنت، يا حكيم، وضعت عقلي في كفني!

- إذن لم أضع شيئاً.

- تعني لا عقل لي؟

ابتسم الحكيم وقال:

- تقريباً!

- لماذا؟

- لأنك لم تتأدب حتى الآن.. حاولت مرة ومرة ومرات، ولقيت الرفض نفسه من رئفة في كلّ مرة، فماذا ترجي؟ أن

يرق قلبها عليك؟ أن تشفق على جنونك بها؟ الموت ولا الشفقة في الحب، فالشفقة، هنا، هي الإذلال، رئيفة أذلتك بما يكفي، وأنت الآن مُذَلٌ مُهان، ومن يكن على هذا القدر من المهانة يصبح فاقداً للكرامة، والذي بغير كرامة، بغير شرف، وبغير نخوة، لا نفع منه في هذه الغابة.. إنك تحب، وأنا أتفهم أن تحب، لكنك في حبك تخلط بين الرضى والقسر، تريد أن تكون محبوباً بالقوة، وهذا محال، القوة قد تجلب الغنى، النفوذ، القدرة، السطوة، لكنها عاجزة عن جلب الحب. أنت معذب! هذا صحيح، إلا أن رئيفة معذبة أيضاً، كم قلت لك إنها تحب الأرقش، وإن الأرقش يحب غيرها، وإن شقاءك في مراميك شقاوتها في مرامها، وإن التضحية قسمة واجبة بينكما، تضحي لأجلها كما تضحي هي لأجله، وبذلك ترتفعان إلى المستوى الإنساني اللائق: هناك كثير من النساء، وهناك الكثير من الرجال، والفرق وحده كفيل بالنسوان والسلوان، الفراق يشفى من الحب، من الوجود... ابتعد، ففي البعد النجاة من هذا المرض اللذيد، اللعين، الذي أنت مصاب به.

هتف هدهد من فوق شجرة:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجدٍ فقد زادني مسراك وجداً على وجدٍ،

أردد هدهد آخر:

وقد زعموا أنَّ المحب إذا نَأى يسلو، وأنَّ النَّأيَ يشفى من الْوَجْدِ،

أضاف الهدهد الأول:

بكلٍ تداوينا فلم يشفَ ما بنا على أن قرب الدار خيرٌ من البعد

قال دغمش:

- أسمعت يا حكيم؟

قال الحكيم:

- سمعت يا دغمش، لكنني لا أزال عند رأيي، بعد الدار لا قربها هو الذي يشفى ..

أضاف:

- صاحبك الشاعر لا يزال على أول درجات السلم .. إنه مثلنا تماماً، في سفح الجبل، أنا لا مطمح لي في ارتقائه، أما أنت، وإذا كنت مصرًا على حبّ رئيفة، فإنّ عليك أن تبدأ من السفح، وأن تجاهد وتضنى في الصعود إلى الذروة، وهناك تناول حظك من حبّها، هذا إذا أحبتك هي.

- وبعد الوصول إلى الذروة.

- الثبات عليها قليلاً، إن أمكن ذلك، وبعده الانحدار من الجانب الآخر للجبل.

- أي جبل؟

- هل أنت أهيل؟ جبل الحب طبعاً! هذا إذا كانت معك التي تحبّ، رئيفة أو غيرها.

- وإذا لم تكن؟ أصعد وحدي؟ المسألة سهلة إذن، دلّني على هذا الجبل، وأنا أتكفل بالباقي .. سأصعد إلى ذروته وثُبّاً، وأبقى عليها إلى آخر العمر .. ما قولك؟

- قولي إنّك أخرق.. الجبل، يا دغمش، مجاز.. جبل الحب غير جبل الحجارة، صعود جبل الحجارة سهل، في وسع الجميع ارتقاوه، أما جبل الحب فإنه صعب المرتقى،

وشرطه أن يكون معك من يرقيه.

- كن أنت معي إذن!

- وبماذا أنفعك أنا؟ أنا يا دغمش! يا حيواناً يمشي على رجلين، رغم أنك نلت بعض الحظ من التعليم، و كنت في المدينة، وقنصت البشر، و كنت تفهم قبل أن يخبلك الحب.. ماذا جرى لك؟ أضعت عقلك؟ كل الأشياء، في هذه الدنيا، قابلة للشرح، إلا الحب.. فيه يكون الصمت، صمت اللسان وكلام العين، ماذا قالت لك العين؟

- عن أي عين تتكلّم؟

- ليس عن عيني طبعاً!

- عن عين رئيفة؟ أنت، يا حكيم، أضعت حكمتك، إذا كنت أنا قد أضعت عقلي. رئيفة، يا حكيم، لا تؤخذ إلا فضلاً.. نعم! المسألة هكذا.. أقصها كما قنصت غيرها.. رصاصة في الدماغ وينتهي كل شيء.. تستريح هي وأستريح أنا.

تفرس فيه الحكيم، وقال:

- رئيفة تستريح بالموت إذا قتلتها، أما أنت فبماذا تستريح؟

- بالعيش نهائياً في هذه الغابة أو غيرها.. المهم أن أقتل، من يتبعدد عليّ أقتله ولو تشفع له جبريل نفسه.. اسمع يا حكيم! قلت لك مرة: لو كانت رئيفة لك سأقتلك معها، وأنا عند كلامي.. عيب على هذا الشارب إذا لم أفعل، لكن رئيفة ليست لك، وهذا جيد، هذا مريح جداً،

فأنا أحبك، وأحترمك، ولا أخالف لك رأياً، وكلّ ما قلته عن جبل الحبّ، والصعود إلى ذروته من السفح، لم أفهم منه إلا القليل، وحتى هذا القليل مشوش.. غريمي رجل غيرك، وهذا من حسن حظك.. غريمي الأرقش، وسأقتل الأرقش ولو كان زعيماً على هذه الغابات كلّها.. أنسّحه أن يتخلّى عن رئفة، أن يتركها لي، ولو من باب الشفقة التي قلت إنّها مذلة.. أريد رئفة بالرضى، وإلا بالقوّة، نعم! بالقوّة، ول يكن ما يكون.. وماذا يكون؟ الموت؟ دغمش لا يخاف الموت! قل هذا، أرجوك، للأرقش، انسّحه أن يجتبي ارتكاب جريمة هي المسؤولة عنها، أنا لم أطلب منها أن تعرّى وتستحمّ بماء النبع، لكنّها تعرّت، استحمّت، ورأيتها بعيني، من وراء الدغل، عارية، فطار صوابي، جنتت، لا بأس بالجنون، قل عنّي إنّي مجنون أقل لك إنّك على حقّ، هات يديك، رجليك، رأسك، هاتها قبلها كلّها، مقابل أن تكون رئفة لي، ولو كانت لي، لمرة واحدة، قد أتركها شأنها، أمّا قبل ذلك لا! هل تفهمني؟ لا تفهمني؟ سيان.. ت يريد مهرها لbin العصفور آتيها به، أصطاد العصفور، أصطاد كلّ العصافير، كلّ الوحوش الكاسرة، لأنّها موجودة، لكنّ الذئب الأسود غير موجود، فماذا أفعل؟ قل ماذا أفعل؟ أحارب طواحين الهواء؟ هذه أيضاً غير موجودة، إنّها وهم، والذئب الأسود وهم، وكفاني عذاباً في حربى مع الأوهام.. إنّي غير قادر على الصبر أكثر، غير قادر، غير قادر.. ارحمني، ارحم دموعي، أنت لا تعرف الحبّ، لم تذق مرارة الحبّ مثلّي، أنت يا حكيم اشتاهيتها، وأنا أحبّتها، والفرق كبير بين

الشهوة العابرة والحبّ المقيم، دغمش الذي كان يقنص الناس قصته امرأة، أهانته، أذلّته، وهو يريدها، يحبّها حتى مع الإهانة والذلة..

أشفق الحكيم على دغمش، تركه يبكي ما شاء أن يبكي، البكاء يغسل، يريح، يرخي الأعصاب المتوتّرة، ودغمش بحاجة إلى الاسترخاء، وكان من الممكّن أن يأتيه برئيفة، كما أتاه بها سابقاً، فنسيان المرأة يكون في رؤية المرأة نفسها، إلا أنّ هذا المحبّ، المجنون بالحبّ، عاد سيرته الأولى ما إن غادرته رئيفة، ولو جاءت إليه اليوم، أو غداً، أو بعد غد، فإنه سيعود إلى هيجانه ما إن تغادره.. إنها لا تحبه، والحبّ لا يكون جبراً، والحلّ ليس في القتل، دغمش وحش، قاتل، شرير، مريض، دواؤه في أن تكون رئيفة له، ورئيفة لن تكون له حتى لو قتلتها، أمّا أن يقتل الأرقش، فهذا موضوع آخر، مثير، شنيع، لابدّ من منع حصوله، بأيّ وسيلة.. إذن التهدئة، تهدئة دغمش، ملاطفته، الكفّ عن تعنيفه كيلا يلتهب، الإمساك عن عذله، عن لومه، كيلا تزداد البلّة طيناً.

نهض الحكيم من مجلسه على صخرة النبع، جاء إلى دغمش، ربيت على كتفه، مسح على رأسه، أشعل له سيكاره، دعاه إلى الجلوس على الصخرة معه، تركه يدخن حتى يصفو رأسه، قال له بنبرة حانية:

- كبرنا يا دغمش وكبر هم الهوى معنا..

أضاف الحكيم بتؤدة:

- من كان يظنّ أنّي بعد هذا العمر، أشتّهي رئيفة،

وأحاول، رغم تحذيرها، أن أضمّها إلى صدري؟ الظنّ، هنا، صار حقيقة.. فعلّها، أخطأت، الخطأ يتطلّب ثمنه، دفعت الثمن صاغراً، وجدت نفسي في ماء النبع، خجلت، وماذا ينفع الخجل بعد فوات الأوان؟ الحكيم أضاع حكمته، تعلّمت درساً مفاده ألاّ حكمة مع الشهوة، نسيت أنّ الرجل لا تذلّه إلاّ شهوته، اشتاهيتها وصار الذي صار، ذهبت إلى بقعة معزولة في الغابة، جففت ثيابي، تذكريت أقوال الهداده: «قرب الدار خير من البعد».. ابتسمت على أسى، ارتدت ثيابي، عدت إلى مكان سقطتي، وجدتك، أنت أيضاً، في مكان هذه السقطة، وهذا طبيعي «ما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديار» نعم! ما حبّ النبع الذي أعادنا، أنت وأنا، إلى هنا، ولكن حبّ الذي كانت على النبع، واستحّمت بالنبع، ورأيتها أنت عارية فأحبببها، بينما اشتاهيتها أنا، والحال واحدة، فالحبّ في النتيجة شهوة، وصدق من قال: «الحبّ لا يتغذّى إن لم يكن شهوانياً» وكم كنت حقيقاً وصادقاً حين قلت: «فنقصت البشر، وفقصتني امرأة من البشر». كلامنا، يا دغمش، وقع في الورطة نفسها، دعنا نبتسم من المهزلة، من الورطة، من البهيمة، فإذا ابتسمنا سرّينا عن نفسينا، وإذا ضحكنا تعافينا، فليس مثل الضحك مجلبة للعافية..

قال دغمش بحسّم:

ـ أنا لا أستطيع أن أضحك!

قال الحكيم:

ـ بلّى! ستنجح في المستقبل أن تضحك «من هذه

المهزلة ونذالة هذه الأيام!»

- أما أنّ الأيام نذلة فهذا صحيح، وأما أنا، دغمش،
أضحك من النذالة، فهذا فوق إرادتي، إنني خلقت لمحاربة
النذالة، وسأفعل ..

أضاف وهو يشعل سيكاراً:

- قل لي، يا حكيم، الذئب الأسود حقيقة أم وهم؟

قال الحكيم:

- الاثنان معاً.

زمن مجر دغمش:

- كيف هذا، الاثنان معاً؟ اللعنة!

قال الحكيم هادئاً مبتسمًا:

- الاثنان معاً، وهذا ما ستفهمه مع الأيام.

- والذئب، كما في الرمز، هو الفساد كما تقول؟

- نعم!

- لكن هذا الذئب غير موجود في الغابة.

- موجود في الغابة، بين أشجارها، في أدغالها، في
طرقاتها، موجود أيضاً في المدن، إنه يمشي في شوارع
المدن، دون أن يراه الناس بعيونهم، بل بشعورهم، يحسّونه
بغضاً، كريهاً، ناهشاً في لحومهم، في خبزهم اليومي، في
صحتهم والعافية، وبكلمة: في أرزاقهم التي لا تكاد تسد
جوعهم، فهم ضامرو البطون، صفر الوجوه، متعبون إلى
درجة لا تصدق، ولكن ماذا يفعلون؟ كيف يرون من لا يُرى؟

الأرقش على حق، الذئاب السود تولد، تتكاثر في القلاع،
ومنها تنتشر.

قال دغمش:

- إبني، كما تعلم، أكره الأرقش حتى الموت، لكنني
معه في أن القلاع هي السبب. لماذا.. لا نهاجم القلاع؟
ابتسم بشير الحكيم دون أن يجيب، دون أن يقول له:
هذا سيصيير يوماً ما!

عندما شفي الأرقش من الحمى التي أصابته، بفضل معالجة الطبيب ياسر، وعناية قمطرة وميلاد به، كان سؤاله الأول: «هل قُتل الذئب الأسود؟» وقال الثلاثة معاً: «لا! لم يُقتل!» قال: «أصدقوني!» قال ميلاد: «بماذا نصدقك؟» «بأنهم رأوا هناك، في الغابات الائتين والعشرين» قال الطبيب ياسر «لم يأتنا خبر عنه!» «كيف؟» لا كيف، لا تتعب نفسك بالسؤال عنه، إنه، كما يقول الحكيم بشير: «حقيقة ووهم!» صرخ الأرقش: «بل إنه حقيقة!» «الحقيقة تُرى يا الأرقش، ولأنّ أحداً من الصيادين لم يره، فإنه وهم». قال الأرقش وهو يصرّ على أسنانه: «لا! إنه حقيقة، وأنا أعرف!».

فكّر الطبيب ياسر: «هل لا يزال الأرقش تحت وطأة الحمى؟ إنّ إصراره على أنّ الذئب الأسود حقيقة لا وهم، فيه نوع من الخبر، والخبر قد يستمرّ إذا لم يشف المريض تماماً، ماذا عليّ أن أفعل؟» قال بصوت مسموع:

- النكس من الحمى، أخطر من الحمى نفسها، لذلك عليك، يا الأرقش، أن تتناول الدواء بانتظام، أرجوك.. نحن جميعاً بحاجة إليك، وأنت وحدك، عندما تشفى

تماماً، مَن سيفتنل الذئب الأسود، الذي تقول إنه حقيقة، وهو حقيقة فعلاً، مادمت تراه كذلك، ولتذهب حكمة الصياد بشير إلى الجحيم!

قال الأرقش:

- إنني شفيت تماماً، ومع ذلك سأتابع تناول الدواء بانتظام، كي أثبت لكم جميعاً، أنني لست فوضوياً، ولم أكن يوماً من أتباع باكونين.. الحكيم بشير على حق: الذئب الأسود، الذي أصرّ على أنه حقيقة، هو وهم أيضاً، لأن أحداً لم يره، مع أنه موجود في غاباتنا.

قال ميلاد:

- ليس في غاباتنا فقط يا الأرقش، إنه في شوارع عاصمتنا، وفي شوارع المدن الأخرى كما قيل لي، عندما ذهبت لإحضار الدواء.

قال الأرقش:

- صدقت يا ميلاد، يا صغيري العزيز، الذئب الأسود يتجول في شوارع العاصمة نفسها، وهذا ما يؤلمني جداً، ولكن ما العمل؟

قالت قمطرة:

- العمل أن نطارده في العاصمة أولًا.. العاصمة هي الرأس، ونحن نطارده في الغابات، وهي الذنب، وهنا الخطأ!

- الخطأ كما تقولين يا قمطرة.. إنه في الرأس وليس في الذنب، غير أن المسألة أعقد من ذلك.. المسألة، في

رأيي، أين ولد الذئب الأسود، أين فرخ وتکاثر، ومن أين جاء، وكيف جاء، ولماذا؟ أين الدواء؟

ناوله الطبيب ياسر الدواء، تناوله الأرقش احتراماً للطبيب، وكي يثبت أنه ليس من أتباع باكونيين، وأنه لم يكن يوماً فوضوياً، أو من أنصار الفوضوية، ويعرف ما انتهت إليه من إخفاق، ويتذكر قوله باكونين: «عزاونا الباقي في الموت!» وهو، الأرقش، لا ينشد الموت بل الحياة، يريدها، يصرّ عليها، إلى أن يُقضى على الذئب الأسود وسلامته، بيده أو بيده غيره من الصيادين، لا فرق، وما قالته قمطرة عن الرأس والذنب صحيح، إلا أنها لم تقل أين حضانة هذا الذئب، وهل هي في الرأس أم الذنب؟ العاصمة هي الرأس، والذئب، كما قال ميلاد، يتجوّل في شوارعها، وهذا في ذاته الخطر الأكبر، إنما هناك الخطر الأصغر، وربما كان السرّ فيه، والسؤال، بعد، أين هي القلاع، في المدن أم في الغابات؟ الخطر، كلّ الخطر، في القلاع، ولا بدّ من التصويب على القلاع أولاً، ولكن بعد اكتشاف مكانتها، المهم اكتشاف مكانتها، فأين هو هذا المكان؟

تظاهر الأرقش أنّ جرعة الدواء أنعشته، وقد تكون أنعشته فعلاً، لذلك نهض واقفاً متحدّياً، وقال:

– إنّي راحل!

أضاف:

– والدواء معي.

قال الطبيب ياسر:

ـ والناقة؟

- في الهواء الطلق تكون أسرع وأفضل .
- الهواء الطلق موجود هنا أيضاً .
- تغيير الهواء ضروري .. من يأتي معي؟
- كلنا !
- لا ! ليس كلّكم .. الطبيب ياسر يعود إلى عيادته ، ميلاد يرجع إلى العاصمة لمراقبة الذئب الأسود في شوارعها ، قمطرة تعبت بالسهر علىي وأنا مريض ، لذلك ترتاح في بيتها ، صقرش وحده يأتي معي ، والسر يبقى سرّا ، هذه وصيتي .. أنا لم أرّكم ، وأنتم لم تروني ، إلى اللقاء !

قال الطبيب ياسر في نفسه : «كأنّها وصية الوداع !» وقالت قمطرة : «لماذا يريدني أن أستريح ولست تعبة؟ يا ربّي كم هو حساس بأشياء الآخرين ، حساس وشجاع وعنيد ، غير أنّ الأمور ، بالنسبة إليّ ، تختلف ، فأنا لست حبيبيه ، أنا حارسته ، ولن أدعه بغير حراسة .. آه لو كنت فتاة صغيرة بعد !» ، وقال صقرش : «فَعَلَ حسناً عندما اصطفاني لمرافقته ، إنه رجل ، ويفهم جيداً معادن الرجال ، ولكن لماذا استبعد قمطرة ، مع حاجته إليها؟ هناك سرّ ما ، سينكشف في هذه الزيارة .. تُرى قمطرة تحبّ الأرقش؟ تحبه وتكرهني؟ لا ! إنّها لا تحبه ، تُكبر رجولته فقط ، ومن لا يكبر الرجولة؟ لكنّه ، هو ، غير معنى بهذا ، رجولته تلقائية ، عفوية ، حتى أنه يتذكرها إذا ذُكرت ، يصرّ على أنه واحد من الصيادين ، وكلّ صياد شجاع ، أو يحسن به أن يترك مهمّة صيد الذئب الأسود لسواء .. عييه الوحيد أنه لا يلاحظ تعلقي بقمطرة ،

وإلاً ما فرق بيننا.. وفضيلته الكبرى أنه يختار الصبح:
التصويب على القلاء!

الأرقلش، ولو من باب التخمين، كان يستشعر بعض ما دار في رؤوس أصحابه، وهو يتقدّم بندقيته، ويقول لهم: «إلى اللقاء!» اللقاء أين؟ وكيف؟ وفي أيّة غابة؟! نظرته ردّت على أسئلة النظارات من حوله، قالت: «هنا، في هذه الغابة، غابتنا، بيتنا، ومنه نبدأ الترتيب!» إنما لم تقل العيون، التي تدرّي بما تنطوي عليه الصدور، متى سيكون ذلك، لهذا سأله الطبيب ياسر:

- هل تطول غيتك يا الأرقلش؟

أجاب الأرقلش بحسمه:

- وهل أنا ذاهب للعب؟

- لم أقصد هذا، فالذى يتطلع الثنين مثل يونس، من الطبيعي ألا يعرف متى يلفظه على الشاطئ.. أنت ذاهب إلى الثنين، ولن يكون رحيمًا معك كما كان مع يونس، ثنين القلاء من نوع آخر، وهو مفترس بضراوة، لذلك أسأل لأطمئن!

- اطمئن إذن، فعندما أعود سيعرف رسولي طريقه إليك.

قالت قمبّرة:

- وأعرفه أنا أيضًا!

تجهم الأرقلش وقال:

- أنت لن تكوني معي.

أجبت، ببرودة دم أفعى في الشتاء:

- بلى.. سأكون!

- هل هذا لأنّ صقرش سيكون معي؟

- أنت أقدر على المعرفة.

- في هذه الحال يبقى صقرش معك، هنا.

- بل نكون، صقرش وأنا، معك.. هذه كلمتي!

- وكلماتي أنا؟

- مسموعة جيّداً، ومطاعة إذا أردت الإيضاح والتوكيد، إنّما..

قالتها ولم تكمل..

سؤال الأرقش:

- تخافين عليّ؟

أجابت:

- ليس من القلّاع وحدها.

قال صقرش:

- دور القلّاع لم يأتي بعد.

قال الأرقش:

- هذا صحيح.. دور القلّاع عند تصفية الحسابات، ولسنا، الآن، في هذا الوارد..

قالت فنطرة:

- نحن في وارد آخر، ولهذا سأكون معك.

- وارد المرأة؟

- شيء من هذا، وغيره أيضًا.. دعنا نسر، بعد أن توكلنا.

ساروا، صقرش من أمام، الأرقش في الوسط، وبعده قمطرة.. ثلاثة في طريق غابي، بين الأشجار والأدغال، ناقوس دير يدعو إلى الصلاة، مهابة سكينة في الغابة، زفقة عصافير على الأغصان، ابتهالات مموجعة مجهولة المصدر، وصمت!

ثلاثة في طريق، صمت في طريق، أطويل هذا الطريق؟ ربما نعم! ربما لا! ويبقى السؤال اشتياقاً، فمن يجب على السؤال؟ لا أحد! كل أحد، ليكن صمت.. وكان الصمت. في الغابة يحلو الصمت. تتكلّم هي، ماذا تقول الغابة للسائرين في الغابة؟ ربما لا شيء، ربما أشياء، إلا أن السائرين فيها يصغون، يمضون إلى أمام ويصغون، يتوهون ويصغون، يصبح الإصغاء ناموساً، يصبح مغامرة. أنت في الغابة؟ إذن أنت على موعد مع المغامرة، وما الحياة بغير مغامرة؟ تفاهة، عندئذ، تكون. الضياع، أحياناً، لقاء، هل ضعت يوماً؟ أن تضيع لأنك ببساطة ضعت، فإن فرحاً ما سيملاً قلبك وأنت تهتدي إلى الطريق، والثلاثة: صقرش، الأرقش، قمطرة، ضاعوا، تاهوا عن الطريق، ودون أن يسحب الأرقش قلبه، ويرفعه مشعلاً ليبدد الظلمة، تكفلت الشمس بدور المشعل، فاهتدى الثلاثة إلى الطريق، وقال صقرش:

- الذنب ذنبي، لأنني كنت في المقدمة، ولم أكن أحسب أن هذه الغابة كثيفة إلى هذا الحد!

سأل الأرتش وقد جلس الثلاثة ليستريحوها :

- هل رأيت، يا صقرش، الغابات الكثيفة؟ وأين؟

فكَّر صقرش، استعرض الغابات الائتين والعشرين التي مرّ بها، وتحدّث مع الصيادين التي فيها، وما يقومون به من جهد لاصطياد الذئب الأسود، الذئب الذي يؤمّن كلّهم أنه موجود، ويقسم كلّهم على أنّهم لم يقعوا له على أثر، حتى باتوا على شيء من اعتقاد، أنه حقيقة ووهم معاً، مرددين مقوله بشير الحكيم، الذي يعرفونه ويحبّونه، ويقدّرون فيه رجلته وحكمته، لكن الغابات التي اخترق صقرش قلبها وجوانبها، في ارتياح تدقبي عن الذئب الملعون، لم تكن كثيفة إلى الحدّ الذي يسأل عنه الأرتش، فالفرقة بين الأشجار هي الفرقـة نفسها بين البشر، وهـل الغابة، في تشكـلـها، إـلاـ بشـيرـ في تـشكـلـهمـ؟ـ الأـرـقـشـ،ـ فيـ سـؤـالـهـ المـبـطـنـ،ـ يـبـتـغـيـ جـوـابـاـ غـيرـ مـبـطـنـ،ـ وـالـجـوـابـ مـحـيـرـ،ـ فـمـاـذـاـ وـرـاءـ؟ـ

قال صقرش :

- لا ! لم أر الغابات الكثيفة، لكنني أسمع عنها، يقال إنـهاـ فيـ أـفـرـيـقـاـ،ـ وـرـبـماـ كـانـ الذـئـبـ الأـسـوـدـ مـوـجـوـداـ هـنـاكـ.

صاحت قمطرة :

- بل موجود هنا، في الغابة التي كنا فيها، وفي الغابة التي صرنا إليها ! الأرتش يعرف ذلك، لكنه يسأل ليتحقق ذكاءك يا أبله !

الأرتش لزم الصمت. في الغابات الكثيفة وغير الكثيفة

الذئب الأسود يرتع على هواه، «كُلّنا في الهمّ شرق» وكلّنا، في هذا الشرق، منهوب الرزق، مهاضم الكراهة، مخنوق الصوت، يرى، يسمع، يتأمل، يتآلّم، ثم يبلع لسانه حتى لا يقطع.. وعلى الطرق تتنصب إعلانات طويلة عريضة، بارزة، فيها صورة مقصّ مفتوح الشدّيقين الرهيفين، وما تبقى في الإعلان فراغ، فلماذا الإعلان؟ ولماذا المقص؟ ولائي سلعة يسوق؟ ولماذا يتكرّر عشرات المرات؟ وهل هو تحذير اتّخذ من الإعلان شكلاً؟ إنه مفرد، مجرّد مقصّ مفتوح ومفرد، إلا أنّ الذي يراه يتحسّس لسانه، يخاف عليه من القطع، يرتعش، يرتعش، يشيح بوجهه كيلا يراه، يغمض عينيه كي يتفادى رؤيته، إلا أنّ الإعلان يتكرّر، على مدى عشرات الآلاف من الكيلومترات يتردّد، والمسافر الخائف يزايله الخوف مع طول المسافة، مع انتفاء المعاناة، لأنّه يتذكّر أنه بلا لسان، وأنّ لسانه قد قطع من زمان، وأنّه حي ميت، وأنّ أمثاله من الأحياء الأموات على الدروب يسرون، فيترحّم، إذا كان مثقفاً، على بدوي الجبل، الذي في زمن ما، في مكان ما، وصف بشكل رائع ومؤثر، هؤلاء الأحياء الأموات، الزاحفين على بطونهم الخاوية، فوق أديم من شوك، من مسامير، على كلّ الطرق التي شهدت هزيمة حزيران!

طال الصمت، طال الكلام بلا كلام، طال الجلوس، اهتزّت «عقد القصب»، تعالي في سكينة الغابة صوت فيروز «يا شجرة الأيام عرّاها الهوا، أنا مثلك، وحيدة على مفرق طريق!» علقت قمةَرَةَ:

- الصوت صوت فيروز، لكنَّ الشعر ليس بمستقيم، هناك خلل!

قال صقرش:

- نعم! فيه خلل، والحق على الذاكرة.. ماذا نفعل إذا كنَا قد شخنا، وشاخت الذاكرة معنا؟

برطمت قُمْطَرَة:

- أنت، يا صقرش، وحدك الذي شخت.. ما رأيك يا الأرتش؟

ابتسם الأرتش وقال:

- صقرش وحده الذي شاخ! وهذا واضح من الشيب في رأسه وشاربيه، أما أنت، يا قُمْطَرَة، فإنَّ شعرك بلون الليل!

قال صقرش:

- وسيظلَّ بلون الليل، مادامت هناك صبغة شعر!

- فشرت.. هذه خلقة ربِّي!

- ربَّنا لا علاقة له بالصبغة.. أنت امرأة وتعرفين، شعر النساء كلَّ يوم بلون، إذا أردته أشقر كان أشقر، وإذا أردته أصفر كان أصفر، والضحايا نحن الرجال، نرى فنصدق.. أليس كذلك يا الأرتش؟

قال الأرتش بلا مبالاة:

- تماماً!

صاحت قُمْطَرَة:

- ما هذا، تماماً؟

رد الأرتش:

- المقصّ.

- سافروا على الطرقات تعرفوا.

- هل هذه ألغاز؟

- هذا ريلاكس !relaxe

تلاقت عيون أربع، فيها قلق ظاهر: الأرتش يهدي، بعد أن عاودته الحمى، فماذا نفعل والطريق طويلاً؟ الطبيب ياسر غير موجود، والدواء يكاد ينفد، وليس من صيدلية في الغابة.. مصيبة!

ابتسم الأرتش، سمح لقمهّرة أن تضع راحتها على جبينه، ناولته الدواء فشربه، أرادت أن تنزع بندقيته فامتنع عليها، طلبت منه أن يتمدد، أن يستلقي على العشب، في ظل الصنوبرة الوارف، فقال لها:

- أنا هكذا على ما يرام.

- ولكتك تهدي!

- صفائفي الذهني لم يكن يوماً بأفضل مما هو عليه الآن.

أضاف:

- بعد قليل نواصل السير إلى حيث يجب أن تكون!

- وأنت على هذه الحال؟

«زوجينا بحسن وجهك مadam، فحسن الوجه حال تحول»

ضحك صقرش وقال:

- حسن وجهها؟ عن أي حسن تتكلّم؟

دقّت قمطّرة على صدرها، وقالت:

ـ عن حسن وجهي!

قال الأرقش وهو يستوي في جلسته:

ـ «كل من واقف عَ سلاحو».

قال صقرش:

ـ اللعنة على إذا كنت أفهم شيئاً!

وقالت قمطّرة:

ـ وعلى مثلها إذا كنت أفهم أكثر مما تفهم يا صقرش..
إنه يهذي، الأرقش يهذي، والحمى داخلية هذه المرة،
العون منك يا الله!

قال الأرقش:

ـ لا تخافوا عليّ، إنني في تمام الصحة، وقد استعدت
عافيتي بسبب من هذه النسمات الرهوة، المنعشة.. في هذه
الغابة الظليلة.

أضاف مبتسماً:

ـ ما رأيكم بالزواج؟

ـ من رئيفة؟

ـ هذه من نصيب دغمش، وقد تركتها له حتى لا يقتلني كما
قال.

ـ من فدوى؟

ـ هذه تزوجت عارف الداري زواجاً عابراً.. زواج
المتعة، أرجح هذه الأيام.

- ممَّن تتزوج إذن؟

- أنا لا أتحدث عن زواجي، بل عن زواجكما.. عندما نصل إلى الحكيم بشير، سنعقد قرانكما في حفل بهيج، وبهذا وحده تتخلص من النقار بينكما، ويترك كلَّ منكما السلاح الواقف عليه.

- كنت تعني إذن..

قاطعها الأرقم:

- نعم، يا قمطرة.. كنت أعني!

- وأنت؟

- كبرنا وذكر هم الذئب معنا!

قال صقرش:

- أنت، يا الأرقم، تعرف ما يقوله الحكيم بشير..
الذئب الأسود، يا صديقي، حقيقة ووهم!

أجاب الأرقم:

- كلَّ الأشياء، في هذه الحياة، حقائق وأوهام!

- هذه فلسفة.

تنهد الأرقم وقال:

- آه من الفلسفة! كلَّ ما نجهله نقول عنه فلسفة، وبنوع من الاحتقار، فلماذا؟ لماذا صارت كلمة فلسفة مشجباً نعلق عليه سراويلنا وأحذيننا؟ ليس هناك حقيقة دون قَدْرٍ، ولو بسيط، من الوهم، وليس من وهم ليس فيه ولو قَدْرٍ بسيط من الحقيقة.. ما لا نعرفه اليوم، سيتكلَّف العلم بتعريفنا إياه

غداً.. هذا هو الطريق إلى المعرفة، أو الأصح إلى بعض المعرفة.. عباس بن فرناس جرّب الطيران قبل اختراع الطائرة، وحنا كوزي، الذي كان مصاباً بالوسواس القهري، فَكَر بالمدجنة قبل أن تكون المداجن، كما فَكَر بالآلة الحاسبة قبل أن تخترع هذه الآلة.. هذا ما يسمونه اختلاط الحقيقة بالوهم، والعكس صحيح أيضاً.

قالت قمطرة، بكلّ ما في قلبها من حدب وإشفاق على الأرقش:

- حسبتك، في الوهلة الأولى، تهدي، خفت، ارتعدت من الخوف، فليس سهلاً، لو عاودتك الحمى، أن تعالج، وأن يتوافر لك الدواء اللازم ونحن في هذه الغابة، وقد أضعننا الطريق بسبب غباء هذا الغبي صقرش.

قال صقرش:

- أتقى الله يا قمطرة، تأدبي وإلـا..

قاطعته صائحة:

- وإلـا ماذا؟ تضربني؟ تطلق النار علىـي؟ أـرـني شجاعتـك إن كنت رجـلاً.

قال صقرش:

- أنا رجل الرجال!

- فشرـت.. كلـ كلامـك تفسـير.. قـلـ هـذا الـكلـامـ عـندـما لا يـكونـ الأـرقـشـ مـوجـودـاـ، فإذاـ كانـ مـوجـودـاـ يـكونـ هوـ رـجـلـ الرـجـالـ، ويـكونـ عـلـيـكـ أـنـ تـخـجلـ مـنـ اـدـعـاءـ الرـجـولـةـ!

قال صقرش:

- هل سمعت يا الأرقش؟ هذه الشمطاء تجرّدني حتى من
رجولتي، فكيف أتزوجها؟
قال الأرقش:

- أشهد، يا صقرش، إنك رجل، رغم غبائك في
الجغرافيا، وأشهد أن قمطرة ليست عجوزاً، وإنما هي فرس
شموس، تحتاج إلى الترويض، وأنت، بعد الزواج، من
يروّضها.. وهذا النقار بينكما دليل على الحب، وقد استمتعت
به جدًا، وتمتنع أن يكون هناك، بيسي وبين أيّ امرأة أحبّها،
مثل هذا النقار، لكثني، كما قلت، لست معنِّيَ برئفة، وفدوى
تزوجها نافع الداري زواج متعة، وأنا، لاسيما بعد المرض،
أحسّ أتنى كبرت، وكبر هم الذئب الأسود معي، إلا أنَّ هذا
الذئب له سلالة كبيرة، تتواتد وتتكاثر في القلاع، وقد ندرت
نفسى لمقاومة هذه القلاع، بصرف النظر عما إذا كنت سانجح
أم لا.. إنها حصينة، قلاع الأسياد هذه، لكثني مصمم على
محاربتها، على هدمها، أو «أموت فأغذراً» أموت على يقين
بأنَّ الشعب سيكون سيدها، من دون حساب للزمن، فالذى
يتصدى لإزالة الظلم، حتى ولو جزئياً، لا يحسب حساب
الزمن، من يحسب حساب الزمن يتعب، والزمن طويل، لا
يقاس بعمر الإنسان، لذلك على الإنسان ألا يكون أناانياً،
راغباً في أن تتحقق العدالة في حياته، لأنَّها، على هذا
الأساس، لن تتحقق، وعندئذ تكون خيبة الأمل، يكون
السقوط، هل تفهم؟

قالت قمطرة:

- أنا أفهم يا الأرقش، أما صقرش فهو جحش، خنزير،

وقد قال السيد المسيح «لا تطرحوا درركم أمام الخنازير».. فلماذا تطرح دررك أمامه؟ إبني مؤمنة، مسلمة، وكلما واجهت مصيبة، أتذكر الآية الكريمة: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْرِ» صدق الله العظيم.. لقد خدمت، وأنا في عز صباي، في أحد الأديرة.. لم أصبح راهبة، لا رهبة في الإسلام، لكنني هناك، في الدير، تعلمت الكثير من الأشياء.. ثم مع السلامة.. خادمة كنت، ولم أجد الخدمة عيبا، وبعد ذلك تابعت، ثابرتك على المطالعة، على التعلم، حتى حصلت على الكفاءة.. وأنت، يا الأرقلش، بعد هذا كله، ت يريد تزويجي من هذا الجحش صقرش؟!

ضحك الأرقلش، وقال صقرش:

ـ أنا لست جحشا يا حمار، والدليل أنني فهمت أكثر مما فهمت، وطرز في الكفاءة التي معك! إبني، يا غبية، قرأت بعض الكتب أيضا، ثم ماذا؟ الأرقلش لم يتكلم، هذه المرة، بالفلسفة، تكلم مثلي ومثلك، قال: «وليس للإنسان إلا ما سعى» وأنا أسعى، أطارد، مثل الآخرين، الذئب الأسود، وقبل هذا كنت أداوم على شيخي في الجامع، ومنه تعلمت أن الله سيمتن على المستضعفين، وماذا أنا؟ مستضعف، وسيمتن الله علي، وهذه زبدة كلام الأرقلش.

قال الأرقلش:

ـ نعم! هذه زبدة كلامي، وهذا النقار بينكم سيزول بعد الزواج، لاسيما بعد أن تلدي صقرش صغيرا.

نبرت قمةرة:

- أنا لن أتزوج هذا الجحش، ولن ألد جحشاً آخر!

رفع صقرش بندقيته في وجهها وقال:

- اسحي كلامك فوراً وإلا قتلتك!

أمسك الأرتش ببنديقية صقرش، وقال:

- هل أنت مجنون؟ قلت لك إن قمطرة فرس شموس،
وبدلأ من أن تقتلها اركبها، ولكن بعد الزواج، عندئذ ينزاح
كلّ منكما عن سلاحه.. هيّا نتابع السير!

وقف الثلاثة، قالت قمطرة برنة غضب:

- اسمع يا الأرتش! كلمة «اركبها» هذه غير لائقة،
فاعتذر عنها، وبذلك تسحب تعبيراً أحسبه زلة لسان، لأنني
عرفتك كيساً، مهدباً، تزن كلماتك بدقة، بعيداً عن كلّ
عيوب، في اللسان واليد، وفي معاملة الذين معك.. أنا
قمطرة ولست أيّ امرأة، فاعتذر فوراً.

صعق الأرتش، ندم على ما قال، تسمّر في مكانه،
أطرق خجلاً، مدركاً أنّ زلة لسانه، ولو على سبيل المزاح،
ما كان يجب أن تكون، وأنّ قمطرة، التي سهرت عليه وهو
مريض، مخلصة له في نقاشه، مرافقة له في طريقه، وهي،
بعد كلّ شيء، امرأة، وبصرف النظر عن الأنوثة فيها تبقى
امرأة، وأنّ المرأة حساسة بدرجة تفوق الرجل، كائناً من
كان، في رهافتها ونبليها، وأنه كذكر انكشف أمام أنثى، ولن
يفيده اعتذاره، مهما يكن صادقاً، صادرًا عن ذاته الجريحة،
وأنّ قمطرة ستقبل اعتذاره، لكنّها لن تنسى أبداً كلمته النابية
بحقّها، وأنه كالبخار الصادق، الذي يحاول عبثاً أن يمحو

لحظة كان فيها جباناً، من ذاكرته.. . ماذا يقول الآن؟ كيف يتصرف؟ وبأي شكل يستعيد صورة البطل الذي كانه في نظرها؟ اللعنة على البطولة، هذه التي ألصقت به دون أن يدعها، ودون أن يعرف كيف يخلص منها، إنّه إنسان، مجرد إنسان، لكنّه ذكر، في مجتمع ذكوري، مثله مثل صقرش ودغمش ونافع الداري، وغيرهم أيضاً، إلاّ أنه، في المال، لم يحسن القول ولم تحسن الحال، كما قال المتنبي، وخسر، في الحالين، سمعته التي يحرص عليها!

قالت قمطرة التي آلمها، هي المخلصة للأرقش، أن يتعذّب الأرقش في صمته والإطراف:

– لا عليك يا الأرقش، إنني أغفيك من الاعتذار، لا تعذر ولا تهتم !

قال الأرقش في نفسه: «إنّه الإشفاق، وهذه بليّة أخرى.. . قمطرة أشفقت عليّ، وليتها لم تشفع، كان ذلك أرحم!» وضع بارودته في كتفه، بغier أن تصدر عنه كلمة؛ إنّه يعرف الطريق، وحتى لو أضاع الطريق، فإنّ ذلك ليس مشكلة، ولعلّه في الضياع يكسب، يشفع له غباؤه، يعرّيه من حالة البطولة، يعيده مخلوقاً كسائر المخلوقات.

مشى الأرقش من أمام، تبعه صقرش، صاحت قمطرة:

– أنا لا أمشي وراء رجل!

غضب صقرش:

– وأنا لا أمشي وراء امرأة!

الذكورية مرة أخرى، صقرش ذكر، يرى من حقه أن

يتقدم المرأة، والمرأة أنتي، عليها أن تسير وراء الرجل، إلا أن قمطرة صيادة وصقرش صياد، وفي الغابة يتساويان، يسيران جنباً إلى جنب.. وهكذا سارا جنباً إلى جنب، بينما الأرتش يسمع نقارهما ويبتسم في سرّه.

كان الحكم بشير يعرف ما يريده الأرقش، ويوافق على هذا الذي يريده، إلا أنّ وقته لم يحن بعد. والأرقش المؤمن بقوله «للظلم يوم وللمظلوم يومان» لم يكن متوجلاً لإنصاف هذا المظلوم، فالزمن يسيل، يجري كما النهر إلى البحر، وفي سيلان الزمن تخبيء الأحلام، وعليه، هو الأرقش، أن يخفي حلمه في هدم القلاع، في مطاوي الزمن الآتي.. لذلك قال للحكم بشير:

ـ علينا أن ننسى تجربة العدالة الاجتماعية الفاشلة، والتي صارت وراءنا، وأن نتطلع إلى العدالة الاجتماعية التي هي أمامنا.

قال الحكم بشير:

ـ هذا هو الصواب.. أنت، يا الأرقش، أكثر حكمة مني، لكنك لا تدعى الحكمة، وهذه فضيلتك.. إنني مثلك، ضدّ الحكمة المبتذلة، وأعجب لأنّ الحكمة صارت مبتذلة إلى هذا الحد!

قال الأرقش:

ـ ومع ذلك لابدّ من وجود حكيم بيننا، وهذا أمر متفق عليه.. أنت هو الحكم الذي اختاره القدر، والقدر أحياناً

لا يعائد، فكنْ معه لا ضدّه، وتحمّل كما نتحمّل جميـعاً..
كنْ، في هذه الغابة، القاضي العادل، الذي لا تأخذه في
الحقّ قيلة قائل بالباطل.. الحجاج قال: «أرى رؤوساً
أينعت وحان قطافها». هذا، من حيث المبدأ، صحيح،
لكننا، أنت وأنا، لن تكون الحجاج إلا عند الضرورة
القصوى، عندما يخون أحدهم قضيتنا، فيكون بيننا صياداً
للذئب الأسود، وهو، في الوقت نفسه، عين علينا للذئب
الأسود.. أنت، يا حكيم، لست أباً موسى الأشعري،
وإياك أن تكونه.. أنت طيب، والطيبة تحتاج إلى حماية،
فبماذا تحمي طيبتك؟ بالرأفة؟ هذه لها وقت، والحزم له
وقت آخر!

ابتسم الحكيم بشير، وقال:

ـ أنا، يا الأرقم، لست أباً موسى الأشعري، لكنك،
أنت أيضاً، لست عمرو بن العاص!

ـ أنا معاوية! هل سمعت أنّ معاوية كان عاشقاً؟ كانت
لديه نساء، لكنه لم يكن مجنون ليلى، وهنا يكمن الفارق..
معاوية بنى دولة، ونحن نعمل لبناء العدالة الاجتماعية، وفي
زمن آخر، أشد صعوبة ومكرًا، إذن علينا أن نكون معاوية
هذا الزمان، لا نقطع شرة مع أحد، ولا نسمح لأحد أن
يقطع الشارة معنا.. هذا ما يسمونه الدهاء، وفي الدهاء
كان عمرو بن العاص تلميذاً نجيباً لمعاوية، وقد امتحنه
يوماً، فسأله: «ما مبلغ دهائك يا عمرو؟» أجابه: «ما دخلت
مدخلاً، يا أمير المؤمنين، إلا وأحسنت الخروج منه» ردّ
معاوية: «ما هكذا يكون الدهاء يا عمرو.. الدهاء ألاـ

تدخل مدخلاً تدفع ثمن الخروج منه!»

قال الحكيم بشير:

- إلى أين تريد الوصول يا الأرتش؟

أجاب الأرتش هادئاً، حازماً:

- إلى بركة الماء!

- والرغبة الجنسية؟

- ألا تكون بالإكراء.

فَكَرَ الحكيم بشير، وقال:

- سمعت بقصتي مع رئيفة؟

- وسمعوا الصيادون كلّهم!

- اشتاهيت أن أضمهما بين ذراعي.. ألا تشتهي أنت أن
تضمّ امرأة بين ذراعيك؟

- لا أكذبك.. أشتاهي، ولكن بعد أن أتيقن أنها، هي
أيضاً، تشتهي ذلك، وليس قبله.. إنني أردد، هذه الأيام،
العبارة التالية: «كبرنا وكبر هم الذئب معنا». ألم يكبر هم
الذئب معك أيضاً؟ بلـى! لكنك مثلـي، تمـشي على خطـا عمر
ابن أبي ربيعة!

- كفى تقريراً!

- معاذ الله يا حكيم أن أفرـعك وأـنا مـريـدك!

- لكنك لم تسقط مثلـي في حوض النـبع، مدـفوعـاً بكـفتـا
امـرأـة وهي تـضـحـكـ!

- من قال ذلك؟ كلـنا بـشـرـ، والـبـشـرـ جـمـيعـاً يـرـتكـبـونـ

الحماقات، وما الحياة بغير حماقات؟ تكون عندئذ جافةً، بليدة، مملةً، تكون خشبة يابسة لا غصناً أخضر.. أنا، يا حكيم، مع الغصن الأخضر وليس مع الخشب، إنني أحياناً مع الحماقة ولست ضدّها، شريطةً ألا تكون الحماقة ديدننا، ألا ننام ونستيقظ معها.. وإذا قلت لك إنك، مع الحماقة، لست من هذا الصنف، فإني لا أجاملك أبداً.. العمر شرّاع مسافر تقول فيروز، ومن يركب الشّرّاع يجعل به ألا يتمتع بزرقة البحر فقط، بل أن يتذوقها أيضاً، أن يحتويها، إذا استطاع، بكفه، أن تتندى بها راحته.. وأنت، في شرّاع العمر المسافر، لم تخرج عن هذا. رئيفة جميلة، والله جميل يحبّ الجمال، فما الضير إذا أحببت في رئيفة جمالها، ورغبت أن تحتوي هذا الجمال بخصرها الضامر؟

قال الحكيم بشير:

- إذن أين المشكلة؟

- المشكلة أنك تسرّعت، ناسيًا أن الانتصار لا يكون مع التسرّع، أما ما تفرّع عن هذه المشكلة، فإنه مشكلة أخرى: الندم الذي اعتراك، والذي لا تستطيع أن تنساه، أنت الذي يصرّ على أن ينساه.. عندما نصرّ على النوم يجافي النوم، وفي هذه الحال دعه يأتِ، عندما، تلقائيًا، يأتي.. هل سمعت بسان لا ينام؟ أو أنه مات من قلة النوم؟ يقولون إن السمك لا ينام، لا تصدق هذا، السمك ينام أيضًا..

كان الأرقش والحكيم بشير يجلسان على صخرة النبع، وكان صقرش وقمبرة قد توغلَا بعيداً في الغابة، بعد أن تزوجا شرعاً على يد مأذون من الصيادين، وكان الجو صيفياً

معتدلاً، والنبع، من تحت الصخرة، يتدفق بماء بكر صاف، عذب، قام بدورته، ما بين تبخر وانهمار، حيث لا زيادة ولا نقصان، في توازن الطبيعة الذي لا يعرف الخلل، وحيث الملتقى المعتاد، يكون هنا دائمًا، على النبع الأكبر، الأغزر، بين ينابيع هذه الغابة، وحيث رأى دغمش رئيفة عارية، تبتعد من الحرّ، فجّن بها، وقرر أن يقتل الأرقش حبيبها.. وحيث سقط الحكيم بشير، فكانت سقطته مثار ندم شديد، يداريه مداراة، لكنه لا ينساه أبدًا، برغم كلّ ما قاله الأرقش له.

جاءت رئيفة تركض لاهثة من فرط شوق لرؤيه الأرقش، الذي علمت أنه هنا.. كانت، وهي تسرع للقاءه، تفكّر كيف سيكون هذا اللقاء، تقبله؟ تحضرنه؟ تضع رأسها على صدره وتبكي؟ تستكري مما بها إليه؟ تعاته؟ ما نفع العتاب؟ تقول له: يا هاجري؟ تلومه لأنّه هجرها، فيزداد تشرقاً عليها؟ تسكت؟ «الأفضل، قالت في نفسها، أن تسكت، أن أرى ردّة فعله، بعد هذا الغياب الطويل»، لكنّها لم تسكت عندما رأته، ولم تتكلّم أيضًا، تجمدت وهو يمدّ يدًا باردة لمصافحتها، ابتلعت أسماها وهي تصرخ، ما إن رأته من بعيد:

– الأرقش!

كانت تتوقع أن يصرخ بدوره:

– رئيفة!

لكنه لم يفعل. نهض، واللامبالاة تبدي على محياه، وقال لها:

- كيف أنت يا رئيفة؟

أجابته:

- بخير!

جلس، جلست، خِيَم صمت، تمطّى الصمت، ثناءً،
كانت إلى جواره، كان إلى جوارها، ما نفع التجاور إذا كان
مصفقاً؟ كيف تنقدح الشرارة دون فولاذ وحجر من صوان؟
كل شيء عادي، كل شيء مألوف، والحبّ، حين يكون..
لا يكون عادياً، لا يكون مألوفاً، ينبذ العادية، يقتلها،
يخترق المألوف، يمزّقه، ينبذ الحكمة، يلعنها، يدعها
تعوي، تجعجع، يخرج من إهابها، يخزق هذا الإهاب، «آه
لو خزق إهابي، لو مدّ يده، وبأظافره، قطع منهداً صدري،
تفرّج على صدري، على الرمانتين في صدري، آه لو
ضربني، لو أبكاني، لو دفعني إلى بركة النبع، لو أغرقني
فيها، لو انتقم، في رجولته، من أنوثتي، لو أخذ بشار
الحكيم بشير متّي، آه لو يأتي دغمش، هذا الذي جنّ
لأجلّي، كنت سأسلّمه نفسي، أغريه بأن يغتصبني، هنا
أمامه، وبغير حياء!»

دغمش لم يأت، الأرش لم يخرج عن صمته، الحكيم
بشير تلذذ، بغير كلام، بالإهانة التي لحقت برئيسة.. كان
ذكراً، ودون حكمة، راح يلعق ذكورته، يمضغها، يتذوقها،
يتذوقها بكثير من الأنفة، مستشعرًا، بوعي كامل، استرداد
كرامته، اندمال جرحه، قدرته على أن ينسى، أن يمحو من
ذاكرته ما كان، وما ندم عليه، حتى كاد الندم يفترسه.

حواء! يا حواء.. هذا هو آدم الذي أكل التفاحة من

يدك، كان، يا حواء، بليدًا، خاملاً، منطفئاً، وأنت التي أشعلت النار في راحته.. ويا بنت لوط، كان لوط، والدك، غافلاً، فأيقططه من غفلته، احترقت سدوم وعموراً، لا أسف على سدوم وعموراً، لاحترق سدوم وعموراً، ففي احتراقهما انبعاثٌ، تتابع للنسل، إلا أن «مغناك ملتهب ونفسك جائعة» فكيف السبيل إلى إشباع نفسك الجائعة؟ وما هي الوسيلة الأنجع لإطفاء اللهب في مغناك الذي يحن إلى الخن؟

قال الحكم بشير كاسراً جليد الصمت:

ـ اتقِ، يا الأرقش، شرّ من أحسنت إليه!

قال الأرقش:

ـ هذه، يا حكيم، حكمة معروفة.. أنا لا أبالى بدمغمش الذي يزعم أنه سيقتلني، إنه جبان أكثر مما تظن!

ـ لكنه كان قنادلاً للبشر.

ـ كان مأجوراً، والمأجورُ عبداً يبقى!

قالت رئيفة:

ـ المأجور، المستلزم، يكون غذاراً.. خذ بنصيحة الحكم، فالذي أحسنت إليه، عليك أن تؤمن شره لثلاً بعض اليد التي امتدت إليه بالخير.

قال الحكم بشير:

ـ هذا عين الصواب، ولني من تجربتي خير برهان، فقد كانت هناك امرأة على المزبلة، فأشفقت عليها ورفعتها عن المزبلة، لكنها سرعان ما عضت يدي التي امتدت لإنقاذهَا!

سألت رئيفة:

- تقصدني يا حكيم؟

- أقصد امرأة سمراء البشرة، جلست، بعد أن رفعتها عن المذيلة، على كرسي، فتملّكتها إغراء الكرسي، ومن أجلها استزلمت..

قالت رئيفة:

- إنّها قصّة مشوقة، هلاً قصصت على الأرقش، كيف رغبت في احتوائي بين ذراعيك، وكيف رفضت ذلك، ولما تجاهلت تحذيري، وصممت على احتوائي، دفعتك في صدرك، فسقطت في بركة ماء هذا النبع!

قال الأرقش:

- عرفت هذه القصّة، ولا حاجة إلى تكرارها.

- لكنَّ الحكيم بشير يلمع إليها.

قال الحكيم بشير:

- لا! أنا لا ألمح إليها، فالتي رفعتها عن المذيلة، وأعدتها إلى المجتمع الذي كان رافضاً لها، امرأة غيرك يا رئيفة.. أنت لم تجلس على كرسي السلطة، ولم يُعرِّكِ كرسي السلطة، وأنت أكرم من أن تبذلِي ماء وجهك من أجل العودة للجلوس عليه.. إنّها قصّة أخرى، لامرأة أخرى، مددت لها يدي فعضّتها؛ وسأروي، في المذكرات التي أكتبها، كيف جرى ذلك، وبكلِّ تفصيل.. إنّما حديثي، الآن، عن امرأة صيادة، حبشيّة اللون، والكرسي هو هذه الصخرة التي نجلس عليها!

قال الأرقش مازحاً:

- هذا إذا لم يأكلك الذئب، قبل أن تكتب هذه المذكرات!

قال الحكيم:

- إذن أنت لا تعرف دهائِي.. في الكتابة يوضع المُلْخَصُ أولاً، والتفصيل ثانياً. والمُلْخَصُ، وهو يفي بالغرض، كتب وانتهى الأمر، وهو محفوظ في مكان أمين، بعيداً عن هذه الغابة، إنه في بلد لا يتكلّم أهله العربية، وقد أستعين به في كتابة مذكّراتي، وربما أتلفته دون أن أكتب هذه المذكرات، كلّ شيء يتوقف على المستقبل، غير أنَّ الاحتياط واجب.. وهذه الحشيشة لي عندها ثأر، منذ رأيتها في إحدى الغابات!

سألت رئيفة:

- هل هذه حكاية واقعية، أم نسج خيال؟

ردّ الحكيم:

- هناك فرق بين الحكاية والمذكرات.. المذكرات تكون واقعية مئة بالمئة، وهي واقعية للعبرة لا للتشهير.. إنني لست مبتدئاً في الكتابة، فقد عملت في مكتب محاماة، وتعلّمت إلى حدّ الإتقان كيف تكتب المذكرات، وكيف تكون المرافعات أمام المحاكم، ولم أستخدم هذا الذي تعلّمته لإثارة أيّاماً فضيحة، إنني ضدّ إثارة الفضائح، وأكره من يلجم إلية، إلاّ أن تكون دفاعاً عن النفس، ففي الدفاع عن النفس، تُستخدم كلّ الوسائل، إذا كان هذا الدفاع صادقاً ومشروعَا.. لكن لا! لا فائدة من تذكّر ما هو سيء، لن أكتب حرفاً واحداً.

بكت رئيفة، قالت من بين دموعها:

ـ أنا لا أستحق، يا حكيم، كل هذه القسوة، إذا ما كان الأمر يعنيني.

لم يجب الحكيم، ترك الأمر ملتبساً، وفجأة هتف:

ـ ها هو دغمشأخيراً!

اقترب دغمش، ودون أن يلقي التحية، تفرّس في الوجه وقال:

ـ هذا هو الأرقش يا رئيفة.. أنت له أم لي؟

قالت رئيفة دون تردد:

ـ له!

وقال الأرقش:

ـ أنت لنفسك أولاً وأخيراً!

ـ ترفضني؟

ـ أنا لم أقل هذا.

ـ تقبلني؟

ـ لم أقل هذا أيضاً.

ـ وإذا كنت أحبك؟

ـ حب الروح ليس له نهاية، كما يزعم بعضهم، غير أن المبتدا يحتاج إلى خبر!

قال الحكيم بشير:

ـ لا أذكر أين قرأت هذه العبارة: «الحب لا يتغذى إن لم يكن شهوانياً».

- هذا صحيح إذا كان هناك حبّ، لا نصف حبّ أو ربع حبّ.. أنت، يا حكيم، كنت تعمّم في حكايتك عن التي عضّت يدك.. أم أنا على خطأ؟

- أنت على خطأ! حكّيت حكاية وانتهى الموضوع.. افهموها على النحو الذي تشاوون.

دندن هدهد بجناحيه على غصن شجرة مقابلة وصاء:
وذو القلب المصاب وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقين
صاء هدهد آخر، على ذات الشجرة:
الخليلون أومأوا بيديهم وبطرف اللواحظ العشاق
قال دغمش:

- أنا هو ذو القلب المصاب، لكنني أومئ ببن دقبيتي لا
بطرف لواحظي.. أقول هذا ليس مع الأرقوش:
رد الأرقوش بغير اكترا ث:
- سمعت!

- إذن! ماذا جئت تفعل؟
- الأرقوش لا يقدم لأحد تقريراً عما يريد أن يفعل.
قال الحكيم بشير:
- هذه هي الرجولة كما أفهمها، إلا أن الرجولة تقتضي
احترام الرجولة المقابلة.. وأنت، يا الأرقوش، من يحترمها
على النحو المطلوب، وقد تحدثت، حين كنا على انفراد،
عن الطبيعة وتوازنها، وعن تذوق الجمال، وأخذت علي
تسرعني، وسأفترض أن هذا كلّه صحيح، فقد تسرّعت ربّما،

وهذا ليس من الحكمة، إلا أنه ليس من الحكمة أيضاً أن نتشنج، أن نتجمّد، أن نضفط على مشاعرنا إلى درجة تقترب من الإعدام، أن ننكر عواطفنا حتى الامحاء، فالعاطفة لا تُمحى، وهي تعرف كيف تنتقم ل نفسها، حين تستيقظ من هجوعها، حين تمرّد على الضغط الذي مارسته عليها، والقاعدة لها استثناء، إنما حذار أن نسرف على أنفسنا في التعاطي مع الاستثناء، أو أن ننسى أن لنفسنا علينا حقاً، يحسن بنا أن نراعيه، فلا نتصلّب إلى درجة الانتصار، ولا نكون مرنين إلى درجة انعدام المبادئ، فإذا جئنا إلى الوسطية، كان علينا ألا نقبلها كلياً، أو نرفضها كلياً، وإذا قلت لي «كن بارداً أو حاراً، ولا تكون فاتراً فتتقيك نفسك» أقول لك إنني معك في هذا، ومعك في قولك إن الحب لا يكون نصف حب أو ربع حب، غير أن الحياة في تنوع معطياتها، وتعدد ممارساتها، أبعد ما تكون عن القولبة، عن التنميط، عن الخط المستقيم النافي للتعرّج، عن السلوك الجاف، الخالي من التسليات، النابذ للمسرات.. وقد كنت مصيبة، يا الأرقش، في قولك لي «الحماقات، أحياناً، لا بد منها» لأنها من طبيعة عيشنا كبشر، وأنا أضيف: «الإعجاب بالجمال هو من طبيعة عيشنا أيضاً، ومن غير المقبول، أو الممكن، أن نتجاهله، ثم نبكي عليه بعد فوات أوانه».

في هذه اللحظة صاء هدهد:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

أردف هدهد آخر:

ويسأل في الحوادث ذو صواب فهل ترك الجمال له صوابا؟
وهتف ثالث:

وكنت إذا سألت القلب يوماً تولى الدمع عن قلبي الجوابا
كانت رئيفة تصغي إلى الهداء وتفكّر: «هل للأرقش
قلب؟ وإذا كان فلماذا هو مصمت؟ ألا يرى جمالي؟ أمن
الممكن أن يكون هذا الجمال فقد الأنوثة، أم أنّ الأرقش
فقد الرجلة؟ أحبّ، وضُدِم في حبه، فتاب عن الحبّ?
عَلِمَ، وهو مريض، أنّ فدوى خانته مع نافع الداري، فجاء
لينتقم لنفسه متى؟ من متى، فدوى أم أنا، أكثر جمالاً وأوفر
أنوثة وأشدّ إخلاصاً؟ إنه لم يأت على ذكر فدوى، أو نافع
الداري، تجاهلهما، نسيهما، أم محاهمما من ذاكرته، مرّة
إلى الأبد؟ هل هناك امرأة أخرى، غيري وغير فدوى
تيّمته؟ إنه غامض، ومن صمته يرشح غموضه، وربما كان
غموضه متعلّماً، وربما كان سلائحاً من بعض أسلحته،
وربما كان عفوياً، لا يفكّر بالمرأة مادام يفكّر بالذئب
الأسود، إلا أن الذئب الأسود لم يظهر حتى الآن، مع أنه
موجود، وقد وصل به الأمر أنه راح يتجلّ في شوارع
المدن، وفي شوارع العواصم ذاتها، دون أن يتمكّن أبداً
صياد من رؤيته، ناهيك بالإطلاق عليه، وقد يستمرّ هذا
زمّناً، عمرًا بكمله، والأرقش يقول: ما عمر الإنسان بالنسبة
لعمّر الأرض؟ ذرة لا ترى بالعين المجردة، وليس من المهم
أن يُقتل هذا الذئب في حياتنا، بأيدينا، هذا قصر نظر في
أبجدية الكفاح.. بعدها سيأتي أولادنا، أحفادنا، ذرارينا،
ومطاردة الذئب الأسود ستستمرّ، جيلاً بعد جيل، بعد جيل،

وما هم؟ لتسمرة، وهذا، في ذاته، طول نفس حميد، إنما،
كما يقول الحكيم بشير، لا بأس علينا أن نتسلّى، مادام
الطريق طويلاً، وقد فهم دغمش حكمة التسلّى، بأفضل مما
فهمها الأرقش، وفهمها الحكيم نفسه فحاول، والمحاولة،
مهما تكون خائبة، تفضل عن اللامحاولة، وهذا كلّه يثبت أنَّ
الأرقش بهيم، وكي يخرج من بهيميته، علىَّ أن أستثير الغيرة
فيه!

سأل الحكيم بشير، رغبة في تبديد الصمت:

– لماذا تفكّرين يا رئيفة؟

– بالذى يبالغ في الاعتماد على ذكائه.

– تقصديني؟

ردّت رئيفة بجدية:

– أنت، يا حكيم، أذكي من أن تبالغ في الاعتماد على
ذكائك.

قال دغمش:

– أنا خارج اللعبة، لأنّي لا أتعاطى الذكاء أصلًا.. إذا
أردت شيئاً طلبه رأساً، بغير حلقة أو تزلف.. إنّي،
أمامكم جميعاً، أعلن رغبتي في حبّ رئيفة..

قاطعه الحكيم ضاحكاً:

– شريطة أن تحبك هي أيضاً!

– ولماذا لا تحبني؟ بندقيتي قادرة على إزالة العقبة من
طريق هذا الحبّ.

– فشرت!

- أنت تمون، يا حكيم، على رقبتي، لكن لو قال هذه الكلمة غيرك لأدّبته.

قال الحكيم ساخراً:

- اشرح لنا من فضلك الطريقة التي ستؤديه بها.

- هذه لا تحتاج إلى شرح.

قالت رئيفة:

- أنت رائع يا دغمش!

قال الحكيم:

- في قنصل البشر.

غضب دغمش وقال:

- أنا تبت يا حكيم، وهذا ما قلته لك مئة مرّة حتى الآن، لكنك لا تصدّقني.

- ولن أصدّقك أبداً.

سألت رئيفة:

- لماذا؟

- لأنّ وجود دغمش في هذه الغابة ليس لقنصل الذئب، بل الذئبة.

- وإذا كانت الذئبة راضية؟

- الرضى هنا مغشوش، وكي أثبت ذلك، وكي تكوني مؤمنة بأنّ دغمش رائع كما تقولين، فإنّ التجربة خير برهان.. المأذون جاهز، ونحن الشهود، ما رأيك؟

ردّت بحقن:

- رأي أنتي سأعطي نفسي لدغمش بغير زواج.
- قصدين زواج المتعة؟
- قلت دون زواج من أي نوع.
- اذهبي أنت ودغمش إلى قلب الغابة إذن.
- هذا أمر يخصنا وحدنا.
- فرك دغمش كفيه سروراً وقال:
- نعم! يخصنا وحدنا.. تعالى يا رئيفة.

نهضت رئيفة، أمسكت بيد دغمش، ألقت نظرة على الأرتش، وجدته مطروقاً يفكّر، وربما لا يفكّر، أنه مسكون بلا مبالاة قاتلة، كان شيم القلب - «واحرّ قلبه ممن قلبه شيم»! الانتقام لن يكون انتقاماً.. حتى لو أسلمت نفسها لدغمش، فإنّ الحرارة لن تدبّ في الحجر، حجر هذا الأرتش. فدوى، قبلها، خانته، فلم يأبه لخيانتها، وجدها عاديّة، طبيعية تماماً، مادام هناك حبّ، مادام هناك توافق، مادام هناك زواج متعة، يقبل به الظرفان، في ظرف التواعد هنا، في هذه الغابة. أمّا هي، رئيفة، فإنّ وضعها يختلف، لأنّها لا تحبّ دغمش، ولأنّ قولتها: «أنت رائع يا دغمش» لم تحرّك في الأرتش ساكناً، سمعها جيّداً، قال: «سمعت» وكأنّه لم يسمع، بقي الحجر حجراً، ومحاصرتها مع دغمش، في زواج متعة عابر، لن يكون حظها من النجاح بأفضل من مغامرة فدوى، ومع ذلك قررت أن تقوم بها، وقامت بها بحرف كليّ. وحين عادت إلى النبع، كان الحكيم بشير والأرتش قد غادراه، لا تدرى إلى أيّ جهة من الغابة.

إحباط كلي، انتقام فاشل، تحمل ما لا يُحتمل، تسليم جسد إلى وحش، شعور بالتفزّز، تمزق داخلي، مديبة حادة نصلها في القلب، وما بقي هو ابتلاء الأسى، مضغه علقمًا، الكتمان «جحدته وكتمت السهم في كبدي» إلا أن الجرح، في ثورة الغضب، كان جرحاً لا يطاق، له ألم وألم، كيف يتحمل الألم؟ أخطأ من قال: «جرح الأحبة عندي غيرُ ذي ألم» لمن تشكو؟ وهل نفعت يوماً شكاوة؟ لعله، الأرقش، في نداوته والرجولة، مشغول بما هو أهم من الحب، «لعلَّ له عذرًا وأنت تلوم» حماقة! الحكيم بشير نفسه ليس ضدّ الحماقة، من حين إلى حين، قال: « علينا ألا نخاف، من بعض الحماقات.. نحن بشر!» نسي، أو تناهى، على الأقلّ، حماقة رئيفة معه «هذا الحكيم العزيز، الناذر نفسه لمطاردة الذئب الأسود، المرجع لكلّ صياد أو صيادة في هذه الغابات، بشر، رجل، وقد رغب أن يعبر عن إعجابه بجمالي كرجل، أن يحتويني بين ذراعيه، وربما أن يقبلني في خدي، وماذا في ذلك؟ أن نعجب بالشيء يعني أن نستلطنه، أن نحبّه، وفي المال أن نتزوجه، والحكيم استلطفي، ولعله أحبّني، وفي الذهاب إلى آخر الشوط، قد يكون راغبًا في الزواج مني، فلماذا دفعته في صدره، وأسقطته في بركة الماء؟ وماذا كان رد فعله؟ الصمت! داري جرح كرامته بالصمت، هذا متنه الشهامة، هذه هي الكياسة، هذه قمة الحكمـة، وما فعلته، في اغتراري بجمالي، كان ذروة الوقاحة.. نحن نحبّ، ويحبّ الآخر الأخرى، وتحبّ الأخرى غيره، وأنا أحبّ الأرقش، إلا أنّ الأرقش يحبّ غيري ربما، والتي يحبّها قد تحبّ

غيره، وهذا الانتقام التافه كان يجب ألا يكون، غير أنه كان، والماء المسفووه على الرمل، يمتصه الرمل، ولا فائدة من محاولة لمه، فالمحاولة هنا عبثية، والحكيم، لو فاتحته بما يشقني، لا بتسم، مدركاً عبثية شقائي، الذي لا رجوة منه، بعد أن وقع ما وقع.. لكن الذي وقع كان عمداً، كان انتقاماً، وعلىي أن أتابع، أن أنتقم، وانتقامي رهيب، لأنّه ببساطة انتقام امرأة!»

نادت دغمش إليها، أجلسته إلى جانبها، أبدت له من المودة ما لا يتوقع، سأله:

ـ هل كنت مسروراً معى؟

أجابها:

ـ غاية السرور..

لعق شفتيه بلسانه وأضاف:

ـ السرور كلمة لا تعبر عما شعرت به من لذة.. أنا، باختصار، ازددت الآن جنونا.. جنوني السابق لا يقاوم بجنوني اللاحق.. لا أصدق أني كنت لي، أحسب أن ذلك كان في المنام.. ما رأيك أن نعيد الكرة!

ابتسمت رئفة بإغراء امرأة تملق رجالاً.

ـ أنت تخيفني عندما تهتاج، أو بكلمة أدقّ عندما تغتلم، لو أعدنا الكرة الآن لأكلتني بأسنانك، لذلك أنا خائفة، راغبة في أن ألتّ معك، وخائفة منك.

قال دغمش:

ـ لا تخافي سأعاملك بلطف.. إذا توجعتِ، وكلّ امرأة

تتوّجع حين تنام معي، لا تصرخي صرخاتك الملعونة..
الآنين وحده يكفي.. هذا وحده يجعلني ثوراً يضاجع
نعة.

ـ وإذا كنت اللذ مع الرجل الثور أكثر؟

ـ سأكون ثوراً.

ـ وأنا لن أكون نعة.. سأجعل أوصالك تنحل، هل
عرفت امرأة جعلت أوصالك تنحل؟ لا؟ أنا هي هذه المرأة!
أنت غبي يا دغموشي، لا تعرف المرأة الحقيقة مثلّي!

ـ عرفت، وأنا قنّاص، نساء كثيرات..

ـ لكنك لم تعرف امرأة بجمالي، وامرأة شبقة مثلّي..
أنا خائفة عليك منّي!

تفرّس فيها دغمش، وقال:

ـ كفى! لم أعد أحتمل.. كلمة أخرى وأصبح أنا الذئب
الأسود.

ـ وعندي يقتلك الأرقش.

صرخ دغمش:

ـ يقتلني؟ أنت، إذن، لا تعرفي دغمش القنّاص..

قالت رئيفة وهي ترفع ذراعيها ليرى إيطيها:

ـ أعرفك يا دغمش، أعرفك جيداً، ولا أستطيع أن
أعرف اللذة مع غيرك، ما رأيك أن تتزوجني زواجاً شرعياً
دائماً.

ـ هذا هو ما أتحرق شوقاً إليه.

- أنت، يا دغمش، تبدو كأهبل أحياناً.. تتحرق شوقاً للزواج بي، ناسياً أنَّ الأرقل يترصدني.. ألا تخاف الأرقل.

غضب دغمش، شعر بطعنة في خاصرته، قال والشرر يتطاير من عينيه:

- اسمعي يا رئيفة! أنا لا أخاف إلاَّ الله.. قتلت، عندما كنت قناصاً، رجالاً كثيرين.. رصاصتي لا تخيب، لأنني امتهنت إطلاقها، حتى صرت بارعاً في تصويبها إلى حيث أريد، وفي النقطة التي أريد.. سلي الحكيم بشير عنّي، يخبرك من أكون.. ثم لماذا أخاف الأرقل؟ ولماذا تخافينه أنت؟ ومن هو الأرقل هذا؟ تزوجيني مادمت راغبة في الزواج، وبعد ذلك لا تبالي!

وقفت رئيفة، صوبت نظرات لبوة إلى عينيه الحمراوين، أمسكته من كتفيه وهزّته بقوّة، ففتحت كأفعى وقالت:

- أتزوجك، يا دغمش، على طلب! هل تفهم ما أقول؟

ردَّ دغمش بنبرة فيها بحة الانفعال:

- اطلبِي!

- اقتل الأرقل.

- ماذا؟

- اقتل الأرقل.

أجاب من فوره:

- سأفعل!

وسادت السكينة الغابة كلها.

كان الحكمي بشير، العارف بكلّ ما يجري في الغابات، على يقين أنَّ الأرقش قد شفي تماماً من الحمى التي أصابته، وأنَّ أيام النقاوه التي مرّ بها لم تكن طويلة، ولا تحتاج إلى المزيد، وقد فرح الحكمي بشفاء الأرقش، كما فرح، قبله، الذين كانوا يحيطون به وهو مريض: من الطيب ياسر، إلى ميلاد، إلى صقرش.. وكانت قنطرة أشدّهم فرحاً، لأنَّها الأكثر سهراً عليه وعلى تمربيشه، وإعطائه الدواء في مواعيده المحددة، ولأنَّها، فوق ذلك، تقدَّم مثله حماسة، وتشاركه الاعتقاد أنَّ الإطلاق على القلاع، مفرخة الذئب السود، به يكون الانتصار أو لا يكون!

الأمر الوحيد الذي أفلق الحكمي بشير، كان صمت الأرقش، سهومه، غموضه، عدم اكتراثه برئفة، ردَّه على تحبيتها بفتور واقتضاب، الرغبة عن طرح أيَّ سؤال، حتى فيما يتعلق بفدوى، إعراضه عن دغمش، الذي يعرف الجميع أنه يزمع قتله، إذا حال بينه وبين رئفة.

وحتى عندما غادرا النبع، فإنه لاذ بالصمت، تجلب بالغموض، معطياً نفسه، كلِّياً، إلى ما يحيط به من روائع الغابة، التي يتوجَّلان فيها، الحكمي بشير وهو، إلى لامكان،

دون هدف، في استمتاع بهم، وفي حفاظ على السكينة، كائناً ما يخشى أن يخدش خدّها، أن يجرّح روحها، أن يبدد الهدوء السائد فيها، إذا هو نطق بأيّ كلمة، أو ندت عنه أيّ نّة.. فقد كانت الغابة، والأماكن العذراء فيها خصوصاً، مهوى قلب الأرقوش، وكان الصمت، بالنسبة إليه، صلاة مموسة؛ وابتهالات الأشجار نداءات إلى الخشوع، واكتشافات المجاهل، من أمامه ومن حواليه، تعطيه مسراً، كالذى يعطيه نهر الأردن، لمن يتعمّد في مائه الطهور، بينما صوت من الغيب يتردّد في كل الأنحاء، «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت»؛ والأرقوش يدرك جيداً، أنَّ هذا الابن متذوّر للفاء، للخلاص من الخطيئة الأولى، والإشهار السوط على الصيارة، الذين حولوا المعبد من مكان للعبادة إلى مكان للتجارة، بينما الابن يحمل صليبه صاعداً إلى الجلجلة كي يأتي البعث، من ثمّ، تتویجاً للشهادة في الموت، محققاً نبوءة الذي قال: «لولا ثورة سبارتا كوس ما كان الصليب، وما كانت القيامة بعده!».

«وداعاً عذاري الحب في خيم الهوى» وداعاً للتي كانت، وما كانت، وظلّت في المبتغى حلمًا يراود. وداعاً للعشق والعاشقين جميعاً. وداعاً للبدر الذي بان وما بان، وظلّ خفيّاً. وداعاً للذى لم يعش، من بعد الأحبّة، سلوة، «لكنه للثانيات حمول». وداعاً للأنثى الذي يخون المؤسّ هيبيتها «وال المؤسّ أعمى، فتعى ثم تنقلب، وصبراً جميلاً للكأس الفارغة» «ففي كلّ عام ينضج العنّب!».

كان الأرقوش يتكلّم في ذاته، يودع عذاري الهوى، يتأنّل

الحياة، راغبًا عن الكلام المنطوق، حفيًا بالكلام الصامت، مندمجاً، وهو يودع، على غير يأس، أشياء هاجعة في النفس، تضعدُ من الأعمق تناهياً، تداعياً، لكنها في المحصلة دموعات صدر يكاد ينفجر من ضيق.. والحكيم بشير، في سكينة الغابة، أدرى بما توحّي به سكينة الغابة، وفي استعلان المضمر، يهدس بما يعذّب الأرقش، الذي تشغله أبداً مسألة القلّاع وأسيادها، مستنتجاً أنَّ هذا الانشغال فيه مُسرَّبٌ إلى التهلّكة، يتخفّى وراء هوا جس خطيرة، إذا ما كانت المغامرة غير محسوبة النتائج.

إنَّ العدالة الاجتماعية لن تكون مادام الفساد كائناً، والذئب الأسود، حتى الآن، وهم، لكنه حقيقة أيضاً، وهذا ما يعرفه الصيادون جميعاً، نقلأً عن الحكيم بشير أو غيره، والأرقش مصيبة في توكيده أنَّ هذا الذئب يولد ويتناسل في القلّاع، ودون الإطلاق على القلّاع تصبح مسألة اصطياده لعبة عبّية، إلا أنَّ القضية، في توق الأرقش إلى القضاء على القلّاع، لعبة عبّية أخطر، إذا ما كان التسرّع دافعاً إليها، والحكيم بشير، في خبرته والتجارب، على يقين قديم جديد بأنَّ الأرقش متسرّع فيما يطمح إليه، وأنَّ الأوّل قد آن لمفاجنته في خطأ تفكيره، وفي ردّه عن هذا الخطر إذا اقتضت الضرورة.

الأرقش شجاع، هذا لا يُشكّ به، والأرقش مصيبة في ما يذهب إليه حول القلّاع، وهذا أيضاً خارج دائرة الشكّ، وهو، كما نمي عنه، للناثبات حمولٌ، وهذا جيد. إلا أنَّ أعصابه مشدودة أكثر مما يتحمل، وهنا السوء، هنا المقتل،

هنا إلقاء النفس إلى التهلكة، وكل هذا مرفوض، ولا بد من أن يقال له بصراحة وحزن.. لا بد من تذكيره بأنَّ الطريق إلى نجد طويل، ولا بأس من إزالة الغشاوة عن عينيه، حول طول الطريق وتناوله، فالإحساس الشاعري جميل، إلا أنَّ الإحساس الواقعي لا يقلَّ جمالاً، والسؤال في الاشتياق لا ينبغي، كما قال المتنبي، أن يكون تعليلاً بأيِّ شكل!

الحكيم بشير لم يكن راضياً عن موقف الأرتش من رئيفة، عن جفائه والاقتضاب في الكلام معها، ولم يكن راضياً عن لامبالاته بما وقع بين فدوى ونافع الداري، فالمرأة هي المرأة، وقد تكون، في حياة الأرتش، امرأة غير رئيفة وفدوى، فإذا لم تكن، بداع من انشغاله بمسألة القلاع وحدها، يكون قد جاوز الحدّ، نسي أنَّ عليه، كي يتحمل طول الطريق إلى الهدف، أن يتسلّى، أن يتزوج، بحبٍ أو بدونه، أن ينجب كسائر الناس، أن يجد سبيلاً إلى سعادة ما، يجعل أيامه أكثر هناءً، وبذلك وحده يتفادى الانقصاص، بسبب من أنه لا يعرف التعامل مع المبادئ كما ينبغي. قال الحكيم بشير وقد توقفا في بقعة خضراء من الغابة:

- صمتك الطويل، يا الأرتش، أثار فضولي، بماذا كنت تفكّر؟ بالملائكة أم بالشياطين؟

أجاب الأرتش:

- كنت أودع ما صار ورائي، لأنفرغ كلياً لما هو أمامي.

فاجأه الحكيم بكلمة غير متوقعة:

- الانتحار!

- وما العيب في الانتحار إذا كان في سبيل قضية عادلة وشريفة؟ لكن مهلاً يا حكيم! إنني من الذين يرغبون في دقة الكلمات.. أمل أن نضع بدل كلمة الانتحار المفادة مثلاً.. لست مع الانتحار في كلّ وجوهه، إنه، ومهما كان الدافع إليه، جنون يأس، ولست مجنوناً أو يائساً.. ما هو ورائي الماضي، وما هو أمامي المستقبل، قراري الذي لا رجعة عنه أن أتفرّغ لهذا المستقبل، أن أتخفّف من القيود التي تعوق تقدّمي نحو الغاية التي ندرث لها نفسي، والمرأة قيد، والأطفال «مجبنة مبخلة» ورفض القيد لا يصح مع الجبن والبخل، لأنهما، بالنسبة للرجل، أشدّ القيود إعاقة، لذلك ودّعت أشياء كثيرة، سترفها يوماً ما، وإذا كنت، أنا، متسرّعاً في الاندفاع نحو هدفي، فإنك، أنت، متّعجل لمعرفة ما يدور في رأسي.. وما يدور في رأسي، يا حكيم، ليس سرّاً أكتمه أو عيباً أخفّيه، إنه القلاع، حيث منبت الذئب الأسود، وبغير القضاء على المنيّت، يصبح عبئاً كلّ جهد للقضاء على النبت.. وعلى هذا فإبني، في صمتي، ما كنت لأفكّر بالملائكة أو الشياطين، فتفكير كهذا عبئي، غزل على مغزل مكسور، مضيعة للوقت، ولو سلّكنا سبيلاً كهذا لوقعنا في حفرة أعدائنا، ونطق لساننا بلسانهم، وهذا هو الضلال. أمّا المرأة، وسواء التي أحبّتني أو خانتني، فإنّها موضع تقديرٍ، موضع احترامي، لكنّي، بدل التفكير باحتواء خصر المرأة التي على البثر، والسقوط من بعد في حوض مائه، فإبني أفكّر بالمرأة التي خان البؤس هيّبتها، فأعيبت، وسقطت في وهة بيع الجسد، في سبيل اللّقمة.. وإذا قلت لي إنّ الدّعارة أقدم مهنة في التاريخ،

أجبتك أنَّ الظلم، حتى في قِدَمِ التارِيخ، كان موجوداً، متذَّهَّلْتَ عَنْ عَهْدِ المشاعِيَةِ الأولى، وامتنَّتْ هَذَا الظُّلْمَ مَعَ عَهْدِ الرُّقْ، حَيْثُ سَادَتْ الْعُبُودِيَّةُ، إِلَى عَهْدِ الإِقْطَاعِ وَمَا تَلَاهُ مِنْ أَنْظَمَةٍ فَاسِدَةٍ، كَانَ فِيهَا جَسْدُ الْمَرْأَةِ تِجَارَةً مِنَ التِّجَارَةِ، وَلَا يَزَالُ حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا قَائِمًا!

ابتسِمَ الحكيم، وقال:

ـ الشُّكْرُ لِللهِ، يَا أَرْقَشُ، عَلَى أَنَّ عَقْدَةَ لِسانِكَ قد انحلَّتْ أَخِيرًا.. هَذَا كُلَّ مَا كُنْتَ أَرْجُوهُ، وَقَدْ تَحَقَّقَ بَعْدِ صَبْرٍ طَوِيلٍ.. أَمَّا مَحَاضِرِكَ الْمَوَارِدُ بِالْحَمَاسَةِ، فَقَدْ أَفَادَنِي فِي تَذَكَّرِ مَا كُنْتَ نَسِيَتَهُ مَعَ التَّقْدِيمِ فِي الْعُمَرِ.. مَنْطَقَكَ سَدِيدٌ، وَحَجَجْتُ دَامِغَةً، وَلَوْ فَزَتْ بِالْحَقْوقِ، وَعَمِلْتُ فِي الْمَحَامِيَّةِ، لَنْلَتْ رِزْقًا أَوْفَرَ، وَدَفَعْتُ عَنِ الْمُظْلُومِينَ ظَلَّمًا أَفْدَحَ، إِلَّا أَنَّ الرِّيَاحَ.. وَأَنْتَ أَدْرِي.. مَا رَأَيْكَ بِسِيكَارَةَ، نَفَثْتُ مَعَ دَخَانِهَا بَعْضَ مَا فِي صُدُورِنَا؟

وَاقَعَ الأَرْقَشُ، أَشْعَلَ سِيكَارَتَيْنِ، نَفَثَا دَخَانَهُما بِاسْتِرْخَاءٍ، تَأْمَلُ الحكيم الدُّخَانَ الْأَزْرَقَ الْمُتَصَاعِدَ دَوَائِرَ حَلْزُونِيَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّلَ فِي الْفَضَاءِ، أَشْعَلَ سِيكَارَةَ مِنْ سِيكَارَةٍ وَهُوَ يَمْشِي بِخَطَا بَطِيَّةَ شَبَهِ مَوْزُونَةَ، مَعَ أَنَّهَا عَفْوَيَّةٌ تَمَامًا، مَتَسَائِلًا فِي نَفْسِهِ: «هَلِ الشَّجَاعَةُ نَقِيضُ الْحُكْمَةِ، أَمْ أَنَّ الْحُكْمَةَ عَلَى اتَّسَاقٍ مَعَ الشَّجَاعَةِ؟ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّابِيِّ قَالَ: «مَنْ يَتَهَيَّبُ صَعْدَةَ الْجَبَالِ، يَعْشُ أَبْدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحَفَرِ» وَالْمُتَنَبِّيُّ قَالَ: «الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشَّجَاعَانِ، هُوَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ وَهِيَ فِي الْمَقَامِ الثَّانِي» فَأَيْنَ الصَّوَابُ وَأَيْنَ الْخَطَا فِي الْقَوْلَيْنِ؟ الأَرْقَشُ، فِي شَبَابِهِ وَالْإِقْدَامِ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مَا قَالَهُ

الشابي، وأنا، في هرمي وفتور العزم، ينطبق عليّ قول المتنبي، وهنا تعارض إذن، هنا الشباب مقابل الشيخوخة، فلماذا عليّ، فيشيخوختي، أن ألوى شكيمة الأرتش، في شبابه؟ إنه، كما قال، ضد الانتحار، لكنه يتصرف، إذا لم تصرف، بدفع من الرغبة في الانتحار، فإذا جاملته، إذا لم أردعه، أو حتى إذا لم ألغته إلى العواقب، أكون أنا من يتحمل مسؤولية هذه العواقب، فماذا عليّ أن أفعل؟ أذكره بأنّ الانتفاضة على القلاع، إذا لم تتطابق مع بلوغ الأزمة ذروتها، مصيرها الفشل؟ فأين هي الأزمة الآن، وأين شرط بلوغها الذروة؟ إنّهما غير متوفرين، وعدم توافرهما يستوجب التريث، لأنّ الصيادين، في الغابات الائتلتين والعشرين، استنفرهم الذئب الأسود، لا القلاع التي تفرخ الذئب الأسود، وهم يدركون، أو بعضهم على الأقلّ، أنّ أسياد هذه القلاع بنوا قلاعهم من مداميك رغيف الفقراء، وانتزاع هذه المداميك، لإسقاط قلاعها، يتطلب القوة الكفيلة بذلك، وهي غير متوفرة من جهة، والصيادون غير مهيئين لها من جهة ثانية، وفي هذه الحال نعود إلى النقطة التي انطلقنا منها: التريث والانتظار!

قال الأرتش، بعد أن أصغى إلى شرح الحكيم بشير

بانتباه:

– هذا معناه واحد: تهيب المصاعب، تهيب صعود الجبال، والعيش بين الحفر!

ردّ الحكيم بالأسلوب الذي استخدمه الأرتش:

– الرأي قبل شجاعة الشجعان.

- هذا كلام شاعر.

- وأنت اتكأت على كلام شاعر آخر.

قال الأرقش:

«أمس كان باكرًا، وغدًا يفوت الأوان، الآن!»

ابتسم الحكم بشير، وقال:

- أعرف كلام لينين هذا، وأعرف الزمان والمكان اللذين
كانا، عندما قال عبارته هذه، ودون الدخول في التفاصيل،
فإنَّ لجوءك إلى إيديولوجية التاريخ، وتعدادك بعض الأنظمة
التي عرفتها البشرية، لا يفيدان في شيء.. ت يريد أن تغامر
بمفردك؟ غامر! إنما تذكر أنَّ حماسة إنشاد: «ذهبْتُ أعلامنا
خافقة» غير مجدية إذا كانت هذه الأعلام غير خافقة..
وأنت تعرف أنها غير خافقة في الوقت الحاضر.

كان الأرقش على شيء من دهاء، وعلى معرفة جيدة
بالسياسة، وهو أبعد نظرًا من أن يغامر، بمفرده أو مع سواه،
ضدَّ القلاع وأسيادها الذين اغتنوا بطرق غير شرعية، إنما يريد
أن يبصر الناس بالحقيقة، أن يجعلهم صانعي أحلام حتى لا
يسقطوا في العدم، وكلَّ حلم لا بدَّ أن ينبني على هدف،
والهدف الأساس، في رأيه، ذو مصدر، وإنَّ كان عديم
الفائدة، وفي قضية الذئب الأسود، القلاع هي المصدر،
لذلك يرغب بتعريف الصياديَّين في الغابات والمدن بهذا
الأمر، الذي دونه تفشل الإبرة في أن تخيط من نسيج
العنكبوت، أيًّا نوع من القماش.. لذلك قال للحكم بشير:
- اطمئن! لن أغامر، في الوقت الحاضر، بمفردي أو مع

الآخرين ضد أي قلعة، في هذه الغابة أو غيرها.. ومثلك تماماً أتعامل مع السياسة من منطلق فهم الاقتصاد، فكيف ترى إلى اقتصادنا؟

قال الحكيم:

- أراه سيّنا، لكنه لم يبلغ بعد درجة الاحتراء.

- أي لم تبلغ الأزمة الاجتماعية النقطة التي معها يمكن أن يتحرك الناس نحو الهدف الذي أحده.

- هذا ما يجب أن تعرفه!

- ومن قال إنني أجهله؟ الفارق بيننا، يا حكيم، إنك تتوقف عند الشّرّ، دون أن تحدد مصدره، وفي هذا نقص شديد في التربية السياسية.. تقول للناس إن الذئب الأسود هو الخطر، وتisksك عن مصدر هذا الخطر.. لماذا؟

- لأننا لا نستطيع، حالياً، أن نكشف مصدر الخطر، وحتى لو استطعنا فإن علينا ألا نكشفه، لثلاً نقع في المصيدة.

- مصيدة من؟

- أسياد القلاع طبعاً!

- وتحسب أنهم لا يعرفون ماذا نعمل، ومن نطارد؟ إن لديهم من الذكاء ما يكفي لمعرفة كل شيء عنا.. إنهم، يا حكيم، ورثة أجدادهم وأبائهم في الذكاء، ولديهم خبرة سلالة كاملة في الحنكة والدهاء، وكذلك في نصب المصائد.. فإذا سألت لماذا لا ينصبون هذه المصائد؟ أجوبتك: لأن مطاردة الذئب الأسود لا تشکل خطراً

عليهم.. إنهم، من كوات قلاعهم، يرون بالمناظير تحركاتنا ويضحكون.. هل سمعت بالرجل الحليم الذي كان يُشتم فلا يردد على شاتميء، حتى قال له أحدهم «إياك أشتمن!» فرداً عليه: «وعنك أغضي؟» إن هذا الرجل الحليم، لم تكن الشتائم تضره في شيء، أما لو امتدت يد إلى أملاكه لقطع هذه اليد، وانقلب من رجل حليم إلى رجل لا يعرف الحلم.. هذه الحكاية تنطبق علينا تماماً، فمطاردة الذئب الأسود لا تضرّهم في شيء، مadam الذئب الأسود عصيّاً على الاصطياد، ومادامت قلاعهم قادرة على تفريخ الكثير منه، وعلى افتراض أننا أصدطناه، بعد طول عناء، فهذا ما يسمونه قطع ذنب الأفعى وترك رأسها سليماً..

قال الحكم بشير:

- أنت، يا أرقش، تؤكّد ما قلته لك.. أصحاب القلاع حلماء أيضاً، وحكماء أيضاً وأيضاً، ويعرفون، إلى حدّ الإتقان، الفلسفة المادّية، ونحن نتكلّم على الجدلية علمياً، ولذّتهم، هم، يطبقونها فعلياً.. والتعامر حميد في ذاته، على أن يكون في وقته، أما خارج هذا الوقت، وعندما تكون الظروف غير مواتية والأزمة لم تبلغ ذروتها، فإنّ المغامرة هي التهلكة بعينها، لذلك نهيتكم عن المغامرة، بمفردك أو مع سواك. أما إنشاد «ذهبت أعلامنا خافقة» فهو لغو، حماسة نار في هشيم، فأعلامنا، يا أرقش، لا تتحقق مع أيّ ريح، وإذا كان القصد من إنشادها استنهاض الهمم، فإنّ هذا الاستنهاض يحتاج إلى رافعة اسمها الاقتصاد، واقتصادنا، إذا كنت لا تدرّي، لا يشكّل أيّة رافعة الآن..

إنه في وضع عسير، وقد سمعت سيدة تتغنى، في مقابلة أجريت معها تلفزيونياً، بسياسة العرب الخارجية المزدهرة، لكن ماذا بشأن سياستنا الداخلية، حين لا تكون هناك سياسة داخلية سليمة؟ والسياسة، في الحالين، لا تُفهم إلا من خلال الاقتصاد، وأنت أعلم بهذا، فكيف، بالله عليك، نفهم ازدهار السياسة، خارجية كانت أم داخلية، من خلال اقتصاد غير مزدهر؟ ولماذا نوتّر أعصابنا، كما تفعل أنت، إذ كان هذا التوتر ضاراً راهناً؟ أنت تستشهد بلينين، وهذا ميسور لمن أراد، إلا أنّ علينا ألا ننسى، أنّ لينين قال: «لا تشذّد إلى درجة الانقصاف، ولا مرونة إلى درجة فقدان المبادئ.. اللعنة علىي، لأنّني أكرر نفسي! اعذرني يا أرقش، أرجوك اعذرني، فقد تكلمت بنبرة النصوح، بينما، أنا نفسي أحتج لمن ينصحني!

فتح الأرقش فمه ليقول شيئاً، إلا أنه لم يقل أي شيء. وجد نفسه فجأة على قفاه، وسط دغل شائك، في اللحظة نفسها التي أزّت فيها رصاصات، ذات دويٍ عَكَر سكون الغابة، منداحاً في فضائها الواسع، والحكيم بشير يستلقي منبطحاً على الأرض، ووقع أقدام هارية، في الاتجاه المقابل «ما هذا؟ ماذا جرى؟» تسأله الأرقش وهو يحاول النهوض، بينما الدم يسيل من الخدوش التي أحدثها شوك الدغل، في ساعديه ورقبته، والحكيم بشير يطلق الرصاص على الأدغال المحيطة، دون أن ينهض واقفاً، لسبب لا يزال الأرقش يجهله.

بعد وقت قصير استعادت الغابة سكينتها، ساد هدوء

أخرس، تلاشى وقع الأقدام، ومعه الصدى الذي أحدثه إطلاق الرصاص، فكر الأرقوش أن بعض الصيادين يطلقون على الذئب الأسود، وقد سره أنهم عثروا عليه أخيراً، لكن ماذا بشأن الحكيم بشير، الذي راح يطلق على الجهة التي تعلق منها وقع الأقدام؟ ولماذا أطلق الرصاص وهو منبطح على الأرض؟ ومن الذي دفعه إلى الدغل، بحركة كلمع البصر؟ وأي أذى في أن يكون الإطلاق على الفرائس؟ وأية فرية ارتكبها الصيادون، إذا ما كانوا يطاردون حمار الوحش مثلاً؟ إن هذا من حقهم، وكان عليهم ألا يخافوا فيهربوا، وكان على الحكيم ألا يطلق عليهم، وهو المعروف بتشدده، حتى مع الذين يصطادون الفرائس طمعاً بلحومها، وحاجته في ذلك أنهم يبدون ذخيرتهم من الرصاص، وهي مخصصة لاصطياد الذئب الأسود فقط.

عندما انتصب الحكيم واقفاً، كان الأرقوش يحاول مسع الدم النازف من الخدوش، وبحركة سريعة مرق الحكيم منديله، وقال للأرقوش:

– لنعد إلى النبع، بعد هذه الإسعافات الأولية.

قال الأرقوش:

– خدوشي ليست عميقه، وقد ربطنها بمزق المنديل، وهذا في رأيي يكفي.

رد الحكيم آمراً:

– لنعد إلى النبع، وبأقصى سرعة ممكنة.. هذه الخدوش تحتاج إلى غسل، وإلى ضمادات متوفرة هناك.. أنت، يا أرقوش، يجب ألا تعرّض جسدك للشمس، وإلا توزمت

الخدوش، وعندئذ تقع في ورطة.. اسمع ما أقول، واعمل بما أقول، دون اعتراض أو مماحكة.. هيا!

كان الأرقش قد اعتقد أن يكون الأمر وليس المأمور، أنه، عند نفسه، فتى الغابات، إذا قال، كان على الآخرين أن يسمعوا، وإذا فعل تعلم الغير من فعله، وفي التخاطر له الباع الطويل، وفي المجالس له الصدر دون أي من الحاضرين، وكان في النداوة صاحب اليد البيضاء، وفي الوغى من يتلقى السيف بصدره، «ويعيدها مزقاً على الصحاح».. ويحيط من عنترة قوله «هلا سالت الخيل يا ابنة مالك». وفي معاينة الموت يجعل الموت يتراجع، وهو يحدق فيه بعيون أفعى، باردة النظارات، ثم لا تتوسط عنده ولا فتور، ومن هذا المنطلق تجرأ على القلاع وأسيادها، وكان أول من قال إنها مصدر الشر، وإن الشر باق ما بقيت هي، فما بال هذا الذي يسمونه بشير الحكيم، يأمره فیأتمر، ويطلب منه فيذعن، ويقول له: «اسمع ما أقول، واعمل بما أقول، دون اعتراض أو مماحكة!».

في الطريق إلى النبع توقف متفضساً، وقال للحكيم بشير:
ـ هل سمعت بالذي شق صدره، وجعل من قلبه مشعلاً
ينير الطريق لمن معه؟

رد الحكيم بنبرة صارمة:

ـ أنت، يا أرقش، لن تشق صدرك، ولن تجعل من قلبك مشعلاً، لأننا لسنا في غابة مظلمة، ولأن هذه الأسطورة تبقى أسطورة نافلة في مثل وضعنا.

نزع الأرقش مزق المتليل الذي تعصب جراحه، وقال:

— لا حاجة لي بها، كما لا حاجة إلى الضمادات.. إنني
معتاد على رؤية الدم!
توقف الحكيم وقال:

— للشجاعة وقت، وللرعونة وقت آخر.. ما فعلته رعونة
لا شجاعة، دع عنك هذه الولدنات.. هيا إلى النبع
وبسرعة.

استاء الأرقش، أخذته رعدة كمن أصيب بالبرد، وقال
بغضب:

— لست أنا من يتولدن يا حكيم، هل تسمع؟ ولو كان
غيرك من قال بهذه الكلمة لكان لي معه كلام آخر.
قال الحكيم مجازيًا:

— عن أيّ كلام تتحدث؟ الولدة، يا أرقش، لا يُردد عليها
بولدة أكثر حماقة.. تقول إنك معتاد على رؤية الدم؟ هذا
لغو ما كنت أتوقعه، لأنّه لا يليق بك.. دم الخدوش ليس
بالدم الذي يخيف، إنّه دم من النوع الذي يعرفه أيّ زبون،
 عند أيّ حلاق، يُداوى بالشبة فيتوقف نزيفه. أنت، ببساطة،
 تريد أن تقول لي: «أنا لا أخاف!» والشجاعة لا تكون بعدم
الخوف، إنّما بالصمود له.. هل تفهم ما أقول؟

ردّ الأرقش بحق:

— لا! لا أفهم، ولا أريد أن أفهم، لأنّا نتكلّم لغتين
مختلفتين.

سأل الحكيم بشير:
— وكيف السبيل إلى تكلّم لغة واحدة متفقة؟

– أن تقلع عن إعطائي دروساً في الحكمة! أن تعذر
عما قلته حول ولدنتي .. إنني الأرتش، وأنت لا تعرف من
هو الأرتش، وكلامك عن الحلاق وزبونة غير لائق
ومرفوض تماماً.. وحين أقول إنني معتاد على رؤية الدم،
فإنّ قولي لا ينبغي أن يُستخف به، فقد جُرحت وأنا
أطالب بالعدالة الاجتماعية، جروحاً غائرة وغادرة، من قبل
أزلام السادة الذين تؤذيهم مجرد فكرة العدالة الاجتماعية،
فماذا كانت ردّة فعلِي؟ الاستمرار بما أطالب به، وأرجو
له، في المدن والأرياف على السواء، حتى صار لفكرة
العدالة الاجتماعية أنصار مكافحون، ع尼دون، لا يخشون
هؤلاء الأزلام ولا يبالون بغيرهم، ولا يخافون سكاكيتهم
التي تقطر منها دماء هؤلاء المكافحين، وأنا واحد منهم!

قال الحكمي بشير:

– وأنا؟ أين كنت أنا؟ في مدن أخرى، وأرياف أخرى،
وفي مواجهة أزلام السادة الذين تحدثت عنهم، ومع أنّي
كُوفحت وسُجنت وسال دمي غزيراً، فإنّي لم أتبّع، لم
أقل: «إنّي معتاد على رؤية الدم!» مثلك!

أضاف الحكمي:

– أنت شاب يا أرتش، وقد خبرت طويلاً حماسة
الشباب وبباركتها، غير أنّ مباركتي اقترنَت بنقد الحماسة
التي ليس لها حامل من واقع، أو ليس لها ركيزة على أرض
الواقع، دون أن أقول، مرّة واحدة: «في العجلة الندامة» مع
أنّها صحيحة، ومع أنّها نتاج تجربة شعبية عمرها آلاف
السنين، بل قلت، وأكرر، إنّ نار الهشيم لا تُعطي جذوة

متقدة، تحتفظ بناها حتى وهي متربدة، وعلى نار كفاحنا، في سبيل العدالة الأثيرية على قلوبنا جميعاً، أن تكون جذوة لا لَهَبَ هشيم، يشتعل بسرعة، ويمثلها ينطفئ.. وكى أكون منصفاً، أعترف بأنك الأسبق في اكتشاف خطر الذئب الأسود، والأسبق في الدعوة إلى مطاردته وقتلها، وليس سيئاً أن تنبه إلى أنَّ الذئب السود مصدرها القلاع، إنما السيء ألا ترى منعة هذه القلاع، أو تستخف بها، أو تدرك أنَّ مسألة مهاجمتها، في وقتنا الراهن ووضعنا الراهن، غير ممكنة، وأنَّ ترداد مقولة لينين: «أمس كان باكرًا، وغداً يفوت الأوان، الآن» ينم عن فكر غير ناضج، وخبرة تنقصها التجربة، وعمق لا جذور له ضاربة في الأرض، وأنَّ نشر هذا الفكر، وجعله هدفاً محدداً، مباشراً، ملحوظاً، لا مردود له سوى خرابنا!

قال الأرقم:

- من كلَّ كلامك يا حكيم، يستنتج المرء الدعوة إلى تثبيط الهمم، وفي هذا خطر على معنيات الصيادين، الذين ملوا فكرة اصطياد الذئب الأسود، استنقعوا في مياه آسنة وهم يتنتظرون ظهوره.. إنَّهم يتندرون بما تقوله عن أنَّ هذا الذئب وهم وحقيقة في آن.. لا يا حكيم، الماء والنار لا يأتلفان في راحة واحدة، مهما تكن رحابة اليد التي لها هذه الراحة.. الشمعة المشتعلة لا توضع تحت مكيال، وأنت لا تفعل سوى وضعها تحت ألف مكيال، وتريد أن تقنع الناس بأنَّ ما تفعله هو الصواب!

رد الحكيم بشير:

- لا بأس بالتندر حول ما أقول، لكنني مصر على ما أقول، الذئب الأسود وهم وحقيقة، ومحاولات الصيادين لقتله ليست مجانية، تعرف لماذا؟ كي يعوا أن هناك عدواً لهم، يأكل حقّهم، وأن عليهم، لاسترداد هذا الحقّ، أن يكافحوا، وما يفعلونه في الغابات تمرّن على هذا الكفاح، فإذا قلت لهم إنّ الذئب الأسود وهم، توقفوا عن التمرّن، وإذا قلت لهم إنّه حقيقة، تفهموا تدريجياً ما هو المقصود بالحقيقة، وتوصّلوا إلى ما توصلت إليه نفسه، دون بشير أو مواعظ، وهذا ما يُقال له دلالة الحدث، الملقطة من ممارسة الحدث، دون قُسرٍ أو إكراهٍ، دون... انبطح أرضًا يا أرقش، وبسرعة، وبالسرعة نفسها أزّت رصاصات، فوق جسدي الرجلين الملتصقين بالأرض، دون أن تصيبهما، فلما توقف إطلاق النار، نهض الحكيم مبتسمًا، نافضا القشّ عن ثيابه وهو يقول:

- هذه، يا أرقش، تحية عطرة من القلعة إلى النبع!

لم يكن على النبع أحد، اختفت مريم، تبخر دغمش، لم يعد صقرش وقمرة بعد، إلا أن لعلة الرصاص كانت تسمع من بعيد، فترتب على الحكيم بشير أن يكون يقطأ، محاطاً، يدخن مفكراً، ومثله يفعل الأرتش، دون أن يقولوا زيادة عما قالا في تجوالهما عبر الغابة، دون أن يتعرض أحدهما على ما يفعله الآخر، كأنما توصلان بعد اختلاف إلى اتفاق، وأصبحت لهما لغة مشتركة، نسيجها الخطر، وعطرها تحية القلعة، وطباتها غسل الخدوش، وتضميد الذي لا يزال نازفاً منها، ثم التدخين ومتابعة التفكير، كلّ منهما بما قال، وما سمع، وما ناقش، خلال جدلهما الطويل، وتوقف هذا الجدل، دون أن ينتهي إلى شيء محدد، لأن «السيف أصدق إنباء من الكتب» والرصاص «في حدّه الحدّ بين الجد واللعب» والراحة في فيء الصنوبرة الضخمة، الوارفة، جلوساً على صخرة النبع، والإصغاء إلى كلّ نامة، حذر الغدر، لم يدع شكّاً لدى أيّ منهما أنّ مسألة قتل الذئب الأسود، أشدّ تعقيداً من كلّ تصور سابق!

قال الأرتش للحكيم بشير:

- أما قلت لك إن القضية، في الشأن الذي نطلبه، تتجاوز الذئب الأسود ولعنته؟

قال الحكيم :

- بلى ! قلت هذا يا أرقوش ، وأجبت ، من طرفي ، على ما قلت ، سواء بالنسبة للذئب أو القلاع ، وأأمل أن تكون فهمتني على النحو المطلوب : التسرُّع لا يفيد !

- والتربيث إلى ما لانهاية مضـرـ.

- لكنه ، في مثل وضعنا ، هو الأـجـدـىـ.

- وهذا الرصاصـ؟

- سنتبيـنـ أمرـهـ ، دونـماـ عـجلـةـ .. معـ مـعـرـفـتـيـ ، مـثـلـكـ ، أـنـ الـرـياـحـ عـلـىـ غـيرـ ماـ تـشـهـيـ السـفـنـ.

أضاف الحكيم بشير :

- هل تعرف من مـنـ كـانـ المـطـلـوبـ؟

- أنا !

- نـعـمـ أـنـتـ!

- هل هـذـاـ رـدـ عـلـيـ منـ القـلاـعـ؟

- ليسـ منـ القـلاـعـ وـحـدـهـاـ!

- هناكـ آخـرـونـ يـرـيدـونـ قـتـلـيـ؟ـ هـذـاـ مـحـالـ ،ـ فـأـنـاـ عـلـىـ عـلـاقـةـ طـيـيـةـ مـعـ الجـمـيعـ ..

- لاـ!ـ لـيـسـ مـعـ الجـمـيعـ ..ـ أـنـتـ مـتـمـيـزـ بـشـجـاعـتـكـ ،ـ قـوـلاـ وـفـعـلـاـ ،ـ وـتـجـاهـرـ بـذـلـكـ ،ـ إـلـىـ درـجـةـ إـنـارـةـ الآـخـرـينـ ضـدـكـ ..ـ التـميـزـ مـثـلـ عـدـمـ التـميـزـ ،ـ كـلـاهـمـاـ لـهـ ثـمـنـ ،ـ وـأـنـتـ الآـنـ تـدفعـ

الثمن.. لكن أن يصل دفع الثمن إلى القتل، فهذا ما يجب أن نحذره، وأن نردد عليه، إذا شئنا أن نردد عليه، بطريقتنا، لا بطريقة الذين أطلقوا علينا الرصاص مرتين.. أما أنك على علاقة طيبة مع الجميع كما تقول، فإن هذا ما ينبغي أن نعيده النظر فيه، أنا وأنت، وكذلك الصيادون الذين استنفروا أنفسهم بصدق، لمطاردة الذئب الأسود، والذين قد يتعرّضون لما تعرضنا له اليوم.. اسمع هذه الحكاية: كان كونفوشيوس يجلس إلى تلاميذه، فقال له أحدهم: «فلان عظيم يا معلم!» سأله كونفوشيوس تلميذه «وما سرّ عظمته؟» قال التلميذ: «الجميع يحبّونه» قال كونفوشيوس «منافق!» وكان هذا الذي يحبّ الجميع منافقاً فعلاً، وإلاً كيف أحبه الأشرار؟ إنّي، يا أرقش، أجد الصدح فيما قاله فيروز في إحدى المسرحيات: «هناك ناس نحبّهم ويحبّوننا، وهناك ناس نكرّهم ويكرّهوننا!» هذا منطق سليم، وفيه عبرة.

قال الأرقش:

- صدقت يا حكيم.. لكن ماذا بشأن اللطف؟ الجميع كانوا لطفاء معي، وما كنت أحسب أنّ لطفهم خداع، حتى وقع لنا اليوم ما وقع، فهل أكفر باللطف، لأنّ هذا أو ذاك من اللطفاء أراد قتلي؟

قال الحكيم:

- لكلّ قاعدة استثناء يا أرقش، ومع أنّي أخشى أكثر ما أخشى اللطفاء، فإنه من الخطأ وضعهم كلّهم في قبعة واحدة، ومن الخطأ الأكبر أن نرفع لهم جميعاً قبعتنا، وننحني باحترام لهم.. التعميم، هنا، غير جائز، لنحذر

الذين يتلاطفون، ويتظرّفون معنا، بشكل زائد. وفي حدود رأيي، فإنَّ المنافقين، والجبناء، والبخلاء، والنمامين والكذابين، هم الأكثر لطفاً، ولو تسرّعنا في تصديق كلَّ ما نسمع، لوجدنا المرائين في كلِّ مكان.. قالت العرب: «سوء الظنَّ من حسن الفطن»، وفي هذا مغalaة، تشنَّلْ تواصلنا مع الناس، لا سوء ظنٍّ كامل ولا حسن ظنٍّ كامل، لأنَّ علينا، أمّا كلَّ مشكلة، أن نبحث عن حلٍّ لها بين هؤلاء الناس، أن نتغلغل بينهم على نطاق أوسع فأوسع، أن نتعلّم منهم، فالتعلّم من الناس أرسخ من التعلّم من الكتب، دون أن نبخس قيمة الكتب في نشر المعرفة، فالمعرفة كما تعلم وحدها التي توّقظ الوعي، ودون وعي بحقّ الشعب في العدالة، لا ينهض الشعب معنا في طلب هذه العدالة.. كفى كلاماً على كلِّ هذا، لأنَّ إطلاق الرصاص، بين فترة وأخرى، لا يزالُ يُسمع، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك مطاردة، فمن يطارد مَنْ يا ترى؟ ولماذا لم يعد الصقرش وقُمطرة من «شهر العسل» الذي مدّته، في مثل ظروفنا، يوم واحد؟

قال الأرقش:

- سمعك رهيف يا حكيم.. فعلاً هناك إطلاق نار متقطع، وهذا ما يقلقني جداً، فإذاً نبقى جالسين على هذه الصخرة، مستمتعين برؤيه صورتينا في صفاء ماء النبع؟

قال الحكيم:

- إلى أن تعود رئيفة، أو يعود دغمش، أو نعرف ماذا جرى لصقرش وقُمطرة!

إلاَّ أنَّ رئيفة لم تعد، وطالت غيبة دغمش، وكان

الرصاص الذي يطلق متقطعاً بفعل مطاردة، بين كل هؤلاء، إضافة إلى صياد كان متخفياً ثم ظهر فجأة، اسمه الشادوف، انضم إلى دغمش، في محاولة لقتل الأرتش، لسبعين مختلفين: أحدهما لأنّ دغمش حضرته رئفة، والثاني لأنّ الشادوف كان عميلاً للقلاع، اندسَ بين الصيادين، متنكراً في ثيابهم، ومهتمه أن يقتل الأرتش، الذي بدأ أسياد القلاع يتضايقون من دعوته إلى مهاجمة قلاعهم.

تزوجت قمطرة زواجاً شرعياً، وذهبت مع صقرش لقضاء يوم عسل، كما ظنَّ الحكيم بشير، إلا أنها لم تتزوج فعلياً، فقد ملأت بندقيتها بمشط من الرصاص، وقالت لصقرش:

- المرأة تفهم خبث المرأة أكثر من الرجل، هناك امرأة وهنا خبث، فلنؤجل الدخلة إلى وقت آخر.

قال صقرش:

- أنت مخبّلة يا قمطرة، عن أيّ امرأة وأيّ خبث تتكلّمين؟ علينا أن نمضي إلى عمق الغابة، وهناك نبني عشن غرامنا.. الأرتش بخير، وقد طاف الغابات الائتين والعشرين، وترك فيها، لشجاعته، صدى لا يزال يرنّ. عنترة قال: «ولو أرسلت رمحي مع جبان/لكان بهيبيتي يلقى السباعاً».. الأرتش ذهب بنفسه مع الحكيم بشير، ورمحه في يده، فممّن تخافين عليه؟

- من المرأة، وتحديداً من رئفة!

- رئفة تحبّ الأرتش.

- ولأنّها تحبّه ستقتله، كيلا يكون لغيرها.

- كفاكِ تخريفاً، مَن يحبّ لا يقتل الذي يحبّه..

- المرأة، في حبّها الخائب للرجل، تقتل الرجل..
الأرقش لا يستجيب لحُبّ رئيفة، ورئيفة في خيبة حبّها
ستقتل مَن تحبّ، أي الأرقش. لكنني، أنا سأكون لها
بالمرصاد.. هل فهمت؟

- فهمتُ، لكنني أستبعد أن تخون الأنثى ذكرها الذي تحبّه.

- أنت أبله إذن.. اذهب حيث شئت، ودعني أذهب
حيث أشاء، وهذه كلمتي الأخيرة..

قال صقرش :

- إخلاصي للأرقش، لا يقلّ عن إخلاصك له، سأكون
معك يا قمطرة، ولكن ليس على أساس التهيّات..
تجربتي، في هذه الأمور، أكبر من تجربتك بكثير.. رئيفة
التي تحبّ الأرقش، محال أن تفكّر بقتله يا عبيطة.. هل
تقتل المرأة مَن تحبّ.

- المرأة هي التي، وحدها، تقتل من تحبّ، عندما تيأس
من حبّها، وهي وحدها التي تقتل زوجها، إذا كان هذا
الزوج عقبة في طريق خيانتها له، سواء بسبب المال أو الزواج
مَن تحبّ، وتخونه معه، يكفي هذا الشرح أم أزيد عليه؟

- أنا غير مهمّ في الحالين.. وجودي في هذه الغابة
لاصطياد الذئب الأسود، وليس لسماع ثرثرات النساء..
أنت ثرثارة، وأنا أتحمّل ثرثرك، إنما حذار من الغيرة..
لماذا تغاري من رئيفة؟ وماذا بينك وبين الأرقش؟

- وماذا تظنّ؟ وبماذا تشک؟ إبني، يا بهيم، أشرف من

أن يقال مثل هذا الكلام لها، أمسك لسانك وإلا قطعه..

- وإذا لم أمسك لساني؟

- أقتلك!

- امرأة تقتل رجلاً؟

صاحت قمطرة:

- نعم! المرأة تقتل رجلاً، خصوصاً إذا كانت المرأة شجاعة مثلي، والرجل خرعاً مثلك.. انظر! هل ترى من هناك؟

التفت صقرش إلى حيث أشارت قمطرة، وقال:

- هناك رجل وامرأة، لكن ما الغرابة في وجود رجل وامرأة في غابة؟

- الغرابة في أنّ المرأة هي رئفة، والرجل هو دغمشن..

- وماذا في ذلك؟

شدّت قمطرة شعرها، أصرّت بأسنانها، نهضت واقفة، سارت بخطى وئيدة في أثر رئفة ودغمشن، تاركة الحرّيَّة لصقرش أن يتبعها، أو يذهب إلى الشيطان، إلا أنّ صقرش بعها، كان يحبّها ويغار عليها في آن، وكان بلid الذهن إلى درجة الغباء، ولم يكن ثمة وقت لتعنيفه على غبائه، فقد اختفت رئفة فجأة، وظهر رجل لا تعرفه فجأة أيضاً، وبعد أن تبادلا كلاماً خافتًا، تقدما بين الأدغال، وكلّ منهما يمسك بندقيته، في وضع الاستعداد للإطلاق، دون أن تعرف قمطرة، إلا حدساً، أنّهما سيطلقان على الأرقوش والحكيم بشير.

قالت قنطرة لصقرش وقد استبدَّ بها الغضب:

ـ أنا التي تقول وأنت الذي يسمع!

ـ كيف هذا؟

ـ لا كيف ولا بلوط! إنني مثلك، أسمع طلقات الرصاص، ولا أدرِي على مَنْ تطلق، وكلّي ثقة بحكمة الحكيم بشير وبشجاعة الأرقش، وأنهما قادران حتى على مجابهة الغدر لو كان، لكنهما يجهلان، أغلب الظنّ، أنَّ هناك جريمة ستقع، وأنَّ التي دبرتها رئيفة، والذي سينفذها دغمش، وقد رأيتهما بهاتين العينين يتآمران، ثمَّ انضمَّ إلى دغمش ذلك الذي لا أعرف اسمه حتى الآن، لكنَّه أحد الخونة بغير شكّ، ومعك يا صقرش، أو بدونك، سأطارد هذين المخلوقين حتى النهاية، نهايتي أو نهايتهما، وما عليك إلَّا حماية ظهري، أو تغطيتي عند اللزوم... أما شهر العسل، أو يوم العسل، فيمكن تأجيله، ولن تقوم القيامة أبداً. وخطتي هي التالية: الاقتصاد في إطلاق الرصاص، رغم أنَّ ذخيرتي منه لا بأس بها، وخلال المطاردة، التي لا يتوقعانها طبعاً، علينا أن نسدّد بإحکام، على جسدي الخائنين مباشرةً، وبكفيٍّ أن نقتل، أو حتى نجرح، أحدهما، لنحقق انتصاراً مقبولاً، وهذا الانتصار ممكِّن لأنَّ المبادرة بيَدنا، وما هي المبادرة؟ أن تعرف عدوَك، بينما هذا العدو لا يعرُفك، فالحرب خدعة، والمبادرة خدعة، وقد لازمت الأرقش طويلاً وتعلّمت منه كثيراً، لا في مجال الحوار والنقاش، بل في المجال العملي الواقعي، الذي تعرف معه الظرف المحدَّد، وتتصرّف معه بشكل محدَّد.

قال صقرش :

- ما كنت أحسب أنك على كلّ هذا الدهاء.
- وعلى كلّ هذه الشجاعة.. تسلّل الآن، إلى الطرف الآخر، وأطلق طلقة واحدة، ثم تخفي بحيث ترى ولا تُرى، وانتظر ردّة الفعل.
- وما الغاية من ذلك؟
- أن تتعدّد مصادر النار، فيحسبان أنَّ الذين يطاردونهما كثرة.

كان نجاح هذه المحاولة محدوداً، فالردة على إطلاق النار بالمثل، لم يشكّل أيَّ إرباك، ويبدو أنَّ ذخيرة دغمش وزميله لم تكن بالقليلة كما توقّعت قُمطرة، والمطاردة إذا تطاولت أكثر ستعود بالضرر، والصيادون المنتظر بروزهم للمساعدة في القضاء على دغمش ومن معه كان سرايا، لذلك فكرت قُمطرة بإرسال صقرش إلى النبع للاطمئنان على الأرقش والحكيم بشير، وتحذيرهما من الخطر، وبقائهما هي في الغابة، تترصد الرجلين، إلا أنها سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة، لأنَّها في غابة غريبة عليها وعلى صقرش، وليس من ضمان في الاهتداء إلى النبع بسرعة، وأنَّ صقرش إذا ضلَّ الطريق، فربما وقع بين يدي دغمش، وكان مصيره الموت المؤكَّد، وفي هذه الحال تبقى بمفردها دون نصير أو غطاء، وفي هذا مجازفة غير محسوبة التَّنَاجِع، وخطرة جدًا!

كان إطلاق النار لا يزال يُسمع متقطعاً، وهذا يعني أنَّ المطاردة مستمرة، ونقطة الضعف أنَّ دغمش يعرف مسالك هذه الغابة جيداً، بينما قُمطرة تعرف مسالك الغابة الأولى

التي كانت فيها، لذلك اختبأت وراء دغل كثيف، وندهت صقرش إليها قائلة:

ـ الوضع غدا أكثر تعقيدا يا صقرش، لن نستطيع النيل من دغمش، وهو في غابته.. علينا أن ندعه مؤقتا.

قال صقرش:

ـ وهكذا ينجو بجلده!

ـ لا! لن ندعه ينجو بجلده.. دغمش سيعود إلى النبع من تلقاء نفسه، لأنّه يتبع رئيفة حيث تكون، ورئيفة ستعود إلى النبع أيضا، ظناً منها أنّ أحدا لا يدرّي بتآمرها لقتل الأرقش.

ـ وإذا كان الأرقش قد قتل؟

ـ ننتقم له من رئيفة ودغمش معاً.

ـ كيف؟

ـ اللعنة على كيف هذه.. للانتقام أساليب عديدة، وسنجد الأسلوب المناسب في وقته.

ـ نكفت عن مطاردته إذن؟

ـ نتربيص له.. نراقبه من بعيد، فتحين الفرصة التي يبتعد فيها عن الرجل الذي معه، ونطلق على الرجل لا على دغمش!

ـ وما الفائدة؟

قالت قمطرة:

ـ أنت أحمق! هذا الرجل ظاهرة في الخيانة، وسنعرف من قتله، من جريمه، على الأقل، من هو، ولمن هو؟ ولمن

يمثل هذا الدور الحائن؟ وهل صار الذين يطاردون الذئب الأسود، مخترقين من قبل الخونة؟ إنني لا أفهم لماذا يريد دغمش أن يقتل الأرقوش، وأن رئيفة هي التي دفعته، لأنّ الأرقوش أعرض عنها، وبعد أن يقتل دغمش الأرقوش، ستتولى هي قتل دغمش، لسبب بسيط هو أنها تكره دغمش هذا، وهكذا ندخل في دوامة القتل، وننسى قضيّتنا مع الذئب الأسود.. والأرقوش، وحده، من يستطيع بشجاعة قلب أن يقضي على هذه الظاهرة قبل تفشيها.

- والحكيم بشير؟

- ما له الحكيم بشير؟

- إنه مستهدف بالقتل أيضاً!

- ليس الآن.. دوره لم يأتي بعد.. الحكمة لا تضرّ القلاع في الوقت الحاضر، الذي يضرّها هو من يكشف سرّها، من يقول إنّها المصدر، وأنّ قتل الذئب الأسود، حتى لو قتل، يفرّخ من هذا المصدر قبيلة من الذئاب السود الخطرين، وصاحب هذا الكلام هو الأرقوش، وكاشف هذه الحقيقة هو نفسه، لذلك يطلبون رأسه، والرجل الذي مع دغمش أرسلته القلاع ليأتيها برأسه، في تجربة أولى، تتلوها تجارب أخرى، يُقتل فيها الحكيم، وأنت وأنا، وكلّ من يتجرّأ على الأخذ بمقولة الأرقوش حول هذه القلاع.

قال صقرش:

- ما تقولينه، يا قمطرة، رهيب جداً.

ردّت قمطرة:

ـ الحقيقة، وحدها، هي الرهيبة جداً، والأرقش، بفكرة الثاقب، مَن دلَّ عليها، مَن اكتشفها، من جهر بها دون خوف أو تردد.. لذلك أرسلوا هذا الخائن لقتله، أو لتسليميه لهم، مقابل ثلاثين من الفضة!

ـ أنا لا أعرف حكاية الثلاثين من الفضة هذه.

ـ وهذا ليس وقت رواية حكايتها.. اذهب، متسللاً، واكمن وراء هذا الدغل المقابل.. إياك أن تطلق على دغمش، أطلق على الرجل الذي معه، وبتسديد محكم، وسأفعل، من ناحيتي، ما تفعله أنت من ناحيتك، وبالتسديد نفسه والإحكام نفسه.

لكن حساب السوق، لم ينطبق على حساب الصندوق، اختفى دغمش والرجل الذي معه، فقالت قمطرة:

ـ اللعنة على الحظ!

قال صقرش:

ـ تعرفين المثل الذي يقول: «تجي تصيده يصيدهك»؟

ـ أعرفه، وأعرف فوقه ثعلبة دغمش هذا.. كان، ابن الكلب، قناص بشر، في رقبته مئات القتلى، رصاصته لا تخيب، حاسة الشمّ عنده قوية جداً، وهو لا يتورع عن شيء.. اختفاوه يقلقني!

ـ من أي جهة؟

ـ من عدّة جهات يا صقرش، يا زوجي العزيز والبهلوان، نعم! من عدّة جهات، وأنت مع الأسف لا تخمن واحدة منها ولو تخمينا.. هيا لنجلس ظهراً إلى ظهر، وكلّ منا

يسرع بندقيته ويستعد للإطلاق فوراً، عند أول خطر يلوح..
أما الجهات التي أفكَر فيها فإنها اختفاء دغمش..

فاطعها صقرش:

ـ ليذهب إلى جهنّم، اختفاوْه يعني الخلاص منه..
هذه، يا قبرتي، فالصو، جهة فالصو، فماذا عندك بعد?
هاتي الجهة الثانية!

فَكَرْت قُمْطِرَة ملِيّاً، خطر لها أن تقتل صقرش وتستريح،
وهكذا تبقى عذراء رغم تقدمها في السن، فتنذر نفسها
للأرقش وللقضية، وهذا أفضل من أن ينام فوقها هذا البغل،
بكل ثقله وبلاهته.. تذكري المثل الذي يقول: «رضينا
بغراب البين، وغراب البين لم يرض بنا!» رضيت بصقرش
لأنَّ الأرقش أراد ذلك، وهي لا تخالف للأرقش قوله، أو
تعصى له أمراً.. وهو هو صقرش يتكشف عن دغمش آخر،
حيوان لذّة، وفطائسي لا يعف عن كريهة، فماذا تفعل به؟
قالت بصوت عالٍ:

ـ ماذا أفعل بك يا صقرش؟

قال صقرش:

ـ وماذا تفعل الزوجة بالزوج؟ تنام تحته ليركبها.

ـ هذا هو مفهومك للزواج؟

ـ هذا هو المفهوم الوحيد عند الخلية كلها.

ـ وأنت من الخلية، كما تحسب نفسك؟

ـ نعم! أنا من الخلية دون زيادة أو نقصان.. ولاَّ كيف
تكون الخلية؟ الزوج، من عهد آدم، يركب زوجته حواء،

لأن أحدهما - الذكر، خلق ليركب الأخرى - أي الأنثى،
التي تطبع وتتفخ وتنجب الأولاد!

بصعوبة كتمت قنطرة ضحكتها.. المسألة هي كما قال صقرش، ودون فلسفة: الرجل خلق ليركب المرأة! صقرش هو الرجل، وهي، قنطرة، المرأة، ولم يبق إلا الركب والطبع والنفح والإنجاب.. وببارك الله بالشرق، كما قال لها الأرتش يوماً ممازحاً!

سألت وهي تغالب ضحكتها لاتزال:

- المسألة هي هكذا، إذن، يا صقرش؟

- هكذا وبكل بساطة يا قنطرة، يا حمامتي الحبشيّة!

- أنا لست حمامتك يا ثئيم، ولو نبي الأسمر العائم لا يجعلني حبشيّة كما تقول. أنت، يا صقرش، حيوان لا أكثر، والأرتش الذي زوجني منك أخطأ خطيئة العمر.. هل تفهم؟ أنا غجرية و«رأيت غجرًا سداء»

- لا! لا أفهم! نحن زوج وزوجة، فما الذي حشر الأرتش بيننا، أنت! نعم أنت، وأنا، صدقيني، أشم رائحة.. رائحة ستجعلني أقتل الأرتش، إذا لم يقتله دغمش، الذي، كما يبدو، شم رائحة مماثلة بين الأرتش ورئيفه، فأقسم أن يقتله.. أين كنا في الحديث؟ هيا.. ما هي الجهة الأولى؟

قالت قنطرة في نفسها: «صدق ظنّي، صقرش هذا ليس إلا دغمش، كلّاهما ضبع أُجرب، دغمش أقسم أن يقتل الأرتش من أجل رئيفه، وصقرش يتوعّد أن يقتله من أجلي..

وأنا؟ من أنا؟ أنا مريدة الأرقش، تلميذته، رفيقته في مطاردة الذئب الأسود، ومعه في أن القلاع هي مصدر هذا الذئب، الموجود وغير الموجود، كما يقول الصيادون.. لا بأس! الأيام بينما يا صقرش، يا من تجد أن المرأة خلقت ليركبها الرجل.. أنت لن تركبني أبداً. هذا قولي، وقولي فعل. وإذا تمادي في الكلام على ما بيني وبين الأرقش، وعدت إلى التهديد بقتله، فسأقتلك قبل أن تقتله!».

قال صقرش:

– لماذا تفكرين يا قمطرة!

– في هذا الرصاص المتقطع الذي نسمعه، بينما أنت تفكك بالشيطان الذي يسكنك، اسمعني جيداً: قمطرة تضع الموت بين عينيها، وبعده لا تسأل عن شيء، نحن، أنت وأنا، في خطر، والجهة الأولى التي تسأل عنها هي أن يكون دغمش قد قتل الأرقش، والجهة الثانية أن يكون الأرقش تخلص من دغمش، والجهة الثالثة أن يكون الحكيم بخير، لم يلحقه أذى، والجهة الرابعة أن تكون هذه القحبة رئيفة قد عادت إلى النبع، دون أن تدرى بأننا على علم بما صنعت، والجهة الخامسة أن نكون، أنت وأنا، قد قنصنا الرجل الذي مع دغمش حياً أو ميتاً، والأفضل أن يكون حياً، والجهة السادسة أن نصفي كل الحسابات دفعة واحدة، ومع الجميع.

قال صقرش:

– هل هذا إنذار؟

ردت قمطرة بقسوة:

ـ إنذار؟ لا! الذي ينذر لا ينقذ إنذاره، والذي يتوعّد الآخرين بالقتل لا يقتل، ومن يقول إنني سأثور لا يثور أبداً، ومن يتكلّم كثيراً يفعل قليلاً، ومن يسلك مسلك دغمش، لا بدّ أن يكون دغمش نفسه.. ولعلّك أقول: دغمش هذا انتهى!

قال صقرش:

ـ رهيبة أنت يا قمطرة، لكن أنا، صقرش، رهيب بقدر أكبر!

ـ أنت خراء.

صوّب صقرش بندقيته إليها وقال:

ـ اسحبي هذه الكلمة، اعتذرني عنها وإلا قتلتكم كما قتلت الكلبة..

دفعت البنديقة عنها، فانطلقت رصاصة في الهواء، بينما فوهه بندقيتها لامست خاصرته، ولم يبق، كي يُقتل صقرش، إلا أن تضغط على الزناد، إلا أنها لم تضغط، اكتفت بأن تصيح به في صوت غضوب:

ـ ارم هذه البنديقة أرضاً، ارمها فوراً وارفع يديك، وإلا قتلتكم يا حيوان!

رمى صقرش بندقيته، رفع يديه، تحول من التهديد إلى المسكنة، انطوى على نية الغدر، كان غداراً لثيمما، وكانت قمطرة تعرف أنه غدار لثيم، لذلك سحبت مشط الرصاص من بندقيته، ألقت بها بعيداً، وقالت:

ـ الآن أغرب عن وجهي، خذ بندقيتك الحطبة وارجع

إلى النبع، لكنك لن ترجع، ستنتضم إلى دغمش، وفي هذه الحال سيكون مصيرك مصيره، إلا في حال واحدة، إذا أمسكت لسانك عن إفشاء سر وجودي هنا، وسرّ معرفتي بخيانة دغمش، وسرّ تامر رئيفة معه، أو مست شعرة من رأس الأرقش.. أنت، يا كلب، صدقت بشيء واحد، هو قولك عنّي إنّي رهيبة.. نعم! أنا رهيبة، وادعاؤك أنك رهيب، أنت الآخر، فشر في فشر..

ناح صقرش، أو تظاهر بالنواح، راجياً من قمطرة أن تعيد مشط الرصاص إلى بندقيّته، وأن تدعه إلى جانبها، لأنّه، من دون سلاح، لا يستطيع العودة، ولا يمكنه أن يدافع عن نفسه إذا ما تعرّض لخطر ما، وفوق ذلك فإنّه غريب في هذه الغابة، وسيعلم الأرقش لمجرد العودة دونها، أنه خانه، وأنّ الأرقش الذي لا يرحم لن يرحمه أبداً.. قال متوكلاً:

– أنت، يا قمطرة، تعرفي أنّي من رجال الأرقش.

صاحت به:

– كنت من رجاله، لذلك اصطحبك معه، أولاك ثقته فاختت الثقة، فماذا بقي منك؟ أو ماذا تبقى لديك؟ الغدر، أنت غدار يا ابن الكلب، لكنني سأجعلك تدفع ثمن غدرك قبل أن تغدر.

قال صقرش:

– لكنني زوجك يا قمطرة، وأنت لاتزالين على ذمّتي، هل نسيت هذا؟

- قمطرة لا تنسى، ولكن عن أي ذمة تتحدث. أنت لا ذمة لك!

أراد صقرش أن يقول شيئاً، وحين وضعت إصبعها على فمه محدثة، أدرك أنها رأت، من فجوة الدغل، إنساناً ما، وأنّ الفرصة التي تنتظرها قد واتت، لكنّها بعد كلّ شيء امرأة، فماذا تفعل امرأة؟ تقتل؟ وأنا؟ ماذا أنا؟ ولماذا جرّدتني من سلامي؟ وهل في إمكانها أن تسدّد مثلّي؟! وكان جوابها طلقة، تبعتها طلقة، وصرخ رجل من الألم وهو يتخطّب، بينما هرب رجل آخر، فراحت تطلق عليه دون أن تصيبه، وقالت آسفة:

- لقد أفلت دغمش هذه المرة!

قال الأرقش للحكيم بشير:

مقوله «المستبد العادل» عورة مستوره بورقة دلب، فحيث يكون الاستبداد لا يكون العدل، ومن الغريب أن بعض الناس لا يزال يردد هذه النغمة التعيسة جداً، في هذا الزمن الصعب جداً!

قال الحكيم بشير:

- الناس، يا أرقش، يتغون عزاء ما، بسبب هذا الجزر في حياتنا.. الخرافات ترورج مع الجزر، تتناقل وتتكاثر، ولا تتلاشى إلا مع المد، والمد لن يأتي غداً أو بعده، إنه يحتاج إلى عقود كثيرة من السنين، فإذا جاهرت بهذا الرأي، أداروا لك ظهورهم، إذا لم يستمموك ويلعنوك.. هنا أناية مفرطة، وهذه ناتجة عن كوننا لانزال خارج التاريخ، وعن هذا قرأت كتاباً مترجمًا لفوزي منصور، عنوانه «العرب خارج التاريخ» لأنهم لم يفطروا، أو عجزوا، في العصرين الأموي والعباسي، عن إنشاء «رأسمالية زراعية» ينطلقون منها إلى ما بعدها، إلى رأسمالية صناعية، وبذلك يقطعون مع المركز الرأسمالي العالمي، ودون هذا القطع يظلّون تابعين.. إننا، حتى في هذا الزمن، لانزال نضحك على

أنفسنا، معتقدين أنَّ جلاء القوات الأجنبية هو كل الاستقلال، غافلين عن أنَّ الاستقلال الاقتصادي هو الاستقلال الحقيقي، وما مدنا لم نستقل اقتصادياً، فإننا لم نستقل سياسياً، فإذا سألتني: «هل يمكن لأسياد القلاع هؤلاء أن يحققوا استقلالاً اقتصادياً؟» أجبتك بكلمة واحدة: «لا!»

قال الأرقش:

ـ هناك، في هذا المجال، مقولة لأحد المفكرين، تلخصها عبارة واحدة: «عرفت ما كنت أعرفه، مرَّة أخرى!».. أنت، يا حكيم، أنقذتني اليوم من موت محقق، دبره أسياد القلاع، ونقذه أزلامهم.. هذه الغابة خارجة من حرب أهلية، وَكَذَبْ كل ما يُقال عن انتهاء هذه الحرب، كل ما في الأمر أنَّ جذوتها تحت رماد، ونحن نستشعر حرارتها في هذه الغابة، ومن هذه الحرارة الرصاص الذي أطلق علىَّ،وها نحن نجلس على صخرة النبع، بعد أن ضمدت بعض الخدوش البسيطة، لا بأس! ستشفى هذه الخدوش، فهي ليست خطيرة، إنما الخطير، في رأيي، هي غفلتنا عن هؤلاء الأزلام!

قال الحكيم:

ـ دود الخل، يا أرقش، منه وفيه، كما يقول المثل.. ما كنت أتصور أنَّ بين الصيادين خونة وأنذالاً، والذى جرى اليرم، يؤكِّد أنَّ هناك خونة وأنذالاً بينهم.. العدالة الاجتماعية مطلب عزيز، ومتعدِّر بقدر ما هو عزيز «إنه في سفر هيهات منه يرجع!».

- وهيهات أن نتوقع رجوعه قبل عقود كثيرة، الفردية صعبة التحول إلى جماعية، والصياد، بينما فرد، وهذا الفرد يفكّر على النحو التالي: «اصطياد الذئب الأسود يحتاج إلى زمن، أي أنه لن يتحقق في حياته، ومادام الأمر كذلك، فإن تتحققه بعد موته لن يفيده في شيء، ومن هنا يتسرّب إليه اليأس، واليأس كثيراً ما أدى إلى شرور، منها الكف عن مطادرة الذئب الأسود، ومنها عدم الالكترات، ومنها إلقاء السلاح والعودة إلى البيت، ومنها الخيانة.. وهذا ما علينا أن نتوقعه، وأن نمنع تفشيه كبقعة الزيت، وأن نضرب كلّ خائن بغير رحمة، سواء خان عن وعي أو غير وعي، مادامت نتيجة الخيانة واحدة!

- وماذا عن الجانب الأخلاقي؟

- كلّ ما نعمله بصدق أخلاقي.

- والشكّ؟

- حين نشكّ بصدقنا، تكون قد شكّكتنا بأخلاقنا، ومن له في هذه الدنيا قضية شريفة، لا يجوز، حتى في الهمس بينه وبين نفسه، أن يدع لأحد أن يشكّ في صدقه، وتاليًا في أخلاقه.. إنني لا أعمّم، فهناك، أحياناً، من يتطلب الروية، قبل الشكّ في صدقهم وأخلاقهم، وقبل أن يعاقبوا، من قبلنا أو قبل غيرنا، عقاباً شديداً، وعلى النحو الذي يجب.

قال الحكم بشير:

- لشدّ ما أنت صارم يا أرقش!

ضحك الأرقش وقال:

- ولشدّ ما أنت رحيم يا حكيم.. . ومع الأنثى خصوصا!

تجهم الحكيم وقال:

- إلى أين تريد أن تصل يا أرقوش؟

ردّ الأرقوش:

- ليس إلى حوض النبع، الذي لا بدّ أن نقع فيه، مادام ذلك مقدوراً علينا.. . ألا تذكر من قال: «كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول؟» لمحذف آلة حدباء، ونضع مكانها حوض النبع، نصبح على انسجام، وكذلك صدق، مع أنفسنا.. . الأخرى، يا حكيم، لا بدّ لها من آخر، والعكس صحيح أيضاً.. هل ترى كيف تتحول الصرامة إلى نقيسها؟ إن ذلك يحدث من حين إلى حين، ولكن ليس في كلّ وقت.. . صارم أنا؟ نعم. صارم! وسأذهب الآن، مادام ليس هناك نزيف في الخدوش، وحتى لو كان سأذهب، فالعدالة الاجتماعية ليست مادة للتغني، بل مادة للكفاح، والكفاح يتطلب ثمنه، وعليينا أن ندفع وبسخاء، مادام الذين في الغابة التي جئت منها يقبضون وبسخاء أيضاً، فجريدة «الخفافش» التي تأتيني ولا أقرأها، جريدة تصدر بمال السلطان، وبيلسان السلطان تنطق، والرقابة الذاتية أقسى من الرقابة السلطوية، ولا عبرة أو اعتبار لهذا المنطق الذي يقول، إنّ فلاناً أو فلاناً، من الذين يمارسون الرقابة الذاتية في هذه الجريدة، قد سبق لهم وسجّنوا، أو صمدوا في السجن! فالعبرة، يا حكيم، في الصمود بعد السجن، ولا أبالغ فأزعم أنّ الجميع، بعد السجن، لم يصمدوا، أو صمد القليل النادر منهم، الذين

ليس لهم علاقة بهذه الجريدة، أما الذين فيها، في قيادتها، فإنهم تبدلوا، وهذا طبيعي، فالسجن بني أساساً لغرض معين: التأديب. والتأديب في علم التربية، تربية جديدة، قوامها التخلّي عن المتنق الذي كان، واعتناق المتنق الذي سيكون، الذي تسنه السلطة، وتدفع ثمنه أيضاً!

قال الحكم:

- الشيء ذاته، في هذه الغابة أيضاً، مع فارق واحد، هو أن الصحف هنا، من التي عناها الشاعر بقوله، «وصحافة صفر الضمير كأنها/ سلع تُباع وتشترى وتعار»، ولا أعمم.. فهناك صحف غير صفراء، وأقلام غير سلطوية، وجهر بالقول على غير ما في غابتكم، إلا أن تحليلاتك للسجن وما بعده، ولل陟ض الذي أنشئت السجون لأجله، وكيف يخون المتنق نفسه، في حالي ما قبل وما بعد، فإنها صائبة، رائعة.

كان الأرقش في استواء الرجلة، فارع القامة، حنطي اللون، معروق الخدين، مضموم الكفين، ضامر الخصر، حاد النظارات، خريح كلية الاقتصاد، يردد دائمًا «لكي نفهم السياسة، علينا أن نفهم الاقتصاد».. وتأسيساً على هذا يعتقد أن المصالح تفسر كلّ شيء، دونها كلّ تفسير خاطئ، فأسياد القلاع لهم مصلحتهم، والذين يقاومون القلاع وأسيادها لهم مصلحتهم أيضاً، وكلّ من المصلحتين يختلف، فالذي ينهب الناس، غير الذي يكافح لاسترداد ما نهب منه، والظالم يختلف عن المظلوم أيضاً، وهذا الأخير يسعى لردع الظلم، لرده عن نفسه وعن الناس، لكنه أعزل، ويقاوم وهو

أعزل، وهذا أنقى وأشرف أنواع المقاومة، أما الظالم فإنه يملك السلاح، والأزلام الذين به يحمونه، وقد قيل لستالين: «البابا ضدنا» فأجابهم: «كم دبابة عنده؟» كان ستالين يفهم لغة القوة ودورها في مقاومة الظالمين والمعتدين جميّا!

قال الحكيم:

- شتيمة ستالين صارت موضة، وأكثر الذين يرغبون أن يقبلهم الطرف الآخر، المعادي، حامل ببرق الحداثة وما بعدها، يشتم ستالين كجواز سفر، كورقة «دعه يمرّ»، أما أنا وأنت يا أرقش، فليس لنا غاية في أن نكون على الموضة، أو رغبة في تقديم أوراق اعتماد إلى أحد، ولسنا ضد الجديد، أو مع القديم الذي نفاه الزمن، إلاّ أننا نقاوم، ومن شرف المقاومة لا نشمذ الذين كانوا أبطالها، ولعبوا أدواراً في مقاومة الغزاة عبر التاريخ، ومن كلّ الأمم.. لماذا، يا أرقش، لا تؤجل التوغل في هذه الغابة إلى وقت آخر، أكون فيه معك؟

رد الأرقش:

- لأنني لا أريدك أن تكون معي، أو تحميوني، كما فعلت قبل ظهر اليوم..
- هذا عناد!

- من حقّ الذي يريد الاكتشاف أن يتقدّم، وأن يعاند لأجله، فالذي يكتشف، تبقى الأماكن المجهولة، التي اكتشفها بنفسه، أشدّ رسوخاً في ذهنه، وأبعث على الغبطة في روحه.. هناك إطلاق رصاص، وأتشوق لمعرفة الصيادين الذين يطلقون الرصاص على طرائدهم، وربما

فعلت مثلهم، فاصطدت طريدة دسمة.. إلى اللقاء قريباً!

- إلى اللقاء، ولكن إذا تأخرت سألحق بك.

- كي تحميني مرة أخرى؟ لا! «دعني أبادر منيتي بما ملكت يدي!»

- أنت، يا أرقش، تبادر كلّ شيء بما ملكت يدك، لكنك، في المواقف الصعبة، قد تحتاج إلى يد مع يدك.

قال الأرقش:

- هذا صحيح، لو كنت ذاهباً للقتال، لكننا، أنت وأنا، لم نصل إلى هذه المرحلة.. إننا في مرحلة الحوار، وقد قلنا أو عرضنا أموراً كثيرة، وهي كلّها قابلة للنقاش مع حقّ الاختلاف، واحترام الرأي والرأي الآخر، انطلاقاً من نقطة الذين يحتاجون إلى أوراق اعتماد، لتقديمها إلى الطرف الذي يرغبون أن يقبل أوراق اعتمادهم، إلى البابا والسؤال عن ستالين، وعن الدبابات التي لديه، إلى ستالين نفسه، ومعه أمثاله من الذين قاوموا الغزاة وانتصروا عليهم.

سؤال الحكيم:

- ولماذا كلّ هذا الشرح؟

- كي تكون ديموقراطيين فعلاً لا قولًا.. الحقيقة نسبية، وقد مضى زمن الاعتقاد بأنّ الحقيقة مطلقة، وأنّك، وأنت وأنا، مع الحقيقة النسبية، أو هذا ما ينبغي أن يكون، إننا نملك نصف الحقيقة فقط، والنصف الآخر، الذي قد يكون هو الأصحّ، يملكه الغير، ولهذا الغير كلّ التجلّة والاحترام.. هكذا أفهم القضايا، وهكذا أطرحها، وقد قال تشيكوف:

« علينا أن نطرح القضايا طرحاً صحيحاً» شرط أن تكون لدينا قضايا نطرحها. ونحن لدينا قضية الآن، هي القضاء على الذئب الأسود، وعلينا أن نذهب للبحث عنه، لا أن ننتظر، عند هذا النبع، أن يأتي إلينا.. مرة أخرى إلى اللقاء، ودون فلق عليّ.

ذهب الأرقش.. بقي الحكيم بشير جالساً على صخرة النبع، فـكـر، على نحو هادئ، بكل ما سمع، قلب الأمور على كل وجهها، قال في نفسه: «الأرقش خـرـدـقـ حـكـمـيـ، جـعـلـهـاـ كـالـغـرـبـاـلـ، تـكـلـمـ عـلـىـ فـكـرـاتـ جـدـيـدـةـ عـلـىـ، عـلـمـنـيـ الكـثـيـرـ مـمـاـ كـنـتـ أـجـهـلـ، قالـ: «عـلـيـنـاـ أـنـ نـكـونـ دـيـمـوـقـراـطـيـنـ حـقـيـقـيـنـ، أـنـ نـؤـمـنـ أـنـنـاـ نـمـلـكـ نـصـفـ الـحـقـيـقـةـ فـقـطـ، وـنـحـترـمـ مـنـ يـمـلـكـ نـصـفـهـاـ الـآـخـرـ، إـذـاـ مـاـ كـانـ هـذـاـ النـصـفـ هـوـ الصـحـيـحـ.. كـنـتـ أـمـامـهـ كـتـلـمـيـذـ، وـهـذـاـ لـيـسـ سـيـئـاـ، لـكـنـ مـاـذـاـ بـشـأـنـ حـمـاسـتـيـ وـحـمـاسـتـهـ لـسـتـالـيـنـ؟ـ هـذـاـ اـرـتـكـبـ، كـمـاـ يـقـالـ، جـرـائـمـ كـثـيـرـةـ، إـلـاـ أـنـهـ بـنـىـ دـوـلـةـ، أـنـشـأـ صـنـاعـةـ ثـقـيـلـةـ، قالـ جـيـكـوـفـ فيـ مـذـكـرـاتـهـ: «لـوـ لـمـ يـكـنـ التـصـنـيـعـ التـقـيـلـ فـيـ الثـلـاثـيـنـاتـ لـمـ اـنـتـصـرـنـاـ عـلـىـ هـتـلـرـ فـيـ الـأـرـبـعـيـنـاتـ»ـ وـقـالـ إـنـ العـجـوزـ كـانـ يـتـدـخـلـ، وـهـوـ يـدـخـنـ غـلـيـونـهـ، فـيـ بـعـضـ الشـؤـونـ الـعـسـكـرـيـةـ، وـكـانـ تـدـخـلـهـ، فـيـ أـحـيـانـ كـثـيـرـةـ، فـيـ مـحـلـهـ.. وـعـنـدـمـاـ حـاـصـرـتـ الـجـيـوـشـ الـأـلـمـانـيـةـ لـيـنـيـنـغـرـادـ وـمـوـسـكـوـ وـدـمـرـتـ سـتـالـيـنـغـرـادـ، نـطـقـ بـهـذـهـ المـقـولـةـ: «لـقـدـ أـرـادـوـهـاـ حـربـ إـيـادـةـ، فـلـتـكـنـ كـمـاـ أـرـادـوـهـاـ».ـ وـلـمـاـ اـنـدـحـرـ الـهـتـلـرـيـوـنـ فـيـ سـتـالـيـنـغـرـادـ، وـأـسـرـ الـجـيـشـ الـأـحـمـرـ الـمـارـيـشـالـ الـأـلـمـانـيـ فـوـنـ باـولـوـسـ، أـرـسـلـ إـلـيـهـ هـتـلـرـ قـائـلاـ: «ابـنـكـ، ياـ سـتـالـيـنـ، فـيـ قـبـضـتـيـ،

والمقاييس واضحة: «أطلق فان باولوس، فأطلق ابنك، وإن ذبحته!» وكان جواب ستالين حاسماً: «لا أقايض فون باولوس بابني، اعدم ابني بالطريقة التي تشاء!» وقد أعدم هتلر ابن ستالين فعلاً، وظلّ فون باولوس في أسر الجيش الأحمر، ك مجرم حرب.. فلماذا ي يريدون، الآن، إلقاء ستالين على مذلة التاريخ؟ الأرقش له قلب ستالين وقوته، إنّه، ببساطة، يرغب أن يكون ستالين هذه الغابة، دون أن يحسب حساب الزمن.. لقد تبدل الزمن، وكيفي ينجح الأرقش، عليه أن يتبدل أيضاً، أن يدع المغامرة جانبًا، أن يترك الطيش، ألا يلقى بنفسه إلى التهلكة، ألا يضع هدم القلاع كهدف راهن، وعلىّ، أنا الحكم بشير، أن أتدخل، أن أحول بين الأرقش والموت المجاني».

لكنّ الأرقش كان، في هذا الوقت، يسند ظهره إلى جذع سنديانة، ويصغي بانتباه إلى ما تقوله قمبطة، والشادوف الجريح، المصاب في كتفه الأيمن، مكبلاً، مرميًا غير بعيد عن قدمي الأرقش، الذي هاله أن تكون الخيانة، متفشية على هذا الشكل، بين بعض الصيادين!

عادت رئيفة إلى النبع، وبعدها بقليل عاد دغمش أيضاً، وراحوا يستمعان إلى ما يقوله الحكم بشير، عن كلّ ما جرى اليوم، وكانا يأسفان، يستنكران، يرددان كلمة «فظيع!» فيجيب الحكم: «لا بأس! لا بأس.. لا تأسفا، لأننا، الأرقش وأنا، خرجنا من فتح الخيانة سالمين، سوى خدوش بسيطة أصابت الأرقش، وهو الآن، بخير».

سألت رئيفة:

- وأين هو الآن؟

قال الحكيم بشير:

- يصطاد الطرائد.

قال دغمش:

- سأذهب وراءه!

صاحت قمطرة:

- لا! لا تذهب وراءه.. إنه قادم ومعه طريدة محززة.

التفت الجميع نحو الصوت، دهشوا لرؤيه قمطرة تقف
وراء الصخرة، عجبوا من وجودها حيث تقف، والبندقية في
يدها، فقال دغمش:

- من أنت؟ ولماذا تسللت على هذا الشكل المريض؟
كنت تتضيئ علينا؟

ردت قمطرة:

- ليس من عادتي أن أتنضّت، وكذلك أن أتسلل.. من
أنت؟ وكيف لم نتعارف قبل الآن؟ على كلّ حصل خير..
أنا قمطرة، صيادة زميلة، من الغابة الأولى، وأنت من تكون
من الزملاء في هذه الغابة؟ ومن هي هذه المرأة التي إلى
جانبك؟ كنت أنتظر أن ترحبوا بي، لا أن تتهمني بالتسلي
والتنضّت.. مرحباً جميماً، نحن، هنا، عائلة واحدة..
دعوني أصافحكم كما يليق، وأأمل أن ترددوا التحية بمثلها،
وأن تواصلوا الحديث، إلا إذا كان هناك ما يمنع مواصلته
بحضوري، وعندئذ أبتعد، كما تقضي الأصول، أليس كذلك
يا حكيم؟

قال الحكيم وأدرك ما في هذا الكلام من تلغيز:

ـ مرحبا بك يا قمطرة بيننا، وليس من قول خبيء أو سرّ مادمنا أسرة واحدة، هذا هو دغمش، وهذه هي رئيفة، وأنا الحكيم بشير.. متى وصلت إلينا؟ وهل جئت وحدك أم مع أحد؟ تفضلي اجلسـي..

ظللت قمطرة واقفة، بندقيتها في يديها وهي تتفرّس الوجه، والحكيم بشير يتتساءل: «ماذا هناك؟» ويتابع حركات الجميع من طرف غير ملحوظ، مستغرباً الوجوم الذي ران على الوجه، ونظرات القلق في عيون دغمش ورئيفة، راغبـاً في كسر جوّ الصمت الثقيل، غير المعـتاد، متوقـعاً حدثـاً ما، دون أن يعرف ما هو، جاهـداً في كتم أنه يعرف قمطرة، وأنـه حضر عقد قرانها على صقرش، وأنـهما ذهـبا إلى أعماق الغابة لقضاء ما يسمـونه «شهر العسل» أي الدخلة، بعيدـاً عن العيون، وفي عـشـ غرام مقامـ من الأغصـان والأعـشاب.

قال دغـمش بنـرة تخلـلـها بـحة:

ـ لماذا لا تجلس ضيفـنا العـزيـزة، وزـميلـتنا الشـجـاعـةـ في مـطارـدةـ الذـئـبـ الأـسـودـ؟

أـجـابتـ قـمـطـرةـ:

ـ لأنـيـ تـعبـتـ منـ الجـلوـسـ، مـنـذـ الصـبـاحـ وـأـنـاـ أـتـرـضـدـ الذـئـبـ الأـسـودـ مـثـلكـمـ، دونـ أنـ يـظـهـرـ هـذـاـ اللـعـينـ.. إـلـىـ متـىـ مـطاـرـدـةـ الـوـهـمـ هـذـاـ يـاـ حـكـيمـ؟ بـلـغـنـيـ عـنـ لـسانـكـ أـنـ الذـئـبـ الأـسـودـ وـهـمـ وـحـقـيقـةـ، فـهـلـ صـحـيـحـ ماـ بـلـغـنـيـ؟

قال الحكيم بشير:

- صحيح يا قمطرة، والشرح طويل.. بعض الصيّادين
ملّ الانتظار، فعاد من حيث أتى، وبعضهم، مثل دغمش،
يأمل باصطياد ذئب أبيض..

سألت قمطرة:

- ذئب أم ذئبة؟

قال دغمش:

- الاثنان معاً!

- وماذا تنتظر؟

- أن يرقّ قلب الذئبة قليلاً.

ضحك الحكيم وقال:

- هذا لن يحدث «حتى في المنام»

- عندئذ أفنصها.

قالت رئيفة:

- إذا استطعت!

قالت قمطرة:

- كيف لا يستطيع وهو مجنون ليلي؟

قالت رئيفة:

- وهل نال مجنون ليلي ظفر ليلي؟

قال الحكيم:

بلى! ناله، وأتى إليها وجلس معها، حسبما يقول طه
حسين.

قالت رئيفة:

ـ أنا لا شأن لي بكلام طه حسين أو سواه.. دغمش ليس قيس بن الملوح، وأنا لست ليلي العامرية.. أنا رئيفة وكفى! لماذا لا تجلس زميلتنا قمطرة؟ هل تتضرر أحداً؟

ـ كنت أنتظر، والذي كنت أنتظره وصل.. ومعه صقرش، وطريدة ثمينة جداً، هي الشادوف، هل سمعتم بالشادوف؟ الأرقش سيقوم بتعريف بعضنا إلى بعض، باستثناء الحكيم بشير، فهو معروف منا جميعاً، وحكمه يسري علينا جميعاً.. ما هذا الجريح الذي تدفعه أمامك يا الأرقش؟

ـ إنه الشادوف، زلمة القلاع، وقد أرسلوه ليقتلني، وأطلق النار عليّ فعلاً، لكنه لم يصبني لسوء حظه، وتكلفت قمطرة به، رصاصتها سبقت رصاصتي إليه،وها هو جريح في كتفه الأيمن، جئت به إليكم لأسائلكمرأيكم فيه، ماذا تقول يا دغمش؟ وماذا تقولين يا رئيفة، وما ترى بشأنه يا حكيم؟

لم ينبس أحد بكلمة.. تفرس الأرقش في الوجوه من حوله وقال لقمطرة:

ـ أنت التي اصطدت هذه الطريدة، وأنت التي استجوبته، وأنت التي اعترف لك بالبنادق الحديثة التي جلبها معه.. وهي هنا، في هذا الشوال، ونحن أحق بها من أمثاله.. وزعى البنادق الجديدة على الجميع، دون تمييز وبعدل، وبغير ضحاج، وخذى البنادق القديمة، الصدئة، لتبقى تذكاراً لدينا.

كان الحكيم أول من أعطى بارودته لقمطرة، وأخذ

بارودة جديدة، تبعه صقرش، ثم رئفة، ثم قمطرة، ثم الأرقش.. وقال دغمش:

ـ أنا سأحتفظ ببنديقتي التي لا أجيد التصويب بغيرها.

قال الأرقش:

ـ أنت، يا دغمش، قناص قديم، تجيد التصويب بأي بنديقية، فلماذا ترفض؟ وهل أسأنا يوماً إليك؟ أنت زميلنا الذي ذاع صيته، وأنا أحافظ لك بهدية ثمينة.. خذ البنديقية الجديدة ومعها رئفة.

صاحت رئفة:

ـ لا!

قال الأرقش:

ـ بلى!

قال دغمش:

ـ أنا لا أريد رئفة ولا البنديقية الجديدة!
خطا الأرقش نحوه، أمسك به من عنقه، ضغط عليه وقال:

ـ خذ البنديقية الجديدة، ودون رئفة هذه المرة.. أنت يا دغمش لا تعرف من هو الأرقش.. سأخذ ببنديقتك بالقوة، هاتها.. هاتها وإنما مت خنقاً بين يدي الحديديتين.. ما قولك؟

ـ أنا عبدك المطيع!

ـ لا! أنت لست عبدي، أنت قاتل، قناص بشر، وبعد

أن أخذت بندقيتك آمرك أن تجلس، وأن تضع يديك على رأسك، كما يفعل الأسرى.. أنت، يا دغمش، أسير الأرقش الآن، والقول الفصل في قضيتك من اختصاص الحكيم بشير.

قال الحكم بشير:

- كل إدانة تحتاج إلى أدلة وإلى شهود، وفوق ذلك إلى رجل ضليع في القانون!

قالت قمطرة:

- القانون فوق الجميع، ولكن أين هي دولة القانون التي تضع القانون فوق الجميع؟

قالت رئيسة:

- حاضرة وغائبة في وقت واحد.

قال دغمش:

- هذا هراء، مجرد القول أين القانون، يعني أنه ليس هناك قانون، وأن الأقوى هو الذي يطبق قانونه على الأضعف، وحالياً، الآن، شاهد على ما أقول.. الأرقش تصرف وفق قانون الغاب، وقانون الغاب يتبع للوحش الأقوى أن يأكل الوحش الأضعف، الأرقش هذا ليس إلا وحشاً أقوى، وأنا لست إلا الوحش الضعيف، لذلك ينوي أن يأكلني أمامكم، لكنكم جميعاً تعرفون القول المأثور: «أكلت يوم أكل الثور الأبيض» فإذا لم تبادروا إلى وقف الأرقش عند حده، سياكلكم واحداً واحداً بعدي، ولا أستثنى الحكم بشير نفسه من هذا المصير!

قالت رئيفة:

- نعم! على نفسها ستجني براقش.

ردت قمطرة:

- أنا براقش، وأنا التي على نفسها ستجني، إذا لم تجِنْ عليكم قبل غياب شمس هذا النهار.. سأقتلكم وفق المثل القائل: «بشر القاتل بالقتل!».

أجابت رئيفة:

- «وبيت الزاني ولو بعد حين خراب» كما يقول مثل آخر.

- ومن هو الزاني؟

- الذي كنت معه في الغابة يا أفعى!

- الذي كنت معه يأنف الزنى، حتى معك يا ست الحسن.

قال دغمش:

- وقضاة العور، قضاة عورا!

وقال صقرش:

- والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا به، ويستضحك الأموات لو نظروا!

قالت قمطرة:

- ملقيه إذن بحسنك المأجور يا رئيفة!

قال الأرقلس بهدوء وحسم:

- يكفي ما قلت، ويكتفي ما سمعنا.. ما عقاب الخائن؟

سكت الجميع، بمن فيهم الحكيم بشير.. رازهم الأرقلس واحداً واحداً وقال:

- الإعدام طبعاً! الخائن هو الشادوف، والذي ينفذ حكم الإعدام بالخائن هو دغمش.. هيا يا دغمش.. نفذ الحكم، وبكل مهارتك في التصويب.

نير دغمش:

- ولماذا أنا؟

صاحب الأرقش غضوبياً:

- نفذ الحكم، وإنما نفذت الحكم فيك بدلاً عنه.. قف منتصباً يا شادوف، أطلق الرصاص عليه يا دغمش، أما رصاصية الرحمة فأننا من سيطلقها.

نهض دغمش خوفاً من الأرقش، وبيد مدربة ومجربة، رفع بندقيته وأطلق رصاصه على الشادوف، لكن الرصاص كانت خلبية، فقهه الأرقش وقال:

- لماذا لم يسقط الشادوف؟

قال دغمش:

- لأن الرصاص خلبية كما يبدو!

قال الأرقش:

- نعم! الرصاص خلبية، أما البنادق الأخرى، الجديدة، فإنها خالية من الرصاص تماماً.. الآن يباشر الحكيم بشير التحقيق معكم، وبنفس طويل جداً!

أضاف الأرقش:

- الأفضل لكل منكم أن يقول الحقيقة، هل سمعتم؟ الحقيقة ولا شيء غيرها، وقد أعزز من أنذر.. والسلام.

الجزء الثاني عنوانه: «الأرقش والغجرية!»

عنوان المؤلف:

ص.ب. ٣٠٣٩٣ - دمشق / سوريا

P.O.Box 30393 - 5115322

